السفينة البيضاء

ЧИНГИЗ АЙТМАТОВ

Белый пароход
(После сказки)

جنكيز أيتماتوف

السفينة البيضاء

ترجمة

د. ماجد علاء الدين

- السفينة البيضاء.
- تأليف: **جنكيز أيتماتوف.**
- ترجمة: **د. ماجد علاء الدين.**
- الطبعة الأولى 2016.
- عدد النسخ 1000.
- الترقيم الدولي: **ISBN**: 978-9933-18-825-2

جميع الحقوق محفوظة

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين
للنشر والطباعة والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: 5617071 11 00963
فاكس: 5613241 11 00963
ص. ب: 30598 جرمانا
www.zoyaala-addin.com
ala-addin@mail.sy

دار ومؤسسة رسلان
للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: 5627060 11 00963
00963 11 5637060
فاكس: 5632860 11 00963
ص. ب: 259 جرمانا
www.darrislan.com
darrislansyria@gmail.com

وفـاءً لذكرى

السيدة زويـــا ميخائيلينكو

لدورها الكبير في مسيرة دار علاء الدين

1

كانت لديه حكايتان. الأولى ذاتية خاصة، ولم يعلم بها أحد. أما الأخرى فهي تلك، التي رواها الجد. وفيما بعد لم تبق لديه ولا واحدة. وعن هذا يجري الكلام.

في تلك السنة بلغ الصبي من العمر سبع سنوات، وهو الآن في بداية الثامنة.

في أول الأمر، تم شراء الحقيبة المدرسية. وكانت سوداء اللون من الجلد الصناعي، ولها قفل فضي برّاق، ذو سقاطة تولج تحت قفل. وعلى جانبها الآخر جيب بارز من الجلد نفسه، وهو مخصص للأشياء الصغيرة، وبكلمة، إنها حقيبة عادية لتلميذ عادي. ومن هنا، وحسب اعتقادي، قد ابتدأت القصة.

لقد قام الجد بشراء الحقيبة من سيارة جوالة، تشبه الدكان المتنقل، كانت تجوب القرى والدساكر الجبلية، وهي تحمل بضائع متنوعة، تهم الرعاة وأسرهم وطبيعة أعمالهم في مجال رعي الحيوانات في الجبال البعيدة، حيث لا توجد محلات تجارية. وذات مرة ظهرت هذه السيارة في منطقة مخفر الأحراج بالقرب من منحدر "سان - تاش".

ومن هنا، من قسم الحراسة، امتدت غابات جبلية محمية، صاعدة إلى أعلى عبر الشعاب والسفوح. ولم يكن يعيش في هذه المنطقة

سوى ثلاث أسر. ومع ذلك، كانت تلك السيارة - الدكان تقوم بين الحين والآخر بجولة على هؤلاء العاملين في مجال حراسة الغابة المحمية.

أما هذا الصبي فكان الولد الوحيد لدى الأسر الثلاث، وكان أول من يراقب ويلحظ قدوم السيارة - الدكان. وبمجرد أن يراها كان يصيح بأعلى صوته وهو يركض، متجهاً نحو المكان، الذي تعيش فيه هذه الأسر الثلاث: - ها هي، قد جاءت! السيارة - الدكان قادمة!

ابتدأ في هذه المرحلة شق طريق العجلات من ساحل بحيرة إسك - كول، عبر الشعب، بجانب ضفاف النهر. وكانت هذه الطريق في البداية وعرة للغاية، ولم يكن من السهل على هذه السيارة - الدكان أن تسير عبرها. وكان يلحظها الصبي عندما تصل إلى جبل الحراسة، ثم تأخذ مسارها من بداية الطريق الضيقة نحو سفح الجبل، وهي تسير الهوينى، وببطء طويل، عبر هذا السفح العاري المتعرج، متجهة نحو بيوت حراس الغابة. وهذا هو جبل الحراسة على مسافة قصيرة منا. في الصيف كان يهرع الولد في كل يوم، ومنذ الصباح الباكر، إلى الجبل الأعلى حتى يستطلع من خلال منظاره ماذا يجري قرب بحيرة إسك - كول. وهناك، ومن الطريق حيث يقف، كان يشاهد كل شيء على ضفاف البحيرة، كما لو كان على كف يده- المشاة، والراكبون على الخيول، وبالطبع السيارات في الاتجاهين.

في تلك المرة - وكان هذا في يوم صيفي حار - أخذ الولد يسبح في الخزان الصغير. وشاهد من هناك، كيف تصاعد غبار السيارة الصاعدة عبر طريق سفح الجبل. أما بالنسبة للخزان المائي فقد كان على ضفة النهر الضحلة، المليئة بالحصى. ولقد جهّز الجد هذا الخزان من الحجارة والإسمنت. ولولا هذا الخزان، لما استمر الولد في الحياة،

وكما كانت تقول الجدة، ربما كان النهر قد جرف بقايا عظامه الصغيرة وحملها بعيداً إلى بحيرة إسك - كول، وبلعتها هناك الأسماك، وغيرها من الحيوانات المائية. ولو حدث ذلك، لما بحث عنه أحد، ولم يتعذب أحد من أجله، - لأنه كان يمارس باستمرار العبث مع مياه النهر، وخاصة أن هذا الولد لم يكن ضرورياً لأحد. ومن باب القرابة، فهو ليس قريباً لأحد كان بمعنى القرابة الحقيقية. ولكن، وحتى الوقت الحاضر لم يحصل معه أي شيء، ولو حدث، فمن يعلم، - فالجدة، ربما، وفي واقع الأمر، لن تحزن كثيراً، ولن تقذف بنفسها في ماء النهر لإنقاذه. وخاصة، أنه لم يكن قريباً لها، وهي غالباً ما كانت تصفه بالغريب. والغريب - يبقى دائماً غريباً، مهما أطعمه الإنسان وسقاه واهتم به... ولكن، ماذا، لو أنه رفض أن يكون غريباً وتقرّب من أحد ما؟ ولماذا بالذات كان عليه أن يحسب نفسه غريباً؟ ربما، ليس هو الغريب، بل الجدة هي الغريبة عن الآخرين في المنطقة!

أما بخصوص هذه القرابة وكذلك عن خزان الجد سنتحدث عن كل هذا فيما بعد...

وهكذا، وبعد أن شاهد الصبي السيارة - الدكان، وهي تصعد عبر السفح الجبلي، والغبار يعلو خلفها عالياً في الفضاء، فرح فرحاً شديداً، لأنه كان يعرف بأن جده سيشتري له تلك الحقيبة، التي حلم بها منذ زمن بعيد. فخرج من الماء بسرعة، وارتدى سرواله، وهو يخفي جسده النحيف، الذي ما زال مبللاً بالماء، وبدا جلده أزرقَ، فالمياه في النهر كانت باردة جداً، - وأخذ يركض عبر الطريق إلى البيت، ليكون أول من يخبر عن مجيء السيارة - الدكان.

ركض الولد بسرعة، وكان يقفز فوق الشجيرات، ويتجنب أشواك العليق، إذ لم يكن بمقدوره أن يقفز من فوقها. ولم يتوقف

نهائياً، ولا في أي مكان، ولو لثانية واحدة - ليس عند الحشائش الطويلة، ولا عند الحجارة الوعرة، رغم أنه كان يعلم بأن هذا الوعر ليس مرجاً أخضر، وكان من الممكن أن يعطب إحدى قدميه، أو كليهما معاً بالحجارة الحادة لو لم يكن حذراً. "وصلت السيارة - الدكان، أما أنا فسأصل متأخراً قليلاً ". - قال وهو يسير مسرعاً نحو "الجمل النائم"، - هكذا كان يسمي الولد، الجمل الأشقر من حجر الغرانيت، وكان صدره غارقاً في جوف الأرض. ولم يمر الولد مرة واحدة من جانب الجمل هنا، إلا ويمسح بيده على "جمله" وبشكل خاص فوق سنامه، ويربت على ظهره، حسب طريقة المالك، وكما كان يفعل جده بالنسبة لحصانه الخصي أبتر الذنب. - فهو وبدون تكلف، يقترب ويقول: أنت، عليك الانتظار، فأنا سأبقى هنا لبعض الوقت لأنهي عملي. ولقد كان عنده صخرة ملساء أسماها "السرج" - نصفها أبيض، ونصفها الآخر أسود كباقي الأحجار البلقاء، حتى كانت تشبه سرج الحصان البسيط. وكان هناك حجر آخر أسماه "الذئب"، إذ كان يشبه الذئب إلى حد بعيد، أسمر داكن اللون، مع الشعر الرمادي الشائب، فوق كتفه القوي، وكان ذا جبهة عريضة وضخمة.. كان يقترب منه زاحفاً، ويقبّله. أما بالنسبة للحجر، الذي كان يحبه بالدرجة الأولى - كان حجر "الدبابة"، وهو عبارة عن صخرة قوية لم يأخذ منها الزمن مأخذاً، وبقيت على حالها عند ضفة النهر، نظيفة مغسولة بشكل جيد. وينظر الولد إليها، وكأنه ينتظرها حتى تنزل إلى الماء، وتعكر مجرى النهر، وتقذف الزبد الأبيض كما تفعل الدبابات الحربية في الأفلام، التي كان يصطحبه جده لمشاهدتها في صالة السينما في مركز السوفخور في الغوطة الوسطى، خلف الجبل. إذ كانت تسير كما لو كانت في واقع الأمر:

من الشاطئ إلى الماء على سجيتها... فالولد، نادراً ما كان يشاهد الأفلام، ولذلك حفظ عن ظهر قلب كل ما دار فيها، أو حدثه جده عن بعض الأحداث الحربية. ولهذا ظهرت على الشاطئ "الدبابة"، التي بدت، وكأنها جاهزة دوماً للسباحة في الماء عبر النهر. وكان هناك الكثير من الحجارة الأخرى، التي أسماها بأسماء مختلفة مثل "المشاكسين" أو "الأخيار" وحتى توجد بعض الحجارة، التي أطلق عليها أسماء "الخبثاء" و"الأغبياء".

أما بالنسبة للنباتات فأطلق عليها أسماء - "الحبيبة"، و"الشجاعة"، و"الجبانة الخائفة"، و"الشريرة" وغيرها الكثير. وعلى سبيل المثال، العليق الشوكي،- إنه عدو رئيس للإنسان. فالصبي كان يقطع الفروع حتى الجذر على وجه الأرض، وليس من نهاية لهذه الحرب، فقد كانت الفروع تظهر فوق ما تبقى من الجذور، وتبدو هذه الفروع ذكية وفرحة، وخاصة عندما تظهر الأزهار، وتستقبل الشمس أكثر من أية أزهار أخرى. وهناك الكثير من الأعشاب، التي لا تفرق بين ما يحيط بها- لا في الصباح ولا في المساء، الأمر بالنسبة لها سيان.أما زهور اللبلاب فهي تبعث الدفء، وتفتح العيون، وتضحك ملء فيها. وفي البداية تفتح عيونها، واحدة، بعد الأخرى، وتكرر بازدياد تفتحها فوق زهور اللبلاب. وكذلك الأزهار البيضاء الزرقاء قليلاً كزهور اللبلاب المتنوعة. وإذا جلس الإنسان إلى جانبها بهدوء كامل، يبدو له، وكأنها قد خلدت للنوم ثم استيقظت، وأخذت تهمس بشيء ما. فالنحل- يعرف هذه الطريقة في التعامل أيضاً مع هذه النباتات. ففي الصباح تنطلق النحلات العاملات فوق اللبلاب، وهي تطلق إشارات تحت أشعة الشمس، ويستمعون، لما تتحدّث به الأزهار فيما بينها. ربما كانت تتحدّث عن أحلام، عاشتها في فترة نومها في أيام ماضية.

وفي وقت الظهيرة، عادةً، كان الولد يحب الصعود على جذوع الأشجار الباسقة العالية، وهذه الأشجار، كما هو معروف، لا تحمل أية أزهار كانت، ولكن الأريج يفوح منها باستمرار. وتنمو هذه الأشجار مع بعضها على شكل أجمات متفرقة، ولا تسمح للنباتات الأخرى أن تنمو بينها أو حتى مجرد الاقتراب منها. فهذه الأشجار تتعامل مع بعضها كما تتعامل الصديقات الوفيات. وخاصة عندما تلم بإحداهن مصيبة ما، فتجد الأخريات على استعداد للبكاء على طريقتها، حتى لا يراها أحد وهي تبكي. وتفضل الاعتكاف بين الأشجار على أي مخبأ آخر في الغابات. وتفوح بأريج خاص يشبه أريج أشجار الصنوبر في أيام التفتح. يشعر الإنسان المتواجد بين هذه الأشجار بالدفء والهدوء. والممتع فيها، أنها لا تحجب السماء من فوقه. وفي بداية الأمر، وعبر بعض الدموع لا يميز هو بين هذه الأمور. وفيما بعد وعندما تأتي الغيوم سابحة في الفضاء من بعيد، ساعتئذٍ يدرك الفرد بأنها فكرت ببدعة ما في الأعالي. فالغيوم تعرف، أنك تعاني من وضع كئيب، وترغب في أن تخرج إلى مكان ما، وتطير بعيداً، حتى لم يعد أحد ما قادراً على العثور عليك، ويستغرب الناس القضايا المدهشة في هذه الطبيعة - حتى لو اختفى الولد، على سبيل المثال، فأين سنجده الآن؟ وحتى لا يحدث هذا، وحتى لا تختفي أنت، وحتى تبقى مضطجعاً على ظهرك، وتنعم بالغيوم، التي تتشكل، أمام ناظرك بأشكال مختلفة وحتى لو لم ترغب فيها. فمنها نفسها قد تجد مناظر طبيعية متنوعة. وهنا تبرز موهبة الإنسان في تحديد الأشكال والوجوه، التي يكوّن منها لوحات مختلفة.

إنه كان يعلم مختلف القضايا عن الأشجار والأعشاب. أما بخصوص الأشجار المنحنية، أو عوجاء الساق، التي نمت فوق مياه

السيول المنحدرة من الهضبة، فقد كان يتعامل معها بتساهل. يا لها من حمقاء ذات رؤوس طائشة! وحتى أغصانها الناعمة الحريرية لا تقدر على الحياة بدون رياح. تنتظر جميعها النسيم في الظهيرة كشجرة واحدة. وبمجرد أن يهب النسيم، فهي تتحرك متضامنة فوق كل الهضبة، بغض النظر عن الجهة، التي يأتي منها النسيم أو تأخذها الرياح إليها. ولا تعرف على ماذا تستند، وهي تلوح، وتتساقط، وتنحني حتى تلتصق بالأرض أحياناً... ولكنها، تفعل هذا من باب التظاهر والتفاخر. وعندما تهدأ العاصفة، تعود الشجيرات من جديد إلى التمايل ثانية وثالثة بدلالٍ مع سير الهواء - وتميل إلى حيثما تشاء الرياح...

عاش الولد في أحضان الطبيعة وحيداً، من دون أصدقاء، وتأقلم مع هذه الكائنات الحية بدون خبث أو تلاعب. وكانت هذه الأشجار تلتف حوله بالإضافة إلى الناس، الذين قدموا للإطلاع على الأشياء الموجودة في السيارة الجوالة. ولا يمكن لهذه الكائنات آو الأشياء الثابتة في الطبيعة أن تنسيه السيارة وما كان من الممكن أن تأتي به من أشياء جديدة. فالسيارة الدكان ليست الحجارة الجامدة، أو الأعشاب، التي تنبت هنا وهناك. فهي على عكس الطبيعة يجد الإنسان فيها في كل مرة أشياء جديدة حتى يندر في بعض الأحيان أن تطلب شيئاً، ولا تجده!

عندما وصل الولد إلى البيت راكضاً، كانت السيارة قد اصطفت في مكانها المعهود في الساحة، خلف البيوت في منطقة المخفر، التي كانت مبنية على نسق واحد، وواجهاتها قد صممت ليشاهد السكان النهر أمامهم. ولهذا كان الأهالي يخرجون من بيوتهم مباشرة نحو الضفة الأخرى للنهر، التي بدت بعد الأمطار

وكأنها قد غسلت. وإلى جانبهم كانت الطريق إلى المخفر ممتدة في ظل الأشجار. ولو لم يكن هذا الصبي سريعاً واختار الطريق الأقرب لما عرف أحد من السكان بوصول السيارة - الدكان إلى مكانها المحدد.

لم يكن أحد من الرجال موجوداً في هذا الوقت، فجميعهم توجهوا إلى أعمالهم منذ الصباح. أما النساء فكن يتابعن أعمالهن المنزلية. ولكن الولد صاح بصوت حاد وقوي، وهو يقترب راكضاً من الأبواب المفتوحة: - جاءت السيارة! وصلت السيارة - الدكان!

تحركت النسوة كل واحدة في اتجاه، إلى تلك المخابئ، التي أودعن نقودهن فيها بانتظار قدوم السيارة - الدكان. وهرعن يتسابقن على الطريق. وهنا امتدحته الجدة قائلة:

- يا لك من ولد، كالديك الصيّاح!

شعر الولد بنفسه أنه هو القائد، فهو الذي مشى أمام الناس إلى السيارة - الدكان. ولقد كان سعيداً، لأنه حمل إليهم هذا الخبر. وكذلك، لأنه جاء معهم، وقادهم إلى الساحة، ولأنه، كان يزاحمهم أمام باب السيارة الجوالة لشراء شيء ما. أما النسوة، فلم يعرنه اهتمامهن، إذ كن منشغلات، بتأمين حاجاتهن، فالأغراض مختلفة، والأعين تحتار ماذا تختار. والنسوة كن ثلاث: الجدة، والخالة بيكي - أخت أمه، وهي زوجة المسؤول الأول في مخفر الحراسة، الخيال الجوال أرازكول. أما المرأة الثالثة فقد كانت زوجة العامل المساعد سيداخمات، الشابة غولجمال، وهي تحمل طفلة رضيعة على يديها. ها هن ثلاث نساء. ولكن كان لهن من الحركة والصخب وكأنهن جمع كبير. حتى أن البائع قد خرج عن طوره، وطلب منهن أن يقفن في الصف، وأن يحترمن عمله، ولا يعبثن بالبضاعة على هواهن، وأن لا يتصرفن بصورة فوضوية.

ولكن كلماته لم تؤثر في النساء كما يجب. فلقد قلبن كل شيء رأساً على عقب، ثم أخذن بالاختيار، وبعد ذلك يرجعن ما تم اختياره، وهن يضعن جانباً ما تم اختياره وقياسه على أجسامهن. أخذن بالنقاش الحاد، وهن يشككن بأذواق بعضهن. وكن يسألن السؤال نفسه عشرات المرات. فبعض الأشياء لم تعجبهن، والبعض الآخر كان غالي الثمن، ولدى الفئة الثالثة كان هناك احتجاج على اللون، ولم يعجبها ذوق المصممين... أما الولد فقد وقف جانباً، وقد ملّ وضجر من هذا الوضع، ونفذ صبره وقدرته على الانتظار ، وغادرته تلك السعادة، التي كان يشعر بها، عندما شاهد السيارة - الدكان، وهي تقترب من سفح الجبل. وفجأة، وأمام ناظره تحولت السيارة - الدكان إلى سيارة عادية، مليئة بشتى البضائع المختلفة، تعبث بها النسوة.

عبس البائع بشدة، ولم يكن واضحاً له، أن النسوة يرغبن بشراء شيءٍ ما. فلماذا جاء إلى هنا، إلى هذه المنطقة النائية، في الجبال؟

وهذا ما حصل حقاً. فالنسوة أخذن يتراجعن تدريجياً. وتبرر الواحدة موقفها أمام الأخرى، والثانية أمام الثالثة، والثالثة أمام البائع. حيث قالت الأولى أنه لا يوجد نقود لديها، وحقاً لم يكن في يدها نقود، ولهذا لن يعطيها البائع الأغراض بالدين. والخالة بيكي، لم تكن تمتلك الشجاعة حتى تشتري أغراضاً قيّمة بدون حضور زوجها، فهي ذات الحظ الأسوأ بين كل النسوة في الدنيا، لأنه لم يكن لديها أولاد، ولهذا يقوم زوجها أرازكول بضربها عندما يكون ثملاً وكيفما يطيب له. كان الجد يتعذب كثيراً من تصرف صهره، لأن الخالة بيكي كانت هي ابنته الوحيدة. أخذت الخالة بيكي بعض الأشياء الصغيرة، وقنينتين من الفودكا لزوجها. ولم يكن لهذا الأمر معنى أو جدوى، وسيكون أسوأ بالنسبة لها، ولم تطق الجدة صبراً، فأخذت تتكلم بصوت خافت، حتى لا يسمع البائع ما تقول:

- في الحقيقة، إنك بعملك هذا ستجنين على نفسك.

فردت الخالة بيكي قائلة: - أنا نفسي أدرك وأعرف هذا جيداً.

- يا لك من مجنونة. - همست الجدة بصوت خافت للغاية، ولكنها عبرت بهذا عن كل الحقد في قلبها. ولو لم يكن البائع هنا، لقالت أسوأ الكلمات للخالة بيكي وتذكرها بعدد المرات، التي تتخاصم فيها مع زوجها في اليوم الواحد!

أما الشابة غولجمال، قد ساعدتها، وأنقذتها من الورطة، إذ أخذت تشرح للبائع بأن زوجها سيداخمات يجهز نفسه قريباً للسفر إلى المدينة، وسيكون بحاجة للنقود هناك، ولذلك لم يكن بإمكانها أن تصرف ما تحمله معها في المحفظة.

وهكذا تجولت النسوة حول السيارة - الدكان، واشترت واحدة منهن "ببعض الكوبيكات"*، مما اضطر البائع للقول، معرباً عن عدم الرضا، عندما انصرفن إلى بيوتهن: هل هذه تجارة! وبصق في أثر النسوة المغادرات، وأخذ يعيد ترتيب البضائع، التي أصبحت في كومة مختلطة مع بعضها، وعندما انتهى من تصنيفها وإعادتها إلى وضعها الطبيعي، جلس خلف المقود، وهمَّ بالانطلاق. إلا أنه شاهد الولد ذا الأذنين البارزتين المنتفختين، الذي بدت رقبته نحيفة جداً، وهي تحمل رأساً كبيراً مكوراً، فسأله مستفسراً:

- وأنت ماذا تريد، يا ذا الأذنين الكبيرتين؟ هل تريد أن تشتري؟ تعال بسرعة، وإلا فإنني سأقفل الدكان. هل توجد لديك نقود؟

لقد طرح البائع سؤاله بصيغة مبسطة، لأنه لم يكن لديه ما يفعله، ولكن الولد أجاب باحترام:

---

* الكوبيك - هو أصغر جزء من الروبل. - (المترجم).

- كلا، يا عم، لا توجد لديَّ نقود. - أخذ يلوح برأسه يمنة ويسرة.

أجاب البائع بلغة المداعب، وهو يمد بلفظ الكلمات:

- أما أنا، فقد فكرت، بأنك أغنى من كل الموجودين هنا، ولكنك تحاول أن تظهر بمظهر الفقير. قل لي ما هذا الذي يبدو منتفخاً في جيبك، أليست نقود؟

- كلا، يا عم. - أجاب الولد كالسابق باحترام، وثقة، وجدّية، وسحب الجيب الممزق من مكانه، فبدا رثاً وممزقاً. أما الجيب الآخر فقد كان محكم الخياطة منذ أن اشتراه.

فقال البائع للولد مبتسماً:

- هذا يعني، أن النقود قد سقطت من جيبك الممزق، فابحث عنها حيثما لعبت، فستجدها بشكل أكيد.

عم الصمت لثوان، ثم فكر البائع قليلاً، وسأل باختصار:

- وأنت ابن من هنا أيها الولد؟ أنت ابن الكهل مأمون، أليس كذلك؟

أحنى الولد رأسه، معبراً عن الموافقة.

- هل أنت حفيده؟

- نعم. - أحنى الولد رأسه مرة أخرى.

- وأين أمك؟

لم يجب الولد بأية كلمة. لم يكن يرغب في الكلام عن هذا.

- ألم تصل من أمك هذه أية أخبار، وأنت ما زلت لا تعلم شيئاً؟

- لا أعلم.

- وأبوك؟ لا تعلم أيضاً؟

التزم الولد الصمت.

- ماذا حلّ بك، أيها الصديق، لا تعلم شيئاً، على الإطلاق؟
- قال البائع ملاطفاً الولد وأخرج كمشة حبات من الحلوى، وأضاف قائلاً: - لا بأس، طالما الأمور هكذا خذ قطع الحلوى هذه، ولتبقى بخير، وبصحة جيدة.

خجل الولد وارتبك كيف سيتصرف. بينما أضاف البائع:

- خذ أمسك. لا تؤخرني. حان الوقت لمتابعة طريقي...

وضع الولد حبات الحلوى في جيبه، وجهّز نفسه للركض خلف السيارة، حتى يودع السيارة الجوالة، عند مفترق الطرق. فصرخ هو للكلب بالطيك، وهو كلب كسول جداً، أشعث الشعر. ولقد هدد أرازكول عدة مرات، بأنه سوف يطلق النار على هذا الكلب. فما المبرر أن يتم الحفاظ على مثل هذا الكلب. أما بالطيك، فمن الضروري نقله إلى مكان ما في الغابة، وتركه هناك، حتى لا يتم قتله. فلم يكن أي شيء يهم بالطيك - إذا كان شبعاً، نام بلا نهاية، وعندما يجوع كان يتمرغ أمام القريب والغريب على حد سواء، وهمه الوحيد الحصول على غذاء يُرمى له من قبل أي إنسان. هكذا كان بالطيك. وفي بعض الأحيان، وحتى يقضي على الملل، كان يركض خلف السيارات. حقاً، وحتى في هذا، لم يتعب نفسه، إذ كان يركض لمسافة قصيرة، ومجرد أن يركض قليلاً، كان يعود بعد حين، ويلوح بذيله، ويدخل إلى البيت. إنه كلب خامل كلياً. ولكن، وعلى أي حال، أن يركض الإنسان مع كلب، أفضل بمئة مرة، من أن يكون الإنسان وحيداً. مهما كان سيئاً - فهو كلب، ويحسب حسابه...

وببطء، وحتى لا يلاحظ البائع، قام الولد بقذف حبة كراميلا للكلب "بالطيك"، وهو يقول له: - "انظر، إننا سنركض طويلاً". أخذ "بالطيك" يلوح بذنبه وهو ينتظر الحلوى ولعابه يسيل. أما الولد

فلم يقذف له واحدة أخرى، إذ أنه خاف من البائع أن يغضب منه، فهو ليس من أجل الكلب أعطاه حفنة الحلوى.

وهنا، وفي هذه اللحظة، حضر الجد. بعد أن عمل في الزرع، ومن الحقل لم يكن واضحاً له، ماذا يجري خلف البيوت. وحصل، أن الجد قد عاد في الوقت المناسب، وقبل أن تغادر السيارة الجوالة، التي لم تكن لتعود مرة أخرى في المستقبل القريب، وبهذا لن يكون لديه حقيبة. ولهذا حالف الحظ الولد بشكل جيد.

كان الكثير من الوجهاء يعرفون الجد مأمون، ويطلقون عليه لقب مأمون الحَرِك. كان معروفاً لدى جميع السكان، وكان هو أيضاً يعرف الجميع. ومثل هذا اللقب لمأمون، كان ناجماً عن اهتمامه ونباهته بخصوص كل ما يدور حوله، وحتى لأولئك، الذين كان يعرفهم قليلاً. وكان مستعداً لمساعدة أي إنسان يحتاج المساعدة. ولكن هذه السمات لم تجد تقييماً جيداً كما يجب، وكما لا يقيّم الذهب على حقيقته، وخاصة إذا وُزع في غير مكانه وبلا معنى. فلم يتعامل أحد مع مأمون بتلك النباهة والاحترام، الذي يستحقه رجل في عمره. فكان يتعامل الناس معه بكل بساطة وسهولة. وحدث، وفي مناسبات العزاء الكبيرة، وفي وداع إنسان معروف ومحترم من قبيلة بوغو - ومأمون كان قريباً، وهو من السلالة المذكورة، ويتفاخر بأنه بوغيني، فهو لم يسمح لنفسه أن يغيب عن مناسبة عزاء عند بني قبيلته. ولقد كلفوه دائماً بذبح الخراف وغيرها من المواشي والضحايا في المناسبات، وهذا موقف احترام وتقدير له، وأن يستقبل الضيوف المحترمين وأن يساعدهم، ويمد لهم يد العون وهم يترجلون عن خيولهم، وأن يقطع الحطب ويزيد على الحطب في الموقد، وأن يقدم ماء الشرب للضيوف، وما إلى ذلك من أعمال كثيرة في المناسبات المتنوعة،

وخاصة العزاء منها، حيث يحضر الكثير من الضيوف من القرى المجاورة. وكل ما كان يطلبه آل قومه منه، كان ينفذه بصورة جيدة، وكان يقوم بالعمل الموكل له بسرعة ودقة. والمهم، أنه لم يتكاسل بتنفيذ أي عمل كان، كما يتصرف الآخرون. أما أهل العزاء أو الحفل، الذين كان عليهم أن يستقبلوا ويطعموا عدداً كبيراً من الضيوف فكانوا يعترفون بفضل مأمون، كيف تمكن من إنجاز وترتيب الأمور:

- ماذا كنا لنعمل، لو لم يكن مأمون الحَرِك موجوداً!

وحصل، أن الكهل، الذي وصل مع حفيده من مكان بعيد، كان في دور مساعد للرجل، الذي يطهو بسرعة. ولو كان شخص آخر مكان مأمون، لكان قد انفجر من الإهانة، أما بالنسبة لمأمون فلم يعر اهتماماً لهذا!

ولم يستغرب أحد أن مأمون قام بخدمة الضيوف - فهو هكذا طيلة حياته، مأمون الحَرِك، الذي لا يتغير. فهو قد أخطأ بحق نفسه، إذ كون نفسه هكذا ولا يقبل صفة أخرى. وإذا هبّ شخص ما، من الضيوف، الذين لا يعرفونه، وأعرب عن استغرابه، لماذا، أنت، الرجل المسن، تعمل هكذا كشاب صغير، يعمل ما يؤمر به من قبل النسوة، ألا يوجد شباب في هذه القرية للقيام بهذا العمل؟ - كان مأمون يجيب: "إن المرحوم هو أخي (لقد حسب كل البوغيين إخوة له. وحقاً، لم يكونوا أقل من مكان "الإخوة" وغيره ضيوفاً)، فمن سيكون مجبوراً أن يعمل يوم وفاته، إذا لم أعمل أنا؟ ولهذا، نحن البوغيين كأقرباء من أمنا الأولى - أمنا - أم الغزلان. وهي أم، ذات سمات عجيبة، إذ أوصت لنا الغزالة - الأم، أن نقدس الصداقة في الحياة، وفي الذاكرة الأبدية..." - هكذا، يرى مأمون الحَرِك!

أما في أدب المخاطبة، فقد كان الجميع سواء الكبار في السن أو الشباب يخاطبونه بـ "أنت" بلا تضخيم وتعظيم الـ "أنتم" وكان يسمح للجميع أن يمازحونه، ويصنعون الطرفات عنه - فالكهل لم يغضب من أية طرفة. وكان البعض يسمحون لأنفسهم بأكثر من ذلك، - وهو لا يعرف الغضب، وليس من باب المصادفة لم يسامح الناس كل إنسان لا يعرف الغضب أن يعلم الآخرين على احترامه، أما هو فلم يُجد ذلك.

كان مأمون يعرف الكثير في الحياة، فعمل نجاراً، سروجياً، وكداساً متميزاً. وعندما كان شاباً، كان يرتب الكدس الواحد، تلو الآخر في الكولخوز بصورة رائعة، حتى يأسف الشخص أن يخربها في الشتاء: لقد كانت الأمطار تسيل من فوق الكدس، ويبقى الكدس محافظاً على نوعيته، كما يخرج الأوز من الماء، وكان الثلج يتراكم فوق الكدس، ولا يلحق أي ضرر به. وخدم في الجيش في مدينة مغنيتاغورسك، إذ قام ببناء المصانع في السهوب. وكان من أنصار جماعة ستاخانوف* للعمل حتى تفاخروا به. وبعد أن عاد من الحرب، عمل في قطع الأخشاب وتصنيعها في منطقة الكوردون. وبغض النظر أنه كان عاملاً عادياً، كان يشرف على حماية الغابات. أما أرازكول صهره، لم يكن يهتم في شيء، بقدر ما كان يحب أن يسافر من مكان لآخر ليحل ضيفاً، في كل مكان توجه له دعوة. ألم يقم أرازكول بالواجب عندما يتطلب الأمر من القيادة - فهو جاهز بصورة دائمة أن يذهب بنفسه ويطلع القيادة على وضع الغابات، وينظم

* خلال الحرب وبعدها، قامت جماعات ستاخانوف - بطل العمل الاشتراكي بتحقيق الكثير من المنجزات بسرعة، وبتفوق في النوعية والكمية، وأخذ يضرب المثل بهم في التضحية من أجل العمل المبدع والخلاق. - (المترجم).

رحلة صيد للهواة منهم. وهو هنا يتصرف كصاحب ملاك للغابة. وكان مأمون يرعى الماشية، ويشرف على منحل، فهو أمضى طيلة حياته بالعمل، وعاش في المشاغل، ولكنه لم يتعلم كيف يرغم الآخرين على احترامه.

وحتى المظهر الخارجي لمأمون لم يكن متوافقاً، ومنسجماً مع ذاته. ليس في مظهره شيء من الأهمية أو الاتزان، ولا قوة الإرادة. يظهر الخير واللطافة على محياه. وعند النظرة الأولى إليه، يستشف الإنسان فيه شيء من عدم الانسجام مع محياه الخير، إذ تنم بعض سماته عن طبيعة غير خيّرة، وخاصة النزعة نحو نكران الجميل التي يتصف بها الإنسان في كثير من الأحيان. وفي كل الأوقات يعلمون أولئك: "عليك أن لا تكون خيّراً، وكن شريراً! تعلم هكذا، تعلم هكذا! كن شريراً"، - أما هو، حتى ضد مصلحته، يبقى خيراً غير قابل للتغير. وكان وجهه بشوشاً، ومبتسماً بصورة دائمة، ومتجعداً بكثرة، وعيناه كانتا تسألان دائماً: "ماذا يلزمك؟ هل تريد أن أقوم لك بعمل ما؟ إنني جاهز فوراً، قل لي فقط ما يلزمك وأنا سأفعل".

أما أنفه فقد كان طرياً، كمنقار البطة لدرجة ما، وكأنه بلا غضاريف. وغير كبير من حيث الحجم. وكان مأمون الكهل، كثير وسريع الحركة كالمراهقين.

أما بخصوص لحيته - حتى هذه السمة الرجولية لم تكن موفقة ومناسبة عنده. إنها مثيرة للضحك جداً. فلقد نمت على ذقنه الأجرودي شعرتان أو ثلاث شعرات شقراوات - هذه كل اللحية.

وفي بعض الأحيان - ترى رجلاً كهلاً، جسيماً، ولحيته تكون كحزمة كثيفة من الشعر، ويضع على كتفيه فروة واسعة، ذات قبة من فراء الحملان الفاخرة. وعلى رأسه قبعة ثمينة من فراء الثعالب.

ويركب على حصان قوي، ويكون السرج مجهزاً على خير شكل، ومرصعاً بالفضة - حتى يخال للإنسان أن لا شيء يميزه عن الحكيم، ولا يختلف عن الرسل. ولهذا الشخص ليس من العيب أن ينحني الإنسان، ويستقبله باحترام في كل مكان! أما بالنسبة لمأمون فقد ولد وشبَّ كإنسان مبعثر ومشتت. وربما أن السمة المميزة لدى مأمون هي، كونه لم يخف مطلقاً أن يحط من قيمة شخصيته في عيون أي إنسان، كأن (لم يجلس كما يجب، ولم يقل كلاماً سليماً، ويجيب ليس كما يجب، وليس هكذا يبتسم، ليس، كذلك، ليس كذلك، ليس...). ففي هذا المجال، لم يشك مأمون مطلقاً، وكان إنساناً سعيداً حسب قناعته: وكثير من الناس يموتون ليس من المرض، بقدر ما يموتون من الحسد، الذي ينهش بهم طيلة حياتهم، ويروون بأنفسهم أكثر مما يستحقون. (فمنهم من يرغب أن يكون ذكياً، ومهماً، وجميلاً، وآخرون يرغبون في أن يكونوا وقورين، وعادلين، وأصحاب قرار...).

أما مأمون فلم يكن من هؤلاء، إنه كان إنساناً طيباً، ولكن الناس تعاملوا معه كما يتعاملون مع الساذجين. ولشيء واحد كان من الممكن أن ينزعج مأمون: أن يتجاهلوه، وينسوا دعوته لحضور مجلس تنظيم عزاء لأحد الأقارب، قد توفي... فهنا يستاء جداً، ويعاني من هذه الإساءة جداً، ولكن ليس من التهميش له، ونسيانه، - ففي المجالس لم يأخذ أحد برأيه، ولم يحل أية قضية، وفقط شارك بالحضور، بل كان يشعر بالحزن من أن بني قومه قد خرقوا الواجب التقليدي.

ولم يخلُ مأمون من المصائب والمعاناة الخاصة، التي كانت تؤثر به تأثيراً كبيراً. وكان يبكي في الليالي طويلاً، دون أن يعلم الغرباء بهذا مطلقاً. أما المقربون فقد كانوا يعلمون بهذا.

وعندما رأى مأمون حفيده بالقرب من السيارة الجوالة، أدرك على الفور أن الولد قد زعل من شيء ما. ولكن، وبما أن البائع من خارج المنطقة، ففي البداية توجه الكهل إلى البائع. فنزل على الفور عن حصانه، ومد كلتا يديه مباشرة للسلام على البائع.

- السلام عليكم، أيها البائع الكبير! - قال مأمون بلهجة نصفها ملاطفة، ونصفها جدي، - هل أمور التجارة على ما يرام، والربح جيد لديك في هذه الرحلة، وعسى أن تكون تجارتك ناجحة؟ - كان مأمون مسروراً للغاية، وهو يشد بيديه على يد البائع.- فكم من المياه قد جرت خلال الفترة الماضية، بعد آخر مرة رأيتك فيها! أهلاً وسهلاً!

ابتسم البائع بلطف ومودة بعد سماع كلمات مأمون الترحيبية، ومنظره الخالي من أي جمال - فهو يرتدي جزمة عتيقة، مصنوعة من جلد الأبقار، وسروال جنفاصي، أخاطته له العجوز كيفما تيسر، وكذلك الجاكيت المترهل القديم، وقبعة قديمة أيضاً، غيّرت الأمطار والشمس لونها الأساسي، رغم سماكة اللباد المصنوعة منه. أجاب البائع مأمون قائلاً:

- القافلة بخير، ولكن النتيجة غير جيدة - فالتاجر يأتي إليكم، بينما أنتم تغادرون بعيداً عنه إلى الغابات، وكلّ إلى جهة. وأنتم تعاقبون نساءكم، إذا امتلكت واحدة منهن بعض القروش، كأنها تمسك بروحها قبل الموت. فهنا، وحتى لو جئت بالبضائع المتنوعة، فلا يرغب الناس بالشراء.

- لا تؤاخذني، أيها الصديق، - اعتذر مأمون بخجل. - لو علم الناس بقدومكم لما سافروا، كلّ إلى جهة. أما بخصوص عدم وجود النقود، فهذا أمر طبيعي، فالقانون لا يعاقب من ليس لديه نقود. وعندما سنبيع البطاطا في الخريف، ستكون لدينا نقود...

- تحدث كما تشاء! - قاطع البائع كلام مأمون. - إنني أعرفكم جيداً أيها البايات القذرين، تجلسون في الجبال، ولديكم أراض واسعة، مستودعات الحشائش اليابسة مليئة بكميات كبيرة. والغابات الغنية من حولكم- يلزمك أيام حتى تقطعها سيراً من جنب لجنب. والمواشي لديكم لا تعد ولا تحصى. وكم لديك؟ بالطبع لديك منحل؟ ويصعب عليك أن تشتري بقروش- إذن، فأنتم بخلاء. خذ على سبيل المثال، بطانية حرير، أو ماكينة خياطة، بقيت لديّ واحدة فقط.

- أقسم بالإله، لا توجد لديّ نقود، - اعتذر مأمون.

- وهل لي أن أصدقكم فوراً! إنك بخيل مساك. أيها الكهل، تجمع النقود، وإلى متى؟

- أقسم لك بالإله، لا يوجد، أقسم بالغزالة - الأم، ذات القرون!

- خذ قطعة قماش مخملية، واصنع لنفسك سروالاً جديداً.

- لو كانت النقود موجودة، لأخذت فوراً، أقسم بالغزالة - الأم، ذات القرون!...

- إ - إ، ماذا حلّ بك، وما فائدة الكلام معك! - لاح البائع بيده. - من سوء حظي أنني قدمت إليكم. وأين أرازكول؟

- غادر منذ الصباح، يبدو أنه اتجه إلى أكساي. لديه أعمال عند مربي الماشية.

- يعني، أنه حل ضيفاً، - أكد البائع كلامه، وهو يفهم الواقع. خيّم الصمت الحرج لبعض الوقت.

- لا تغضب مني، أيها العزيز - عاد مأمون للكلام من جديد، - في الخريف، سيرزقنا الله عندما نبيع موسم البطاطا...

- حتى الخريف ما زال هناك وقت طويل. يموت أناس، ويخلق آخرون.

- طالما، هكذا، لا تؤاخذني. من أجل الإله، تفضل، واشرب الشاي معنا.

- لم أقطع هذه المسافات، حتى أشرب الشاي، - رفض البائع بغلاظة.

أخذ يغلق باب الفرغونة، وهنا بالذات، قال، وهو ينظر إلى الحفيد، الذي كان يقف إلى جانب الكهل، جاهزاً، وهو يمسك الكلب من أذنه، حتى يركض خلف السيارة.

- عليك، أن تشتري للولد حقيبة، فهو يحلم بهذا، وحان له أن يذهب إلى المدرسة قريباً، فكم بلغ من العمر؟

تمسك مأمون على الفور بهذه الفكرة: عسى أن يشتري شيئاً ما من هذه السيارة الجوالة، وحقاً إن حفيده بحاجة لحقيبة، ففي هذا الخريف سوف يذهب إلى المدرسة.

- حقاً، - ارتبك مأمون، - فأنا كنت في غفلة من أمري، حقاً لقد تجاوز السابعة والآن يباشر في السنة الثامنة، تعال إلى هنا، - نادى مأمون حفيده.

أخذ الجد يبحث في جيوبه عن نقود، وأخرج ورقة نقدية من فئة الخمسة روبلات وكان يخبئها في أعماق جيب خفي، وسري.

وكما يبدو أن هذه الورقة النقدية مخبأة منذ أمد بعيد.

- خذ يا ذا الأذنين، - قال البائع، وهو يغمز بعينه للولد وهو يناوله الحقيبة.

- وما عليك إلا أن تجتهد في الدراسة، وإن لم تحقق نجاحاً في المدرسة، فإنك سوف تبقى مع جدك إلى الأبد في الجبال.

- سيقهر العلم، ويحقق نجاحاً! فهو عندي ولد ذكي، - قال مأمون، وهو يحسب ما أعاد له البائع من نقود معدنية.

نظر إلى حفيده، الذي تأبط الحقيبة بيدين مرتجفتين، وضمها بقوة إلى صدره.

- وهكذا، حسناً ما فعلنا. ستذهب في الخريف إلى المدرسة.

- قال مأمون بهدوء، ومحبة خاصة، وهو يمسح بيده الصلبة، والثقيلة على رأس الولد البريء.

وهنا شعر الولد، كيف غصت حنجرته بقوة، وشعر بحدة سوء صحة جده ونحافته، وأحسّ بالرائحة، التي ألفها بالقرب من جده، وخاصة رائحة ثيابه، ورائحة الحشائش اليابسة، وعرق الإنسان الكادح أخذت تفوح بقوة. وأحسّ أن جده هو الإنسان الوحيد القريب منه حقاً، ومركز ثقة لا تتزعزع. وحقاً إن الإنسان القريب هو واحد أحد في الدنيا، إنه مأمون، الذي حافظ على روح المعاملة الإنسانية، في هذا الكهل البسيط الساذج، الذي أطلق عليه العقلاء لقب مأمون الحَرِك... وماذا في الأمر؟ ومهما يكن، فمن الرائع جداً أنه لديه جد قريب وحقيقي.

لم يستغرب الولد، ولم يشك مطلقاً في أن سعادته ستكون كبيرة، وبلا حدود، وخاصة عندما أصبح تفكيره بالمدرسة يتعاظم مع كل يوم جديد يقرب من موعد بدء المدرسة. وحتى هذا الوقت لم يكن يفكر بطبيعة المدرسة وعالمها، فهو كان يرى الأولاد وهم يذهبون إلى المدرسة فقط. وهناك خلف الجبال العالية، في القرى المتواجدة في منطقة إسك - كول، وهناك الأولاد يذهبون مع جدودهم للمشاركة في محافل العزاء للكهلة البوغيين. ولكن الولد منذ هذه اللحظة لم يفترق مع حقيبته نهائياً. أخذ يدور بين الناس ويتفاخر بالحقيبة الجملية، حتى أصبح كل السكان في مخفر الغابات يعرفون مدى سعادة الولد. لقد وضع الحقيبة أمام جدته، وهو يقول: "انظري،

الجد اشتراها لي! ". ثم سرت الخالة بيكي لسرور الولد بالحقيبة، وأخذت تمدحه: "عسى أن تكون ذكياً على قدر الحقيبة".

نادراً، ما تكون الخالة بيكي في مزاج حسن، غالباً ما تكون غاضبة أو كئيبة - وهي لم تلاحظ ابن أختها نهائياً. فهي لا تعيره أي اهتمام. ولديها مشاكلها ومصائبها الخاصة. فتقول الجدة: لو كان لديها أولاد، لكانت امرأة أخرى على الإطلاق. وحتى أرازكول، زوجها، كان بإمكانه أن يكون إنساناً آخراً. ولكان الجد مأمون أيضاً إنساناً آخراً، وليس كما هو الآن، وبغض النظر أن لديه ابنتين - الخالة بيكي، وأم الولد - الابنة الصغرى. وعلى أي حال، الوضع سيئ، عندما لا يكون عند الإنسان أولاد من سلالته، والأسوأ من كل شيء، عندما لا يكون عند الأولاد أولاد لهم، وأحفاد للجدين، هكذا تتحدث الجدة، فافهمها...

وبعد الخالة بيكي، هرع الولد يتفاخر أمام الفتاة الشابة غولجمال وابنتها. ومن هناك اتجه سائراً إلى المحش إلى سيداخمات، ومن جديد عاد ليذهب من جانب الحجر الأشقر "الجمل" ومرة أخرى لم يكن لديه الوقت حتى يربت على سنامه. ومرّ أيضاً من جانب "السرج" و"الذئب" و"الدبابة" وبعد ذلك سار على ضفة النهر، ولكن الطريق كان يمتد عبر شجيرات العناب، وبعد ذلك عبر المحش الطويل وعند الهضبة هرع راكضاً نحو سيداخمات.

لقد كان سيداخمات اليوم وحيداً في العمل. فالجد حصد حصته منذ زمن، كما حصد جزءاً من حصة أرازكول. ولقد نقلوا ما تم حصده من الحشائش - فالجدة والخالة بيكي، كانتا تجمعان الحشائش، بينما كان مأمون يضعها على العربة. ثم تم وضعها بالقرب من حظيرة الأبقار على صفين: فلقد وضعها مأمون بالدقة

الموصوف بها، حتى لا يخترقها ماء المطر في الشتاء. وبدت الكدس منسقة، ومنتظمة وناعمة، دون أي نشاز في منظرها، كما في كل سنة. وبالنسبة لأرازكول، فهو لا يمس الحشائش اليابسة مطلقاً، فهو يترك كل الأمور على عمه - فهو يعدّ نفسه مديراً، ولا يقوم بالأعمال العادية، فيقول عند غضبه: "إذا أردت فبإمكاني أن أطردكم من العمل ببساطة". هكذا كان يهدد عمه وسيداخمات. وهذا يتكرر عندما يكون ثملاً. فبالنسبة للجد يصعب عليه أن يطرده، ولو فعل هذا، فمن سيعمل؟ وهل جرّب أن يعيش بدون الجد! وفي الغابة الكثير من الأعمال، وخاصة في الخريف، ويقول الجد: "إن الغابة ليست، قطيع أغنام، يسرح في المرعى، فهي تحتاج لعناية مثل القطيع، وأكثر، خاصة إذا حصل حريق، أو سيول جارفة من الجبال. فالشجرة لا تبتعد عن الخطر، ولا تغير مكانها، ولهذا تهوي وتسقط في مكانها. ولهذا فإنه يجب أن يكون العمل، متناسباً مع طبيعة مهمة العامل، حتى لا يضيع الخشب بلا جدوى". أما بالنسبة للعامل سيداخمات، فكان على أرازكول أن يطرده من العمل، ولكن لم يتم طرده، لأنه شاب لطيف، ولا يتدخل في أي أمر لا يهمه، ولا يشاكس، ولا يخاصم. ولكن، وبغض النظر عن أنه شاب لطيف وقوي، فقد كان كسولاً، يحب النوم لمدة طويلة. ولهذا فضَّل العمل في مجال الغابة والأخشاب. وكان الجد يقول: "إن هؤلاء الشبان، لا عمل لهم إلا أن يركبوا سيارات السوفخوز بلا نهاية، ويركبون الجرارات ويحرثون عليها". أما بالنسبة لسيداخمات فهو كسول لدرجة، أن الحشائش الغريبة وخاصة القاقلى قد نمت، حتى غطت على البطاطا التي زرعها، فاضطرت غولجمال، أن تقوم بالعمل بنفسها، وهي تحمل ابنتها على يديها.

ومنذ بداية جمع الحشائش كان سيداخمات يتمهل بالعمل. والبارحة شتمه الجد بشدة. - "في الشتاء الماضي - قال هو - لم يؤسفني وضعك آنذاك، بل شفقت على المواشي، ولذلك قمت باقتسام ما يوجد عندي من الحشائش اليابسة معك، وإذا كنت تنتظر مني هذا، في هذه السنة، وأنا أصبحت كهلاً، فإنني أقول لك فوراً، لن أقوم بهذا، وسأخيب أملك". ولهذا قام سيداخمات منذ الصباح الباكر وأخذ المنجل وباشر يحصد الحشائش بحيوية.

سمع وقع خُطى مسرعة من خلفه، نظر سيداخمات، وهو يمسح يديه بقميصه، فوجد الولد خلفه.

- ماذا وراءك؟ هل جاء أحد ما يطلبني؟

- كلا، انظر لقد أصبح لديَّ حقيبة جديدة. لقد اشتراها لي الجد. وسأذهب إلى المدرسة.

- ومن أجل هذا، أتيت تركض؟ - ضحك سيداخمات بسخرية، - إن الجد مأمون هكذا، - وأدار إصبعه إلى جانب صدغه، - وأنت ستصبح مجنوناً مثله أيضاً! هات الحقيبة لنرى بما تمتاز؟

- ضغط على قفل الحقيبة، وأدارها بيديه، ساخراً وهو يلوح برأسه.

- توقف، - صرخ هو بصوت عال، - وإلى أية مدرسة ستذهب؟ أين هي، نعم مدرستك؟

- كيف، أية مدرسة؟ - سأذهب إلى مدرسة الشركة.

- هذا يعني أنك ستذهب إلى جيلساي؟ - استغرب سيداخمات.

- فالمسافة عبر الجبل أكثر من خمسة كيلومترات.

- جدي قال بأنه سوف يأخذني يومياً على الحصان.

- كل يوم سيأخذك ويرجعك؟ يا له من كهل عجيب... ربما سيرغب أن يدرس معك في المدرسة، ويجلس معك خلف مقعد

الدراسة، ويستمع إلى الدروس، حتى نهايتها ويعود معك! - أخذ سيداخمات يتدحرج من الضحك. لقد قهقه بصوت عال، وبلا إرادة. وخاصة عندما تصور كيف يجلس الجد مأمون خلف المقعد مع حفيده في المدرسة.

صمت الولد، دون أن يعرف ما يقول.

- نعم، إن هذا، هكذا، للضحك فقط! - قال سيداخمات ملاطفاً.

نقر سيداخمات بإصبعه على أنف الولد بخفة، ثم أنزل واقية طاقية جده فوق عينيه، فبالنسبة لمأمون لا يضع على رأسه قبعة الشركة، التي يعمل فيها والخاصة بعمال الغابات. كان يشعر بالخجل منها. "فهل أنا مدير قسم؟ فها أنا أضع على رأسي القبعة القرغيزية، ولا أبدلها بأية قبعة أخرى". وفي الصيف كان يضع مأمون على رأسه قبعة من اللباد مبللة بالعرق حتى خارجها، "وهذه كانت" قبعة عادية - بيضاء، على أطرافها حبكة جزفة بقماش أسود، وفي الشتاء، كان يضع قبعة لبّادية، مصنوعة من صوف الغنم. أما بالنسبة للقبعة النظامية لعمال شركة الغابات فقد أعطاها لحفيده حتى يضعها على رأسه، خوفاً عليه من الشمس.

استغرب الولد، أن سيداخمات قد سخر وضحك من الخبر حول الحقيبة. فرفع القبعة عن رأسه قليلاً من الأمام، فوق جبهته، ونظر عابساً عندما حاول سيداخمات مرة أخرى أن ينقره بإصبعه على أنفه، وارتد بسرعة إلى الخلف، وقال سيداخمات بلهجة حادة:

- يا لك من ولد حاد! - ضحك سيداخمات، - لا تغضب مني. فالحقيبة عندك جيدة جداً! - وربت على كتف الولد مهدئاً، - اذهب إلى البيت الآن، أما أنا فعليّ أن أعمل طويلاً في جمع الحشائش...

بصق على كفيه، وشرع سيداخمات يحصد الحشائش بمنجله الطويل!

أما الولد فقد هرول مسرعاً إلى البيت، وعبر الطريق، الذي أتى منه، من جانب تلك الحجارة الثابتة في مكانها. ولكن لم يعد لديه الوقت لملاطفتها، فالحقيبة قد ملأت الفراغ القديم كله.

كان الولد يحب أن يتحدث لنفسه على حدة. ولكن، في هذه المرة، لم يخاطب نفسه، - بل توجه إلى الحقيبة: "عليك أن لا تصدقيه، فالجد عندي ليس كما يقول. فهو ليس خبيثاً مطلقاً ولهذا، فهو يسخر منه، لأنه بسيط وطيب. فهو سوف يأخذنا - أنا وأنتِ - كل يوم إلى المدرسة. فأنتِ لا تعرفين، أين المدرسة؟ هي ليست بعيدة كثيراً من هنا. وأنا سأريكِ إياها. سوف ننظر إليها بالمنظار من جبل الحراسة. وسوف أريك أيضاً سفينتي البيضاء. ولكن علينا أن نذهب الآن إلى الملحق. هناك عندي منظار مهم، وأنا أنظر من خلاله إلى العجل في كل مرة أركض للنظر إلى السفينة البيضاء. أما العجل فقد أصبح كبيراً - ويمكنه أن يسحب الإنسان بقوة، ومن الصعب ردعه، - وها هو قد تعود على رضاعة الحليب من البقرة مباشرة، أما البقرة - أمه، فلا تبخل عليه بالحليب الغزير، هل تفهمين؟ فالأمهات لا يبخلن بشيء على أولادهن. هذه غولجمال تقول الكلام ذاته، فعندها ابنة تهتم بها... وقريباً سوف تذهب لتحلب البقرة، ثم ستخرج العجل ليرعى العشب، وعند ذلك سنذهب، ونصعد إلى جبل الحراسة، ومن هناك سنرى السفينة البيضاء. فأنا أتحدث مع منظاري هكذا، كما أتحدث معك. فنحن الآن أصبحنا ثلاثة أشخاص... أنا وأنتِ والمنظار...".

وهكذا عاد هو إلى البيت. لقد كان معجباً ومسروراً بالحديث مع الحقيبة. ولقد جهز نفسه لمتابعة هذا الحديث. إذ أنه أراد أن يتحدث

عن نفسه، ما لم تعلمه الحقيبة حتى الوقت الحاضر. ولكن الآخرون قد فوتوا الفرصة عليه، فمن الجانب الآخر سمع وقع حوافر خيل عابرة. فمن خلف الأشجار كان ينطلق خيال على حصان مبرقش، هذا هو أرازكول. فهو قد عاد إلى البيت، وهو يمتطي حصانه المبرقش ألاباشا، الذي لا يسمح لأحد غيره أن يمتطي صهوته، ويستخدمه لرحلة ما. وعلى الحصان كان سرج ركوب متميز، ذو ركابين نحاسيين، وعلى صدره كان حزام صوفي ملون واسع، علقت عليه بعض الأجراس الصغيرة المصنوعة من الفضة.

أما قبعة أرازكول فقد ارتدّت إلى الخلف قليلاً، وبدت جبهته حمراء، وقد نما عليها الشعر طويلاً، ولقد عذبه النعاس في أشد أشكاله. فنام على ظهر حصانه خلال المسير. أما السترة المخملية، لم تكن مخاطة بشكل جيد، كما كانت تلك التي يرتديها المسؤولون في المنطقة، إذ كانت سترته مفتوحة من الأعلى وحتى الأسفل. والقميص الأبيض الذي كان يرتديه خلال جمع الحشيش؛ قد فلتت أطرافه من تحت الحزام، بينما كان شبعاً وثملاً، إذ كان يجلس ضيفاً عند معارفه، وشرب الكوميس، وتناول كمية من الشواء، حتى لم يعد يسيطر على جفنيه. وأحب أن يرقد للنوم.

ومع مجيئهم إلى الجبال لقضاء فترة الصيف في المراعي هناك، كان الرعاة وأصحاب القطعان يدعون أرازكول لضيافتهم. وكان لديه الكثير من الأصدقاء القدامى، والندمان - وقاموا بدعوة كل الذين لديهم مصلحة معهم. أما أرازكول - فهو إنسان مركز اهتمام، وخاصة بالنسبة لأولئك، الذين يقومون ببناء البيوت الخاصة بهم، أما هم فيجلسون في الجبال؛ فمن الصعب عليهم أن يتركوا قطعانهم في العراء. وكيف لهم أن يفتشوا عن المواد اللازمة لبناء بيوتهم هناك

حيث يجلسون؟ وبالدرجة الأولى الخشب؟ وإذا تفاهمت مع أرازكول - ولزمك جذعان أو ثلاثة من محمية الغابة، فسيكون ذلك ممكناً، إذا غض أرازكول النظر، وأغلق عينيه عن رؤيتك. وإذا لم تتمكن من التفاهم معه، فإنك ستبقى بدون منزل أو سكن، وستبقى راعياً في الجبال مع المواشي، وسيبقى منزلك في حالة بناء، والبحث عن مواد لمدة قرن من الزمن...

تابع أرازكول طريقه، والنعاس يسيطر على جفونه، وهو يجلس متصنعاً الرزانة والوقار وهو، وبلا اهتمام خالص يبرز الجوربين من الجزمة المصنوعة من جلد الكروم في الركابين.

ولكن أرازكول، كاد أن يقع عن ظهر حصانه من المفاجأة، عندما خرج الولد، وأخذ يركض في مواجهة الحصان، ويلوح بالحقيبة في يده:

- انظر يا عمي أرازكول، أصبح عندي حقيبة! سأذهب إلى المدرسة. هذه الحقيبة جاهزة عندي.

- آه، يا لك من مشاغب! - ارتبك أرازكول فوق السرج، وشد لجام الحصان، وأخذ يسب الولد بلا توقف.

نظر إلى الولد بغيظ، وبعينين حمراوين، منتفختي الأجفان، ثملتين بلا حدود وقال:

- ماذا بك، وماذا حلّ بك؟

- إنني عائد إلى البيت. لديَّ حقيبة، كنت أريها لسيداخمات.

- قال الولد بصوت مخنوق.

- حسناً، العب. - قال أرازكول، وهزّ كتفيه بلا ثقة، وهو يترنح فوق السرج، وتابع طريقه.

فما الذي يهمه في هذه الحقيبة التافهة، وحتى هذا الولد، الذي

لا يهتم به أهله، ابن أخت زوجته، وخاصة أن أرازكول نفسه عاتب على مصيره وقدره، إذ لم يعطه الله ولداً خاصاً به من دمه، في الوقت الذي يعطي فيه الأولاد للآخرين أفواجاً؟...

أما أرازكول فقد غصّ، وأخذ يسعل، فالأسف والحسد قد سدا تنفسه. يؤسف لوضعه، أن حياته ستكون بلا نسل. واشتعلت في داخله الحسرات بخصوص زوجته، التي لا تنجب، فها هي الملعونة، كم من السنوات، قد مضت وهي فارغة، بدون حمل لا في بطنها، ولا ظهرها...

"لقد انتهى الأمر، سأريك!" - أخذ أرازكول يتوعد في نفسه، وهو يشد قبضة يده الثخينة، وتنهد بانقباض وحسرة مؤلمة، حتى لا يبكي بصوت مسموع. وقد أخذ قراراً، بأنه سيباشر عند وصوله بتوجيه الضربات لها، واحدة بعد الأخرى، حتى يفرغ كل حقده. وهذا ما كان يحدث في كل مرة عندما يشرب أرازكول الكحول. فهذا الرجل الشبيه بالثور كان يفقد عقله لشدة المصيبة والحقد الدفين في داخله.

سار الولد في الطريق على أثر أرازكول. ولقد استغرب واندهش، عندما اختفى أرازكول عن نظره. أما أرازكول فقد استدار نحو النهر، ترجل عن الحصان، تركه يرعى، وذهب بين الحشائش الطويلة مباشرة. كان يسير، وهو يترنح في مسيره، منحني الظهر. سار وهو يضغط بكلتا يديه على وجهه، وقد بلع رأسه بين كتفيه. وعند ضفة النهر جلس القرفصاء، وأخذ يغرف الماء براحتي يديه، ويقذف به على وجهه عدة مرات.

"ربما كان يعاني من صداع شديد، من شدة الحر"، - فكر الصبي، وهو يرى ماذا يفعل أرازكول. وهو لم يعرف، أنه كان

يبكي، ولم يعرف كيف له أن يتوقف عن البكاء. وبكى بمرارة لم يسبق لها مثيل، لأن الولد، الذي هرع يستقبله على الطريق ليس ابنه. والسبب الآخر، لأنه لم يجد في نفسه القوة الإنسانية اللازمة، حتى يقول عدة كلمات فيها شيء من مشاعر بني البشر لطفل هرع يستقبله مع حقيبته.

2

من قمة جبل الحراسة بانت المناظر اللامحدودة من كل الجهات. اضطجع الولد على بطنه، وأخذ ينظر من خلال المنظار إلى كل ما يحيط به، وأخذ يحدد قياس التكبير والتقريب، وخاصة أن المنظار كان قوياً، وله إمكانيات كبيرة في تقريب وتوضيح الصور من مسافات بعيدة. ولقد علّمه الجد كيفية استخدامه، فهو تدرب عليه فترة طويلة أثناء قيامه بمهام حراسة الغابات، رغم أنه لم يحب يوماً استعماله، وكان يقول: "لديَّ عينان، ليستا أسوأ من المنظار". أما الحفيد فقد أحبه.

وفي هذه المرة صعد الصبي إلى الجبل مع المنظار والحقيبة.

في بداية الأمر، أخذت الأشياء تتراقص وتختلط، وتتداخل في النافذة الدائرية، ثم ركز الولد قليلاً فاتضح المنظر وأخذ أبعاده الدقيقة والثابتة، وهذا كان أجمل ما في اللحظة. حبس الولد أنفاسه، حتى لا يسيء إلى اللوحة الجميلة، التي حصل عليها، ثم حول النافذة إلى العين الأخرى، فعادت الأمور كما في المرة الأولى، وأخذ الولد يحرك مقياس المسافات حتى ثبتت اللوحة الثانية.

ومن هنا، كان كل شيء واضحاً بكل دقة، وحتى الثلوج في أعالي قمم الجبال، والتي لا يوجد أعلى منها إلا السماء. كانت تنتصب خلف الجبال كلها، وفوق الجبال كلها، وفوق الأرض

المحيطة. وتلك الجبال الواقعة أسفل القمم الثلجية، كانت جبال مغطاة بالغابات الخضراء، حيث نمت وازدانت بلونها الأخضر الداكن فوق الثلوج. أما على جبال كونجي المتجهة نحو الشمس؛ فوق منحدر كونجي فلم تنمو أيّة أشجار كانت، عدا الحشائش. أما الجبال من الجهة الأخرى فهي أصغر، وخاصة بالقرب من البحيرات، - إنها، وبكل بساطة عارية وحجرية، وذات وهاد غريبة. وتقود هذه الشعاب الجبلية إلى الوادي في الأسفل، والوادي يلامس ضفاف البحيرة. وفي هذه الجهة كانت تمتد السهول، والحدائق، والدساكر... ومن خلال لون الغابات الأخضر والمزروعات، وفي بعض الأماكن وخاصة الوعرة منها، أخذت تظهر بعض المزروعات والحشائش المائلة للصفرة، وهذا يعني أن موسم الحصاد قد اقترب. وبدت السيارات في الشوارع كالفئران، تركض في الطرق ذهاباً وإياباً، وخلفها كان يعلو ذيل طويل من الغبار. وفوق الركن الأخير للأرض، حيث كان يصل النظر وحسب مقاييس المنظار، وخلف الخط الرملي على شاطئ البحيرة، بدت الضفة البعيدة للبحيرة زرقاء داكنة. هذه كانت بحيرة إسك - كول. وهناك التحمت ضفاف البحيرة مع حافة السماء السفلى. وبعد ذلك لم يكن مرئياً أي شيء. فالبحيرة كانت تمتد بعيداً بلا حراك، لامعة وخاوية. وبالكاد كان يلحظ الولد في المنظار بعض البقع البيضاء الناجمة عن اصطدام الأمواج مع صخور الشاطئ.

نظر الولد طويلاً إلى هذه المنطقة. "لم تظهر السفينة البيضاء. - قال هو مخاطباً الحقيبة. - تعالي ننظر مرة أخرى إلى مدرستنا".

فمن هنا كانت تبدو واضحة كل الجهة المنسابة، من الجبل المقابل. حتى كان بالإمكان رؤية المغازل في أيدي النسوة العجائز، وهن يجلسن إلى جانب بيوتهن، تحت النوافذ ويمسكن بخيوط الصوف.

أما وهدة جيليساي العارية كلياً من الغابات، فلم يبق فيها إلا بعض شجيرات الصنوبر العتيقة، بعد أن تم قطع الغابة منذ سنوات. وفي السنين السابقة، كان يوجد هنا غابات كثيفة... أما الآن، فقد تم بناء صفوف من زرائب المواشي، المغطاة بالأترنيك. وظهرت كميات كبيرة من الزبل اليابس والقش. وهنا، وبالقرب من ساحات تجمع المواشي، وخاصة الخراف الصغيرة، تم تأسيس شركة متخصصة في إنتاج الألبان. وهنا بالذات، وبالقرب من زرائب المواشي كانت تتموضع قرى ودساكر تربية المواشي على هضبة متدرجة قريبة. وفي نهاية الدساكر كان هناك بيت صغير، وكأنه يبدو مهجوراً من السكان. وهذه هي المدرسة ذات الأربعة صفوف. أما طلبة الصفوف الأعلى فكانوا يذهبون للدراسة في السوفخوز في المدرسة الداخلية.

وكان الولد قد زار مع جده القرية المركزية، حيث كان يعاني من التهاب الحنجرة، وعليه مراجعة الممرض الطبي هناك. أما الآن فقد تمدد على الأرض، وأخذ ينظر محدقاً بانتباه إلى بناء المدرسة من خلال منظاره. وكانت تمتاز المدرسة بأن سقفها من القرميد الأحمر الفاقع، وقد برزت منه مدخنة واحدة مائلة. وعند بابها علقت لوحة مصنوعة من الخشب المعاكس، كتب عليها بخط بسيط: "مكتب"*. أما هو فلم يكن بإمكانه القراءة بعد، ولكنه كان يخمن ما معنى هذه الكلمة. ومن خلال المنظار كان يرى كل شيء، حتى الأشياء الصغيرة، عدا تلك الكتابات المسجلة على جدران المدرسة، وزجاج النوافذ المثبت على الخشب، وكذلك ألواح الخشب البارزة والمنحنية فوق الشرفة. وأخذ الصبي يتصور نفسه، كيف سيحضر إلى المدرسة، ويدخل مع حقيبته من باب المدرسة، الذي أقفل

* كلمة "مكتب" بالقرغيزية تعني مدرسة. - (المترجم).

الآن بقفل كبير. وكان الصبي يرغب بشدة في معرفة ما سيكون هناك في الداخل، خلف هذا الباب.

أنهى الولد النظر إلى المدرسة، ثم حرف منظاره نحو البحيرة. ولكن هناك كان كل شيء على ما هو عليه، فالسفينة البيضاء لم تظهر بعد. استدار الصبي، وجلس وظهره إلى البحيرة، وأخذ ينظر إلى الأسفل من الجبل، بعد أن وضع المنظار جانباً. وإلى الأسفل من الجبل، حيث أخذت الوهدة تزداد عمقاً بالتدريج، وبدا النهر فضياً، مزبداً عند العقد والانكسارات. وعلى ضفاف النهر، وبالقرب منه، كان الطريق يتلوى حسب التواءات النهر، ويختبئ أحياناً خلف المنعطفات والوهاد المنخفضة. أما الضفة الأخرى كانت متقطعة، وتكسوها الغابات، ومن هناك كانت بداية محمية سان - تاش كثيفة الأشجار، التي تكسو سفوح الجبال، وتبدو الثلوج مكدسة بين الأشجار الصنوبرية. وكانت تبدو هذه الأشجار أعلى من غيرها، وهي تمتاز بلونها الأخضر الداكن فوق سلاسل الجبال.

أخذ الولد ينظر إلى البيوت، والملحقات، والدساكر في ساحة مخفر الحدود، وهو يضحك، فهي كانت تبدو أمامه صغيرة، وكأنها سهلة الانقلاب للأسفل. وخلف مخفر الحدود، وعبر امتداد النهر أخذ يميِّز حجارته واحداً، بعد الآخر. هذه هي - "الجمل"، "الذئب"، "السرج"، "الدبابة" - وهو، ولأول مرة ينظر إليها من هنا، من نقطة جبال الحراسة من خلال منظاره، وعندها أطلق عليها هذه الأسماء.

ابتسم الولد بخبث، فوقف، وقذف نحو ساحة المنزل حجراً صغيراً. وقع الحجر مباشرة أمامه، وعلى مسافة أمتار على سفح الجبل. عاد الولد من جديد إلى مكانه، وأخذ ينظر من خلال منظاره إلى منطقة مخفر حراسة الحدود. نظر في البداية من خلال العدسات المكبرة جداً، ثم العدسة الأصغر - فأصبحت البيوت بعيدة، وكأنها

قد هربت من أمامه بعيداً، وتحولت إلى مقاييس الألعاب الصغيرة، كعلب الكبريت. فالصخور الملساء الكبيرة، أصبحت بمقياس الحصوات. بينما بدا خزان جده على ضفة النهر، وكأنه شيء صغير للغاية، لدرجة مضحكة، لا يصل لركبة العصفور من حيث الارتفاع. ضحك الولد وأدار رأسه يمنة ويسرة، وأدار المنظار بسرعة، وأخذ يدير مقياس المنظار. أما الصخور المحببة له، وبعد أن وضع المنظار على المقياس الكبير، فقد بدت كبيرة للغاية، حتى أن زجاجة فوهة المنظار قد ضاقت بها، وبدت وكأنها تلامسها من الأمام. "الجمل"، "الذئب"، "السرج"، "الدبابة" كانت جميعها مقنعة ووقورة: فيها الكثير من النتوءات، والشقوق، وبقع عديدة ناتجة من نمو الطحالب على جوانبها، والمهم - أنها كانت فعلاً تشبه ما رآه الولد فيها. "آه، يا له من "ذئب"! أما "الدبابة"، يا لها من صخرة كبيرة...".

وخلف هذه الأشكال الصخرية، بان خزان الجد، الذي تمت رؤيته بصورة واضحة عبر المنظار. هناك كانت فسحة واسعة من الشاطئ الحصوي. وكانت المياه تجري بسرعة من جانبهم، وهي تقذف برذاذها بعيداً، وأخذت تزيد من سرعتها عند المنحدر. كانت المياه في المنطقة الضحلة تصل حتى الركب. ولكن تدفق الماء في النهر كان يجري بقوة، حتى كان بإمكان النهر أن يحمل ولداً مثله بسرعة فوق تموجاته، ولذلك كان الولد يتشبث بأغصان شجرة نمت على الضفة بالقرب منه - فامتدت بعض أغصانها فوق الأرض الناشفة، والبعض الآخر فوق الماء، فكان الولد يتمسك بها حتى يغتسل في المياه، وينعم بمياه النهر العذبة. ولكن أية سباحة هذه؟ كما يكون الحصان مربوطاً إلى معلفه، فضلاً عن العديد من القضايا، التي لا تطيب للنفس، كالمضايقات والمسبات والشتائم! ولقد كانت

العجوز توبخ الجد: " إذا غرق في النهر، فأنت ستتحمل المسؤولية - ولن أحرك أصبعاً من أصابعي. فالأب والأم قد تركوه. وعندي الكثير من الأعمال، ولا توجد لديَّ أية قوة بعد كل هذا".

فماذا يمكن القول بعد هذا؟ حقاً إنها قد أصبحت عجوزاً، ولكنها تقول كلاماً سليماً. والجد كان يخاف على وضع الولد كثيراً: فالنهر قريب جداً، ولا يبعد كثيراً من هنا. ومهما كانت العجوز تحذره من خطر النهر، كان الولد لا يبالي، ويذهب ويسبح في النهر. وعندها قرر الجد مأمون أن يبني هناك على الضفة حاجزاً صغيراً لتخزين المياه حتى يسبح الولد فيه بدون خطر.

وكم من الحجارة نقل الكهل مأمون، وهو ينتقي الأكبر حجماً، حتى لا يتمكن السيل من جرفها! وكان يحمل الحجر بعد الآخر، وهو يسندها إلى بطنه، وهو يقف في الماء بثبات، ويبنيها الواحد إلى جانب الآخر، مع الحسبان للمسافة بين الواحد والآخر، وحتى تتمكن المياه من الجريان بينها، دون أن تجرفها، وهكذا كان للمياه أن تمر بين الحجارة بحرية. لقد كان الجد مأمون مضحكاً لنحافة جسمه، والشعيرات النادرة المبعثرة على ذقنه، بينما كان سرواله المبلل يلتصق بجسمه طيلة اليوم، وهو يقوم ببناء هذا الحاجز على شكل خزان. وعند المساء كان يستلقي بلا حراك، وكثيراً ما كان يسعل بعد بقائه في الماء البارد لفترة طويلة. وأصبح ظهره يؤلمه، ويصعب عليه الوقوف بسرعة. وهنا جن جنون الجدة نهائياً: "الصغير مجنون - إنه ولد صغير حقاً، ولكن ماذا أقول عن الكهل المجنون؟ ما الذي يجبرك أن ترهق نفسك هكذا؟ نحن نطعمه، ونسقيه، ونؤمن له كل حوائجه، فما الذي ينقصه؟ آه، إن هذا كله بلا نتيجة خيّرة!...".

على أي حال، إن حاجز خزان الماء على الضفة كان شيئاً جيداً. وأخذ الولد يسبح فيه بلا خوف، وهو يمسك بالغصن إلى جانبه، وينزل

بهدوء عن الضفة، أو يرمي بنفسه في الماء، وعيناه كالعادة مفتوحتان. وأحب الولد أن يبقي عيناه مفتوحتين، لأن السمك يسبح وعيونه مفتوحة. لقد كان يحلم بهذا، أن يكون كالسمكة، ويسبح مثلها.

وها هو الآن، يجلس، وينظر من خلال منظاره إلى خزان الماء. ويتصور الولد نفسه، كيف يتقدم من الضفة، ويقذف قميصه، وسرواله، ويسير عارياً، ويقذف بنفسه في الماء. أما المياه في الأنهار المنحدرة من الجبال فقد كانت باردة دائماً. يشهق الإنسان عندما ينزل فيها، إلى أن يعتاد جسده عليها. لقد تصور نفسه، وهو يمسك بالغصن، وينزلق في الماء بسرعة، ووجهه إلى الأسفل. وأخذ يتحسس كيف يقترب رأسه من ضجيج النهر، وخرير المياه، وكيف تلسع المياه الباردة ظهره وأطرافه. وتختفي أصوات الخوف تحت المياه، وفي الأذنين لا يبقى إلا شيء من صوت الخرير. بينما كانت عيناه مفتوحتين، ويجتهد في النظر إلى كل شيء تحت الماء، كان يصبر على بعض الألم في عينيه، ولكنه كان يبتسم بتفاخر، ويمد لسانه أحياناً مظهراً عدم مبالاته ببرودة الماء. وغالباً ما كان يكيد جدته بهذا، لكي تعلم، أنه لن يغرق وأنه لا يخاف من أي شيء. ثم يترك الغصن من يده، وتأخذه المياه بعيداً، ويترنح فوقها حتى يتمكن من تثبيت قدميه فوق الحصى تحت المياه الشفافة، ويعم الهدوء هنا حتى تنحبس الأنفاس. ثم يخرج من الماء بسرعة، إلى الشاطئ ويركض مسرعاً في ظل الشجيرات على الضفة، وهكذا كان يكرر هذه العملية عدة مرات، وكان بإمكانه أن يسبح كثيراً من المرات. فهو كان جاهزاً للسباحة في خزان جده الممتع ولو مئة مرة في اليوم. وهو سيتابع سباحته، حتى يصبح في يوم من الأيام سمكة كما يرغب. وكان هذا ضرورياً مهما كلفه الثمن، إنه كان يرغب في أن يصبح سمكة...

نظر مطولاً إلى شاطئ النهر، ثم وجّه الولد المنظار نحو ساحة بيته. شاهد الدجاجات، والديك الرومي والفراخ الصغيرة، والبلطة المغروسة في جذع الشجرة الكبير، والسماوار، الذي يخرج منه البخار بقوة، ومختلف الأشياء في ساحة البيت، والتي بدت كبيرة الحجم رغم حقيقتها الصغيرة، كما بدت قريبة جداً حتى بدا له، أنه من الممكن تناولها باليد، وفعلاً حرك يده نحوها بلا إرادة. وهنا، شعر بالدهشة عندما شاهد بمنظاره العجل الصغير، وقد كبر حجمه في المنظار حتى أصبح بحجم الفيل، وقد أخذ يمضغ طرف قطعة قماش، منشورة على حبل تعليق الغسيل. ولقد كان العجل يغمض عينيه بسعادة، متنعماً بطعم القماش بينما سال اللعاب على شفتيه. - هكذا كان فرحاً يلوك بملء فمه فستان الجدة العجوز.

- يا لك من مجنون! - توقف الولد عن النظر عبر منظاره، ولاح بيده. - كف عن هذا يا مجنون! أتسمعني! كف عن هذا، وابتعد من هنا! أين أنت يا بالطيك! (كان الكلب بالطيك مضطجعاً بهدوء إلى جانب المنزل). اغرس نابك بجلده، عضه كما يجب! - أخذ الولد ينادي بصوت عال، مستعيناً بالكلب بالطيك حتى يروع العجل.

أما بالطيك فلم ينتبه لصراخ الولد، ولم يحرك واحدة من أذنيه. واستمر باستراحته وكأن شيئاً لم يكن.

في هذه اللحظة، خرجت الجدة من البيت، فشاهدت ما يحدث في ساحة البيت، وأخذت تلوح بيديها مهددة العجل. تناولت المكنسة من أمام البيت، قذفتها نحو العجل. فركض العجل بعيداً، وهرعت الجدة تركض خلفه. جلس الولد في مكانه، دون أن يرفع المنظار عن عينيه، وفعل هذا حتى لا يراه أحد فوق الجبل. طردت العجوز العجل بعيداً، وهي تشتم بصوت عال، وتلهث من شدة الغضب، وسرعة

المشي، كما يصيبها عادة. لقد شاهدها الولد، وكأنها كانت تمر من جانبه، قريبة جداً. أوقف المنظار، عندما بدت الجدة في أحسن صورها وأكبرها، كما في السينما، عندما تشاهد وجه الإنسان من بعيد. لقد شاهد الولد عيني جدته الصفراويين، والتجاعيد الكثيفة على وجهها الغاضب. لقد شاهد كيف احمرّ وجهها للغاية، وهو مليء بالتجاعيد. وبدت شفتا الجدة تتحركان بسرعة وبدون صوت، وبانت أسنانها المتفرقة، وكلّ كبر على طريقته. وخاصة عندما أخذت الجدة تصرخ بشدة، ولكن لم يعرف الولد ماذا كانت تقول من بعيد، ولكن الكلمات، التي كانت توجهها للولد، كانت مسموعة بكل وضوح، وكأنها كانت تتكلم بالقرب منه مباشرة، وتحت الأذن فوراً. آه، كم احتدت وغضبت عليه! كان يعرف عن ظهر قلب ما تقول: "لا بأس، انتظر قليلاً... ستعود، وأريك! لن أخاف مطلقاً من جدك. وكم من مرة تحدثت، حتى يترك عادة النظر في المنظار. وها هو يهرول مسرعاً إلى الجبل. آه، عسى أن يغرق في كهف من الكهوف. ويأخذه الجن بعيداً، عسى أن يحترق، أو يغرق في هذا النهر!...".

تنفس الولد فوق الجبل بصعوبة. يا لغرابة الأمر في هذا النهار بالذات، عندما اشترى الحقيبة، وعندما تعاظم حلمه في الذهاب إلى المدرسة، شاءت الظروف أن يغفل عن العجل في مثل هذا اليوم!

أما العجوز فلم تتوقف عن الكلام، واستمرت بالسباب والشتائم. أخذت تنظر إلى فستانها، الذي لاكه العجل، وهنا خرجت إليها غولجمال مع ابنتها. فأخذت تشتكي لها، عن كل شيء. وازدادت غضباً وحنقاً، وأخذت تهدد بكلتا قبضتي يديها، وهي تنظر إلى الجبل، حيث يوجد الولد. وكانت قبضة يدها السوداء العظيمة،

وهي تهدد وتلوح بها أمام عدسات المنظار: "وجد لنفسه لعبة يتسلى بها. عسى أن تأخذه الشياطين إلى جحورها! عسى أن يحترق. عسى أن يغرق بلا أثر!...".

أخذ السماوار يغلي، والبخار يتصاعد من تحت غطائه. فخرجت الخالة بيكي حتى تأتي بالسماوار. وهنا بدأ كل شيء من جديد فعادت العجوز للدعاء من جديد، وحملت فستانها، الذي لاكه العجل، وكادت ترميه في وجه ابنتها، وكأنها أرادت أن تقول لها، انظري نتيجة تصرفات ابن اختك!

أخذت الخالة بيكي تهدئ من روع الجدة، وتقنعها بأن لا تغضب. وكان الولد يعرف ماذا تقول الخالة في مثل هذه الحالة، فكلامها لا يختلف في كل مرة عن الأخرى: "اهدئي، يا إتاكي*، فالولد ما زال جاهلاً، - وليس بمقدوره أن يقدم أكثر مما يقدر. فهو هنا وحده، وليس لديه أصدقاء يستفيد منهم. فلماذا ترفعين صوتك، ولماذا تخيفين الولد هكذا!".

وهنا أجابت الجدة بلا شك: "أأنت ستعليمنني، ماذا عليّ أن أعمل؟ فحاولي أنت أن تنجبي طفلاً، وعند ذلك ستعلمين أية متطلبات ستكون عندك من جانب الأطفال. فماذا يعمل هناك فوق الجبل؟ إن المنظار لن يعطيه الهدوء مطلقاً. إلى ماذا ينظر من هناك؟ هل يبحث عن والديه الفاشلين، اللذين أنجباه وافترقا كل واحد منهما إلى جهة؟ ولقد فعلت خيراً، أنك لم تنجبي...".

حتى من هناك، ورغم هذه المسافة البعيدة، كان يرى الولد من خلال المنظار، كيف جحظت عينا خالته بيكي، وكيف برزت

---

* إتاكي - أمي باللغة القرغيزية. - (المترجم).

وجنتاها بصورة شاحبة، وبدا وجهها كوجوه الأموات، وكيف كانت ترتجف مضطربة. إنه كان يعرف ما سبب اضطراب خالته. وهنا، انفجرت الخالة بيكي بوجه زوجة أبيها، وقالت وهي تنظر إلى وجهها: "أما أنت بنفسك، أيتها العجوز الغريبة، فكم من الأولاد قد ولدت، وكم من البنات أنجبتي وربيتي؟ فمن أنت الآن بعد كل هذا؟".

فما إن بدأ الحوار يحتد ويشتد حتى أخذت العجوز تبكي من حدة الحسرة. وحاولت غولجمال أن تواسيها، وتنسيها همومها، وأن توقف الخلاف بين النسوة، فاقتربت من العجوز، وأرادت أن تأخذها إلى البيت، ولكن العجوز أخذت تبكي بمرارة أكثر، وهي تجول متأوهة في ساحة البيت، وكأنها فقدت عقلها. فأمسكت الخالة بيكي بالسماوار، الذي يتصاعد منه البخار، وحملته إلى البيت. أما العجوز فقد تعبت، وهبطت على ركبتيها، وجلست على جرن الخشب، وهي تبكي، وتشتكي من قدرها. والآن لم تعد تذكر الولد. فاتجهت متضرعة ترجو الإله بالذات، وتفتح فاها إلى رب الكون الأكبر: "فهل هذه أنا! وهل هذه الأسئلة موجهة لي، فمن أنا؟ - قالت العجوز متأثرة من الإساءة. - نعم، ولو أن الإله لم يعاقبني، ولو أنه لم يحرمني من أطفالي الخمسة في عمر الزهور الصغيرة.. ولو أن ابني الوحيد، لم يقع شهيداً في الحرب وعمره لم يزد عن الثمانية عشر عاماً، ولو أن أبي الكهل تايغار الرائع، لم يتجمد في العاصفة الثلجية مع قطيعه الكبير من الأغنام. لو لم يحصل كل هذا، هل كان بإمكانكم أن تروني هنا، بينكم، يا عمال الغابات؟ فهل أنا حقاً هكذا، مثلك، أيتها العقيمة، التي لا تلد؟ وهل كان لي أن أعيش هذه الحياة مع أبيك، مأمون الأبله؟ وعلى أية أخطاء، وآثام، قد عاقبتني، أيها الإله غير العادل؟".

أزاح الولد المنظار عن عينيه، وأحنى رأسه حزناً.

"كيف لنا أن نعود إلى البيت الآن؟ - خاطب هو الحقيبة هامساً.

- لقد حصل كل هذا بسببي، وبسبب ذلك العجل المجنون، وبسببك أنت أيضاً أيها المنظار. فأنت دائماً تدعوني إلى هنا، حتى أنظر إلى السفينة البيضاء، فأنت مخطئ أيضاً".

نظر الولد في مختلف الاتجاهات، فكانت تبدو الجبال متنوعة ومختلفة بارتفاعها وشكلها، وبدت الأشجار والصخور عليها بكل وضوح. ومن الأعالي، من صوب قمم الجبال كانت تنحدر الأنهار، وهي تعكس على صفحات أمواجها بريقاً خاصاً. وفقط هنا، عند المنحدر أخذت المياه تهدأ قليلاً، وتأخذ شكلاً مختلفاً، وصوتاً خاصاً. وعسى أن تبقى هذه الأنهار غزيرة وفعالة إلى الأبد. أما الجبال فقد بدت هائلة وبلا نهاية. وهنا، شعر الولد بنفسه صغيراً جداً، ووحيداً، ومشرداً لا معين له. فهو وحيد هنا ولا يتعاطف معه أحد غير الجبال. ولكن الجبال، هي الجبال، عالية ومهيبة.

ها هي الشمس تقترب من الغروب خلف الشفق الأرجواني، من جهة البحيرة، وكان الجو دافئاً نسبياً، وليس هناك من حر يذكر. بينما انتشر إلى جانب الصخور الشرقية من جهة الشرق بعض الظل لكل واحدة، حتى تداخل مع بعضه في بعض الأحيان، فالشمس أخذت تسقط للأسفل شيئاً فشيئاً، أما الظلال فبدأت تزحف تدريجياً للأسفل نحو أقدام الجبال. وفي هذه اللحظة بالذات كانت عادة تظهر السفينة البيضاء فوق مياه بحيرة إسك - كول الرائعة.

وجه الولد المنظار إلى أبعد نقطة يمكن رؤيتها، وهو يحبس أنفاسه. وهناك في المقدمة، كانت تبدو بحيرة إسك - كول بزرقتها الرائعة، وقد برزت السفينة البيضاء تمخر المياه. هذه هي السفينة! تعلو

من فوقها السواري في صف طويل وعال. مسح الولد عدسة المنظار بسرعة بأطراف قميصه، ورأى السفينة وهي تشق المياه بهدوء واتزان وبجمالية خاصة. ثم أعاد تعديل قياسات المنظار. ولقد أصبحت رؤية السفن في بحيرة إسك - كول أمراً طبيعياً، حيث تكاثرت السفن وخاصة تلك السفن البيضاء فوق الأمواج. وكان على قناعة أن هذا سيبقى في ذاكرته إلى الأبد. واستغرق الولد بالنظر إلى السفينة البيضاء بإعجاب. ولو كان الأمر ضمن إرادته لطلب بإلحاح من كابتن السفينة البيضاء أن يقترب أكثر حتى تصبح معالم السفينة واضحة ويصبح بإمكانه أن يتعرف إلى وجوه الناس المسافرين على متنها. ولكن كابتن السفينة لم يعلم بهذه الرغبة. وتابعت السفينة مسيرها بهدوء في طريقها المحددة. ولكن أين كانت البداية وأين ستكون النهاية، فهذا غير معروف.

كان واضحاً للعيان كيف تشق السفينة طريقها، أما الولد فقد كان يفكر، كيف من الممكن أن يتحول إلى سمكة، ليلحق بالسفينة البيضاء على طرف من السرعة...

عندما شاهد، ولأول مرة، وفي يوم من الأيام من مرتفعات جبل الحراسة السفينة البيضاء تمخر عباب بحيرة إسك - كول الزرقاء، أخذ قلبه يدق بسرعة متأثراً بهذا الجمال الرائع. وتوقع أن أباه، الذي يعمل بحاراً، يعوم الآن على متن هذه السفينة البيضاء. ولقد صدق الولد هذه الفكرة، التي رغب بأن تكون واقعية.

أما هو فلم يكن يتذكر أباه ولا أمه، فهو لم يرهما مطلقاً، ولم يقع واحد منهما تحت نظره ولو لمرة واحدة. ولكن الولد كان يعرف: أباه بحار يعمل في منطقة بحيرة إسك - كول، وأمه قد تركته مباشرة، بعد أن حصلت على الطلاق من زوجها. تركته عند جده،

بينما سافرت هي إلى المدينة. ومنذ تلك اللحظة لم تعد، وكانت المدينة، التي توجهت إليها بعيدة، خلف الجبال، بل خلف البحيرة الواقعة خلف سلسلة أخرى من الجبال.

لقد ذهب الجد مأمون إلى هذه المدينة ليبيع ما حصل عليه من موسم البطاطا. لقد غاب أسبوعاً كاملاً، وبعد عودته أخذ يحدث الخالة بيكي والعجوز، أنه رأى ابنته، أي أم الولد، الذي يرعاه، إذ كانت تعمل في مشغل نسيج كبير. وقد أصبح لديها أسرة جديدة - ابنتان، وضعتهما في روضة أطفال، وتراهما مرة في الأسبوع. وهي تعيش في غرفة واحدة صغيرة ضمن بناءٍ كبيرٍ، حتى يصعب التحرك فيها لصغرها. أما الجيران في هذا البناء فلا يعرف بعضهم بعضاً، كما في السوق العام. ويعيش الناس كلّ لوحده يدخل إلى غرفته ويوصد بابه. ويعيش خلف الجدران المحكمة كما في السجن. ويعمل زوجها سائقاً، ينقل الناس داخل المدينة، يخرج في الرابعة صباحاً، ويعود متأخراً. عمله صعب للغاية. أما الابنة - أخذ يتحدث الجد - كانت تبكي باستمرار، خاصة في الليل. وقد سجلوا دوراً لاستلام شقة جديدة، ولكن متى سيحصلون عليها فالأمر غير معروف. وعند ذلك ستأتي بابنها ليعيش معها، إذا سمح لها زوجها. وطلبت من الجد أن يصبر على رعايته. فطلب الجد مأمون منها، أن لا تحزن، والمهم أن تعيش مع زوجها في وفاق، وساعتئذٍ كل الأمور الأخرى ستحل في وقتها. وقال لها أنه لا داعي للقلق على ابنها "فما دمت على قيد الحياة، لن أسمح لأحد أن يأخذ الولد، وعندما أموت، سيرعاه الله، وكل إنسان يحصل على نصيبه". وبعد سماع الخالة بيكي والعجوز ذلك خرجتا من البيت وأخذتا بالنحيب سوية.

ولهذا السبب، تذكروا أبا الولد، فقد سمع الجد أن صهره

السابق - أبا حفيده يعمل بحاراً ضمن طاقم عمل على إحدى السفن، وأن لديه أسرة جديدة، وأولاداً - اثنان أو ثلاثة، ويعيشون بالقرب من المرفأ. ويقال أنه ترك شرب المسكرات. وتخرج زوجته مع أطفالها في بعض الأحيان لاستقباله عند المرفأ. "هذا يعني، - فكر الولد، - إنهم يستقبلون هذه السفينة، التي تتبعتها طويلاً...".

أما السفينة فقد تابعت طريقها بثقة واتزان. يا لها من سفينة بيضاء طويلة وجميلة! كانت تسبح بهدوء على التموجات الناعمة الزرقاء، بينما كان الدخان ينطلق من المداخن العالية، دون أن تعلم، بأن الولد كان يسبح نحوها بعد أن تحول بفكره إلى سمكة.

لقد حلم هذا الصبي بأن يتحول إلى سمكة، وحتى يكون كل شيء فيه، كما في السمكة - الجسم، الزعانف، الحراشف. أما بالنسبة للرأس، فقد رغب أن يبقى كما هو بلا تغيير، فوق عنقه النحيل، وكذلك أذناه الكبيرتان، وأنفه المخدوش، وكذلك عيناه كما هما، ولكن، كان من الأفضل لهما أن تبصرا، كما تبصر السمكة بعينيها. أما رموش الولد فقد كانت طويلة، كرموش العجل، وكانت ترف بين حين وآخر بلا رغبة منه. وقد كانت غولجمال تقول: - لو كانت هذه الرموش، التي عند الولد لابنتها، لكانت حسناء! ولماذا لها أن تكون جميلة؟ أو جميل؟ غير مهم! فبالنسبة له من غير الضروري أن تكون عيناه جميلتين - بل من الضروري أن تبصرا بعيداً تحت الماء.

أما عملية التحول إلى سمكة، يجب أن تتم في خزان جده. لحظة وبمجرد أن يقفز إلى الماء، تتم العملية، ويصبح سمكة. ثم يقفز قفزة أخرى من الخزان إلى النهر، وينساب جسمه بحركة سريعة مع جريان النهر. وبعد ذلك، يبدأ بالقفز من جانب إلى آخر، وهو ينظر في

كل الاتجاهات، فليس من الممتع أن يسبح الإنسان تحت الماء فقط. ثم ينطلق مع التيار إلى جانب الانكسار الصخري الأحمر، عبر الحاجز، وإلى جانب الجبال الداكنة بالخضرة، وهو يودع كل الأشياء، التي يملكها ويحبها: إلى اللقاء أيها "الجمل النائم"، إلى اللقاء أيها "الذئب"، إلى اللقاء يا "سرج الخيل" إلى اللقاء أيتها "الدبابة". وعندما يصبح قريباً من نقطة الحراسة، فإنه سيقفز من الماء ويلوح بزعانفه لجده قائلاً: "إلى اللقاء، أيها الجد، سأعود قريباً". وكان يحب أن يبتعد عن معشر النسوة، ولكن لا يعرف ماذا عليه أن يعمل. فالجدة، والخالة بيكي، وغولجمال مع ابنتها سيقفن جميعهن فاتحات الأفواه مستغربات، كيف من الممكن أن يكون رأس الإنسان على جسد سمكة؟ أما هو فيلوح لهن بزعانفه: "إلى اللقاء، إنني، سأسبح إلى إسك - كول، إلى السفينة البيضاء. فهناك، يوجد أبي، وهو يعمل بحاراً". وربما سينطلق الكلب بالطيك راكضاً على حافة النهر، فهو لم يشاهد ولا مرة مثل هذا: للسمكة رأس إنسان. وإذا فكر بالطيك أن يقذف بنفسه نحو الولد، وهو يسبح في النهر، سوف يصرخ محذراً إياها: "لا يجوز، يا بالطيك، لا يجوز! ستغرق". أما هو فسيتابع السباحة، ويغوص في الأعماق من تحت الجسر المعلق، ويتابع سباحته في المضائق على ضفاف النهر، ثم يبتعد إلى الأسفل عبر الانحدارات المتتالية والصاخبة، ويسبح مباشرة إلى إسك - كول.

آه، يا إسك كول - إنها ليست بحيرة، إنها بحر حقيقي. يصل الولد أخيراً ويتنعم بأمواج إسك - كول الزرقاء الهادئة، قافزاً من موجة لأخرى، وهكذا حتى يصبح وجهاً لوجه مع السفينة البيضاء: "مرحباً أيتها السفينة البيضاء، هذا أنا! - قال الولد مخاطباً السفينة. - هذا أنا.. كنت أتابعك دائماً بمنظاري". ويدهش ركاب السفينة،

ويتزاحمون ليروا هذا الشيء العجيب. وعند ذلك يقول الولد لأبيه البحار: "مرحباً، يا أبي، أنا ابنك. لقد أتيت سابحاً إليك" - "أي ابن أنت؟ أنت نصف سمكة ونصف إنسان!" - "خذني إليك في السفينة، وسأصبح ابنك الطبيعي". - "يا للعجب! سوف نحاول". قذف الأب شبكة صيد، فأمسك به وأخرجه من الماء، ورفعه إلى سطح السفينة، وعاد الولد إلى وضعه الطبيعي. وما جرى فيما بعد، سيكون لاحقاً...

تابعت السفينة البيضاء طريقها إلى الأمام. يتحدث الولد لأبيه عن كل شيء يعرفه، وعن حياته كلها، وعن الجبال، التي يعيش فيها، وعن تلك الحجارة، التي يملكها، وعن النهر وعن الغابة في المحمية الطبيعية، وعن خزان المياه عند جده، والذي تعلم فيه السباحة، كالسمكة، ذات العينين المفتوحتين...

وبالطبع حدثه، كيف يعيش في كنف الجد مأمون، وحتى لا يصدق الأب، ما يقوله الناس بحق الجد مأمون، فهو إنسان طيب وليس بخبيث، ولهذا يهزأ الجميع به. أما العم أرازكول فهو يرفع صوته عليه ويهينه، رغم كبر سنه! ويحدث أن يصرخ في وجهه أحياناً، وبدلاً من أن يدافع الجد عن نفسه، فإنه يسامح العم أرازكول، ويعمل بدلاً عنه في الغابة، بلا مقابل. ولو كان يساعده بالعمل فقط، لكان الأمر سهلاً! فعندما يعود العم أرازكول ثملاً، يسرع الجد إليه، وبدلاً من أن يعطيه ما يستحق ويبصق في عينيه اللئيمتين، يقوم بإنزاله عن الحصان، ويساعده للوصول إلى البيت، ويرقده في الفراش، ويغطيه بفروته، حتى لا يمرض من البرد. ثم يحل السرج عن الحصان وينظفه، ويضع العلف له. وكل هذا الاهتمام لأن الخالة بيكي لا تنجب الأولاد. فلماذا، كل هذا، يا بابا؟ فمن الأفضل: إذا أرادت أن تلد، كان به، وإذا لم ترغب، فهذا أمر يعود لها. وينزعج الجد عندما يقوم العم

أرازكول بضرب الخالة بيكي، وألاحظ أنه يتألم كثيراً، فكان من الأسهل عليه لو أن أرازكول ضربه بدلاً منها. وعندما تصرخ بيكي: ساعدني يا أبي! فماذا بإمكان الجد أن يفعل؟ يريد أن يذهب، ويدافع عنها، فتقول له الجدة: "لا تتدخل، فهما يتفاهمان مع بعضهما، فلماذا تحشر نفسك بينهما أيها الكهل؟ إنها ليست زوجتك، فاجلس ساكتاً! - "ولكنها ابنتي!"، أما الجدة فتقول: "وماذا في الأمر، لو أنه كان يعيش بعيداً معها، وليس في جيرتنا فماذا كنت لتفعل؟ هل ستركب حصانك وتسرع لتوافق بينهما؟ أو تحل الأمر بينهما بالطلاق؟ فمن سيتزوج ابنتك بعد ذلك؟".

وهذه الجدة، التي أتحدّث عنها - هي ليست تلك التي تعرفها. فأنت، يا أبي، من المحتمل أنك لا تعرف هذه الزوجة الجديدة لجدي. فجدتي الحقيقية قد ماتت، عندما كنت صغيراً. ثم جاء الجد بهذه العجوز. فكما يتغير الطقس باستمرار، أحياناً يعم الضباب، وأحياناً، تسقط أمطار غزيرة، وبرد، فإن هذه الجدة هي كالطقس، غير مفهومة، ساعة تكون خيرة وطيبة، وتتقلب خلال دقائق إلى شريرة غاضبة، أو غير مفهوم مما تعاني. وهي عندما تغضب تخرج عن طورها. ونلتزم أنا وجدي الصمت. فهي تقول، أنه من غير المجدي إطعام الغريب، أو حتى تقديم الشراب له، ولا ينتظر منه فائدة ما، ولكني، يا بابا لست بغريب في هذه الأسرة، فأنا كنت أعيش بصورة دائمة مع جدي. أما هي، فوحدها الغريبة، إذ جاءت متأخرة إلينا، وأخذت تعاملني وتناديني بالغريب.

في موسم الشتاء يسقط الثلج كثيراً، وتصل سماكته على الأرض حتى عنقي. أما كثبان الثلج فتتكون وبسرعة بعد عواصف الرياح القوية! أما أن يجتاز الإنسان غابة ما، خلال العاصفة، فمن

الصعب جداً إذا لم يكن لديه حصان قوي كحصاننا ألاباشا، فهو يجتاز الكثبان، ويحطمها بصدره. وتعصف رياح قوية حتى يصعب أن يصمد الإنسان واقفاً على رجليه. وعندما تتكون الأمواج فوق البحيرة، وتأخذ سفينتك بالتأرجح من جنب إلى جنب، فاعلم أن هذه الرياح القوية قادمة من جبال سان - تاش لتهز كيان البحيرة. وحدّث الجد أن في الماضي البعيد أرادت قوات العدو أن تجتاح بلادنا، فهبت من جبلنا سان - تاش رياح عاتية انتزعت جنود العدو من فوق سروج خيولهم. وعلى وجه الأرض لم يصمدوا على أرجلهم، وتجمد الدم في عروقهم، فاضطروا للمغادرة أمام الرياح العاتية، التي طاردتهم من مكان إلى مكان أبعد، حتى غادروا بحيرة إسك - كول أيضاً، ولم يبق منهم أحد. هكذا حدث آنذاك. وها نحن الآن نعيش مع هذه الرياح، ونمتطيها أحياناً! وطيلة الشتاء تبدأ الرياح وتنتهي عند منشئها في بلادنا. وهي تعصف بالغابات خلف النهر، ويسمع الإنسان حفيف أغصان الأشجار بشدة، وصرير هاماتها، وأنينها القاسي، حيث يصبح الأمر مرعباً.

في الشتاء يتوقف العمل تقريباً، ويقل عدد الناس بصورة ملاحظة، ويختلف الوضع عن فترة الصيف، عندما يقدم الرعاة مع مواشيهم. وأحب جداً، عندما يتوقف الرعاة فوق الهضاب مع قطعانهم ليقضوا ليلة ما للاستراحة، ويتابعوا مسيرهم عند الصباح الباكر. وهم أناس بسطاء، ونتعامل معهم بمودة، وتلحق بهم نساؤهم وأطفالهم والكبار في السن على سيارات شحن قوية، تنقل الحوائج والخيام اللازمة للرعاة. وعندما يتوقفون لفترة، أذهب مع جدي ونحييهم مصافحين كل منهم بالأيدي. ويقول الجد أنه على الأصغر سناً، أن يمد يده للمصافحة أولاً. ويقول أيضاً، أنه بين سبعة رجال، يكون

أحدهم نبياً. وهو إنسان طيب وخيّر وعاقل، ويصبح سعيداً من يصافحه، ويحالفه الحظ طيلة حياته. أما أنا فأقول: طالما هذا النبي خيّر ورائع، لماذا لا يعلن عن نفسه وعن نبوءته، وساعتئذٍ سنهب جميعاً، ونذهب لمصافحته، ونشد على يده. فيضحك الجد ويقول: في هذا سر الأمر، إن النبي نفسه لا يعلم ولا يدرك أنه نبي، فهو إنسان بسيط. قاطع الطريق وحده يعلم حقيقة نفسه، عندما يقوم بجرائمه. فأنا، لا أفهم هذا كلياً، ولكنني، أسلم على الجميع دائماً، بغض النظر عن الخجل، الذي ينتابني أحياناً.

أما عندما نأتي لتحية الرعاة في الهضاب، فإنني لا أشعر بالخجل لوجود أناس كثر معنا. "أهلاً وسهلاً بكم في مرابع الآباء والأجداد، في الصيف! عسى أن تكونوا، أنتم وأسركم ومواشيكم في خير وصحة جيدة؟". - هكذا كان يقول الجد، أما أنا فكنت أمد يدي مصافحاً الجميع بعد جدي. فالجميع يعرفون جدي، وهو يعرف أكثرهم. كان يشعر بنفسه سعيداً. فلديه أحاديث يرويها أمام الضيوف، ويسأل القادمين كيف يعيشون، ويتحدث لهم عن حياتنا. أما أنا فلا أعلم كيف سأتحدث مع الصغار، وعن ماذا. ولكننا، بعد لحظات نبدأ باللعب، لعبة الاختفاء (الغميضة)، وكذلك في ألعاب الحرب. وهكذا ننسجم مع اللعب، ولا نشعر بالملل، ولا نرغب بالمغادرة، والافتراق عن بعضنا.

وخلال الفترة، التي نلعب فيها، يقوم الكبار بإيقاد النار، حتى نشعر أن شعلة النار تضيء وتشع على جزء كبير من الغابة! وفي حقيقة الأمر لا تضيء الشعلة إلا منطقة محدودة بالقرب من مكان الشعلة، وبعد عدة أمتار عن دائرة النار تعم الظلمة كالسابق. ونحن نلعب لعبة الحرب، ونحن نستغل الظلمة، ونقوم بالهجوم؛ كما ينتابنا شعور

القيام بفيلم حربي. فإذا كنتُ قائداً لمجموعة فعلى الجميع أن ينفذوا أوامري. أن يشعر القائد بحسن قيادته فهذا أمر جيد...

ثم يطلع البدر من خلف الجبال، ويصبح اللعب في ضوء القمر أكثر متعة، ولكن الجد كان يناديني حتى نغادر. كان طريقنا إلى البيت يمر عبر الهضبة، من جانب حقل الشجيرات البرية. وكنا نستمتع بمشاهدة الأغنام وقد ركنت للهدوء، بينما تابعت الخيول رعي الأعشاب الطرية. وخلال مسيرنا كنا نطرب عندما نسمع شخصاً ما يغني وحيداً في الليل. راع شاب، وربما يكون كهلاً. وكان يستوقفني الجد ويقول: "اسمع، فمثل هذه الأغاني لا نسمعها دائماً". وقفنا وأرهفنا السمع، أما الجد فكان يتنهد، ويهزّ برأسه منسجماً مع الأغنية.

حدّث الجد، أنه في الأزمنة الغابرة أسر خان خاناً آخر. وقال هذا الخان للآخر الأسير: "إذا رغبت عشت عندي عبداً، وإلا نفذت لك رغبتك الأخيرة، وبعد ذلك أقتلك". فكر الأسير وأجاب: "لا أرغب بالعيش عبداً، ومن الأفضل أن تقتلني، ولكن قبل ذلك، استدع أول راع يصادفك من وطني"، - "ولماذا يلزمك هذا؟" - "أريد أن أسمع قبل موتي أغنية منه". يقول الجد: "فمن أجل الأغنية الوطنية، يقدم الإنسان حياته". فأي أناس عاشوا سابقاً. حبذا لو نراهم بيننا، ربما يعيش بعضهم في المدن؟

- كم من الممتع سماعها، آ! - همس الجد. - يا لروعة الأغاني التي غنوها، آه، يا إلهي!...

لا أعلم لماذا، أخذ يؤسفني مصير جدي. وقد ازداد حبي له كثيراً، حتى أنني أرغب بالبكاء عندما يساء له... في الصباح الباكر كانت الهضاب خالية من الناس تقريباً. لقد قام الرعاة بسوق قطعان الأغنام والخيول إلى الجبال قدماً، ولطيلة فصل الصيف. وعلى أثرهم،

يأتي رعاة آخرون من كولخوزات أخرى. وهم خلال فترة الظهيرة لا يتوقفون في الهضاب بل يمضون قدماً، أما في الليل فيبقون للمبيت، فنذهب مع الجد لنحييهم ونصافحهم. إن الجد يحب إلقاء التحية على الناس ومصافحتهم، والتعرف إليهم، ولقد تعلّمت منه هذه الميزة. ربما يحالفني الحظ أن أصافح راعياً منهم، ويكون نبياً في حقيقة وجوده...

وفي الشتاء يسافر العم أرازكول والخالة بيكي إلى المدينة، لمراجعة الطبيب. ويقولون، أن الطبيب بإمكانه أن يساعد في وصف الدواء اللازم، حتى يكتمل الطفل ويولد. ولكن الجدة تنصح الخالة بيكي دائماً بالذهاب إلى المزارات، والأماكن المقدسة على تنوعها. وهذه غالباً ما تتواجد خلف الجبال، حيث ينبت القطن في الأراضي. وهكذا، يوجد في مكان فسيح وسهل، ولا ترى له نهاية كالبحر، ولا يتصور الإنسان أن يجد جبلاً في هذا السهل. فهناك في هذا المتسع من الأرض يوجد جبل مقدس يدعى - جبل سليمان. وإذا ما قام إنسان بتقديم نعجة سوداء كأضحية عند عتبة هذا الجبل وقام بالصلاة للإله، وتضرع وطلب منه ما يبتغي بصورة حسنة وخاشعة فربما يشفق عليه ويكرمه بطفل. فالخالة بيكي ترغب جداً بالذهاب إلى جبل سليمان، أما العم أرازكول لا يرغب كثيراً، وكان يتحجج بالقول: "لا يوجد لدينا النقود الكافية لذلك، فالمكان بعيد ويتطلب الكثير من الجهد. ومن الضروري أن يسافر الإنسان مسافة طويلة بالطائرة فوق الجبال. وحتى نصل للطائرة لا بد من سفر طويل، وهذا أيضاً يحتاج إلى نقود...".

وعندما يسافرون إلى المدينة، نبقى نحن في مكان الحراسة لوحدنا. نحن والجيران - العم سيداخمات، وزوجته غولجمال وابنتهما الصغيرة، ولا أحد سوانا.

وفي المساء، عندما ننهي الأعمال، يروي لي الجد حكايات من قديم الزمان. وأنا أعلم، أن الظلام يسود في كل مكان خارج المنزل، والجليد القاسي ينتشر خلال الليل، والرياح تعصف شريرة، بينما تئن الجبال العالية تحت الظلمة الموحشة، وتضم بعضها بعضاً متحدة مع بصيص الضوء من نافذة منزلنا المتواضع. ومن هنا يبدو الأمر لي مخيفاً ومفرحاً. ولو كنت عملاقاً، لأخذت فروتي الدافئة وخرجت من البيت، ولقلت للجبال بصوت عال: "لا تخافي، ولا تسمحي للوجل أن يخترق أجسامك! فأنا هنا معك، ولتكن الريح، وليكن الظلام، والعواصف فأنا لا أخاف شيئاً، وأنتم لا تخافون أيضاً. قفوا في أماكنكم، ولا تندمجوا في كتلة واحدة". ثم مشيت عبر كثبان الثلج، وقفزت فوق النهر- ومن هناك إلى الغابة. فالأشجار تخاف الظلمة في الليل. فهي لوحدها، ولم يخاطبها أحد بكلمة حلوة. وترتجف الأشجار العارية، ولا تعرف أين ستختبئ. أما أنا فسأتجول في الغابة، وأربت على جذع كل شجرة، حتى لا تشعر بالخوف في هذه الليلة الليلاء. وربما، إن هذه الأشجار، التي لا تخضر في الربيع - هي تلك التي تجمدت من الخوف. وفيما بعد، وفي أيام التقليم تقص هذه الفروع اليابسة فوق جذع الشجرة.

لقد فكرت بكل هذا، عندما كان الجد يحدثني الحكايا. كان يسرد القصص طويلاً. فمنها المضحكة كقصة الصبي عقلة الإصبع، الذي يدعى تشيبالاك، الذي ابتلعه الذئب - البخيل فجلب على نفسه المصائب. كلا، في بداية الأمر، ابتلعه الجمل. نام تشيبالاك تحت ورقة، أما الجمل فقد دار حول العشبة - ثم التهم عقلة الإصبع مع الورقة! ولهذا يقول الناس: الجمل لا يعلم، ماذا يبلع. أخذ تشيبالاك يصيح، ينادي الناس لإنقاذه فأتى الرجال وشقوا بطن الجمل،

وأخرجوا تشيبالاك منقذين إياه. أما ما حدث مع الذئب كان له عواقب وخيمة. فهو أيضاً، لحماقته، بلع عقلة الإصبع، ثم راح يبكي على ما أصابه. فقد صادف الذئب عقلة الإصبع في طريقه: "ماذا وراء هذه الحشرة الصغيرة، تعبث بين قدمي؟ سأبتلعك بلحظة واحدة، أيتها الحشرة!" أما تشيبالاك قال محذراً: "لا تمسني أيها الذئب بأذى! وإذا فعلت هذا، فإنني سأحولك إلى كلب". - "ها - ها، - ضحك الذئب، - أين رأيت هذا، حيث أصبح الذئب كلباً! ولعنادك هذا، سوف أبتلعك". وهكذا ابتلع الذئب عقلة الإصبع، ونسي الأمر. ولكنه، ومنذ تلك اللحظة قد فقد طبيعة الذئاب، ومجرد أن يحاول الاقتراب من النعاج، يأخذ عقلة الإصبع بالصراخ في بطنه، ويخرج صوته عالياً: "إيه، أيها الرعاة، لا تناموا! هذا أنا، الذئب الرمادي، أتحفز لاختطاف نعجة!" وهنا يحتار الذئب في أمره، يعض بطنه، وأطرافه، يتدحرج على الأرض. أما تشيبالاك، فلا يتوقف عن الصراخ: "إيه، أيها الرعاة، اركضوا إلى هنا، اضربوني، اضربوا بشدة!". يهرع الرعاة والهروات بأيديهم يضربون الذئب، فيهرب الذئب مسرعاً. يركض الرعاة، وهم في حالة الاستغراب والتعجب، ماذا دهى هذا الذئب، هل جن جنونه، حتى يركض، وهو يصيح: الحقوا بي! بينما يركض الذئب المتوحش قدر استطاعته، ولكنه في هذه الحالة يعاني أشد معاناة. فهو حيثما يذهب يفضح تشيبالاك أمره، وفي كل مكان يحل فيه يطاردونه، ويسخرون منه. وهزل الذئب من شدة الجوع، ولم يبق فيه إلا الجلد والعظم، وأخذت أسنانه تصطك: "لماذا فرض عليَّ هذا العقاب القاسي؟ ولماذا أنادي البشر لتحل بي المصائب؟ ربما أكون قد جننت في كبري، وخرب عقلي". أما تشيبالاك فيهمس له في أذنه: "اذهب إلى تاشمات، فلديه نعاج سمينة! اذهب إلى بايمات، فلديه

كلبة لا تسمع! اركض إلى إرمات، فرعاته نائمون!". أما الذئب يجلس غاضباً ويقول: "لا لن أذهب إلى أي مكان، من الأفضل أن أذهب وأعرض خدماتي ككلب حراسة...".

أليست هذه حكاية طريفة؟ ويوجد لدى الجد حكايات أخرى حزينة ومخيفة وكئيبة. ولكن أكثر حكاية أحبها هي حكاية الغزالة- الأم، ذات القرون. ويقول الجد: إن على كل إنسان يعيش بالقرب من إسك - كول، أن يعرف هذه الحكاية. وكل من لا يعرفها، أو لا يرغب بمعرفتها يرتكب إثماً كبيراً. وربما أنت تعرفها، يا بابا؟ إن جدي يقول، أن كل ما فيها هو حقيقة مؤكدة. وهي حدثت في زمن ما. إننا كلنا أبناء الغزالة - الأم، ذات القرون. أنا، وأنت والآخرون جميعاً...

هكذا نعيش في الشتاء. فالشتاء طويل جداً، ولو لم يكن جدي هنا، ويروي لي الحكايات الممتعة، لكان الملل والضجر قد قتلاني خلال شتاء واحد.

أما في الربيع فكل شيء لدينا جيد. وعندما يعم الدفء، يأتي الرعاة من جديد إلى الجبال. وعند ذلك، لا نبقى وحدنا في الجبال. أما خلف النهر، بعيداً من هنا لا يوجد أحد. فهناك تنتشر الغابات، وكل ما فيها من كائنات. ولهذا نحن نعيش هنا في نقطة الحراسة، حتى نمنع أي شخص من أن يطأ أرض الغابة المحمية، أو يمس غصناً من أغصان أشجارها. ويأتي إلينا، بين فترة وأخرى أناس علماء. فمنذ فترة جاءت امرأتان، وهما ترتديان بنطالين، وكذلك كهل مسن وشاب في مقتبل العمر، يدرس ويتعلّم من الكبار. عاشوا عندنا طيلة أشهر، وجمعوا الأعشاب، والأوراق والأغصان، وأجمعوا على رأي واحد، أنه لم يبق مثل هذه المحمية بغاباتها الكثيفة، الواقعة فوق

جبالنا في سان - تاش، إلا القليل. ومن الممكن القول، وبالتأكيد أنه لا يوجد مثلها على الإطلاق. ولهذا من الضروري حماية كل شجرة في الغابة.

أما أنا، فأخذت أفكر، أن الجد مأمون يحب كل شجرة. ويكره كرهاً كبيراً عندما يتصرف العم أرازكول تصرفاً خاطئاً، ويقوم بقطع وإهداء بعض الأخشاب الصنوبرية من الغابة...

3

ابتعدت السفينة البيضاء. ولم يعد من الممكن رؤية ساريتها العالية من خلال المنظار. وقريباً ستختفي السفينة كلياً عن النظر. وحان الوقت للولد أن يفكر بنهاية لرحلته على سفينة والده. كل شيء كان جيداً، ولكن النهاية لم تكن سهلة المنال. كان بإمكانه أن يتصور نفسه، وهو يتحول إلى سمكة، وكيف يسبح عبر النهر إلى البحيرة، وكيف يلتقي مع السفينة البيضاء، وكيف يلتقي مع أبيه، وكل ما تحدث به مع والده، ولكن الأمر لم ينته كما يرغب به: ها هي السفينة البيضاء تتجه إلى الميناء. وها هو الشاطئ أمامنا واضح للعيان، والسفينة تتجه إلى المكان المقرر أن تركن فيه. وأخذ البحارة يجهزون أنفسهم للنزول من السفينة إلى الشاطئ. وسوف يتجه كل منهم إلى بيته. وكذلك والده سيذهب إلى بيته، وهناك بانتظاره زوجة وولدان عند الشاطئ. فكيف سيكون الأمر الآن؟ هل سيذهب مع والده؟ وهل سيأخذه أبوه معه؟ وإذا أخذه، سوف تسأله زوجته: "من هذا الولد؟ ومن أين جاء، ولماذا أتيت به إلى هنا؟". كلا، من الأفضل أن لا يذهب معه...

تابعت السفينة البيضاء طريقها، وأخذت تدور نحو نقطة

بالكاد تراها العين. أما الشمس فقد لامست بأسفلها وجه البحيرة. ومن خلال المنظار كان مرئياً، كيف كانت ترسل الشمس أشعتها البنفسجية فوق سطح البحيرة بهدوء رائع.

غادرت السفينة البيضاء. وهكذا انتهت الحكاية عن هذه السفينة. وحان الوقت للعودة إلى البيت.

رفع الولد الحقيبة عن الأرض، ووضع المنظار تحت إبطه. نزل من أعلى الجبل بسرعة، مقلداً زحف الأفعى بتعرجاتها، وخاصة في المنحدر الشديد. وكلما اقترب من المنزل، زاد قلقه، وعانى روحياً. كان عليه أن يجيب عن سؤال، كيف لاك العجل الفستان. ولم يعد قادراً على التفكير، أي عقاب ينتظره. وحتى لا ينهار الولد من الخوف كلياً، أخذ يتحدث مع الحقيبة، إذ قال لها: "أنت لا تخافي. إنهم سوف يهينوني بالكلام. لم أكن أقصد الإساءة. وبكل بساطة لم أكن أعلم أن العجل قد هرب من الزريبة. وفي أسوأ الأحوال سوف يصفعونني، بكف على رقبتي. سأتحمل هذا. أما إذا قذفوا بك إلى الأرض، فلا تخافي، فإنك لن تتكسري، فأنت حقيبة جلدية. أما إذا وقع المنظار في يد جدتي، سيسوء وضعه جداً. إننا سنخفيه أولاً في الملحق، ثم نذهب إلى البيت...".

وهكذا فعل. اجتاز عتبة البيت خائفاً.

ساد في المنزل هدوء ما قبل العاصفة. أما ساحة البيت فقد كانت خالية من الناس، وكأن السكان قد غادروا المكان. واتضح الأمر، إذ قام العم أرازكول بضرب الخالة بيكي. وهنا، كان على الجد مأمون أن يُهدئ من روع صهره الغاضب، ويرجوه مرة أخرى، أن يصفح عن بيكي، ويتحمل لكمات أرازكول الخارج عن طوره. ويتحمل الجد كل هذا العار، بينما كانت ابنته في أسوأ حال، ازرقّ

وجهها، وبان عليه أثر اللكمات القوية، وشعرها مبعثر، وهي تصرخ وتولول. وسمع الجد، كيف وبحضوره، كأب حقيقي، كان أرازكول يشتم ابنته بأسوأ الكلام، وكيف كان يهينها، إذ يقول لها أنت كلبة لا تنجب، وملعونة بالثلاث كحمارة عقماء، وغيرها من الكلمات البشعة. وسمع الجد، كيف كانت ابنته تصرخ بصوت متوحش وفاقد للعقل، وهي تلعن مصيرها البائس: "هل أنا مخطئة، بأن الإله قد حرمني القدرة على الحمل! فكم عدد النساء اللواتي يلدن في الكون كبير، ولا يحصى، ويلدن كالنعاج، أما أنا فقد حرمتني السماء، ولعنتني، لأي سبب؟ ولماذا تلزمني مثل هذه الحياة؟ فاقتلني، من الأفضل أن أموت، أيها الوحش! تعال، اضربني!...".

جلس الجد مأمون حزيناً في الزاوية، وهو يتنفس بصعوبة، وهو يطبق جفون عينيه، بينما وضع يديه على ركبتيه، وهما ترتجفان، وبدا وجهه شاحباً كلياً.

نظر الجد مأمون إلى حفيده، ولم يقل شيئاً، ثم أغمض عينيه مرهقاً. أما الجدة فلم تكن في المنزل. فهي قد ذهبت لتصلح بين أرازكول وزوجته، وأن تعيد الوضع إلى طبيعته، وأن تكنس الأواني المحطمة. هذه هي الجدة: عندما يضرب أرازكول زوجته، فإنها لا تتدخل، وتمنع الجد من الاعتراض. وبعد العراك تذهب لتصلح ذات البين، وبالطبع شكراً لها على هذا.

كان الولد يتأسف جداً لوضع الكهل. إذ كان يعاني، بعد كل خلاف من حالة نفسية قاتلة لدرجة الموت. ويجلس في الزاوية كإنسان خامد، ولا يحب الظهور أمام الناس. ولم يفصح لأحد عن معاناته. وكان يفكر بشيء ما في داخله، وخاصة في هذه الدقائق الصعبة، أنه أصبح كهلاً، وأنه لم يرزق إلا بابن واحد، قد استشهد

في الحرب، ولم يعد يذكره أحد كان، ولا يعرف الناس شيئاً عنه. ولو كان ولده حياً، لكان مصير الجد مختلفاً. حزن مأمون حزناً كبيراً عندما توفيت زوجته، وخاصة أنه عاش معها عمراً كاملاً. وأكثر ما يؤلمه أن ابنتيه لم تجدا السعادة في حياتهما. فالصغرى، تركت له ابنها الصغير، وغادرت للمدينة، وتتعذب الآن مع أسرة كبيرة في غرفة واحدة. والثانية تتعذب هنا مع أرازكول. وبغض النظر عن أن أبيها الكهل إلى جانبها، وأنه يحاول مساعدتها، ويتلقى الصدمات عنها، فهي غير سعيدة في إشباع مشاعر الأمومة، التي كان من الممكن أن تبعث السعادة في حياتها... وها هي تعيش معه سنوات طويلة، وما زال أرازكول على حاله. وأصبحت حياتها معه فارغة من المتعة. ولكن إلى أين ستهرب من قدرها؟.. وماذا سيكون لها فيما بعد - ففي ساعة ما، سيأتي يومه، ويموت إذا هرم، - فماذا ستعمل آنذاك هذه الابنة البائسة؟

وهكذا شرب الولد وبسرعة عدة جرعات من كأس اللبن الرائب، وأكل قطعة من الخبز. وهدأ بالقرب من النافذة صامتاً، وبلا ضوء، حتى لا يزعج الجد، ويدعه يجلس ويفكر.

أخذ الولد يفكر بما يخصه. ولم يفهم، لماذا الخالة بيكي تقدم الفودكا لزوجها بدلال. فها هو يعطيها اللكمة بعد الأخرى، وهي تسامحه، وتحضر له نصف ليتر فودكا...

إيه، أيتها الخالة بيكي، الخالة بيكي! كم من مرة ضربها زوجها لدرجة الإغماء، وفقدان الوعي، حتى كادت تموت، وعندما تعود لرشدها، تسامحه. والجد مأمون كان يسامحه أيضاً. ولماذا هو يسامحه؟ لا يجوز مسامحة الأشرار من أمثاله. فهو لا يصلح لشيء. إنه إنسان سيئ، ولا يلزمنا. وبدونه يكون الأمر أفضل.

لقد تركت الطفولة القاسية أثرها على الولد، ورسمت له لوحة العقاب العادل. وهكذا تعاون الجميع ذات يوم وهجموا على أرازكول وجروه، سميناً، هائل الجثة، وسخاً نحو النهر. وأخذوا يؤرجحونه بقوة ثم قذفوا به إلى أعماق النهر. أما هو فقد أخذ يطلب السماح أمام الخالة بيكي والجد مأمون. فهو لم يستطع أن يتحول إلى سمكة...

شعر الولد بعد هذا، بالارتياح. وأراد أن يضحك ساخراً من وضع أرازكول، وخاصة عندما رآه يتخبط في مياه النهر، وبالقرب منه تسبح قبعته المخملية القطنية.

ولكن الرجال الكبار، وللأسف الشديد، لم يتصرفوا كما أراد الولد أن يكون العدل. فهم تصرفوا على عكس كل ما هو صحيح. يأتي أرازكول إلى البيت ثملاً حتى النهاية. فيركض الجد ويأخذ مقود الحصان، فيطعمه ويسقيه. وتهب زوجته وتجهز السماوار، وتحضر الشاي. ويستقبله الجميع وكأنه لم يرتكب أي خطأ، وكأن الجميع ينتظرونه. أما هو فيبدأ بالعبث، يجلس حانقاً في بداية الأمر، ثم يبكي بمرارة متصنعاً شكل المظلوم. وكيف من الممكن أن ينعم إنسان عادي، لا يملك أية أهمية، أو مكانه في المجتمع، بوجود عدة أطفال، وكما يرغب، خمسة وحتى عشرة أطفال. فهل هو، أرازكول، أسوأ من غيره؟ وما هو الشيء الذي ينقصه؟ أم أنه لم يبلغ منصباً عالياً؟ فهو، والحمد لله، كبير الحراس الخيالة والمسؤول عن المحمية! وهل هو متسكع شاذ؟ فعند الغجر تجد الواحد منهم ينجب عدداً غير محدود من الأطفال الغجر، ويملؤون الأزقة والطرقات، ويعيشون كغيرهم. وهل أرازكول شخص تافه لا قيمة له، أو فاقد الاحترام من قبل الآخرين؟ فكل شيء يوجد لديه، ووصل إلى كل ما يرغب به، بما في ذلك حصان وسرج جميل

عليه، وبيده سوط، ويستقبلونه باحترام في كل مكان. فلماذا كل رفاقه وأصدقائه ينعمون بوجود أطفال، ويقيمون لهم الأفراح، ويقيمون حفلات زفاف، أما هو فلا؟ فمن هو بلا ابن، وبلا سلالة؟

أما الخالة بيكي، فغالباً ما تبكي، وتحتار بما تفعل. تريد تلبية رغبات زوجها، فتحضر له زجاجة تحتوي نصف ليتر من الفودكا، وتشرب كأساً من وقع المأساة. وكلما طال الوقت، شربت وشرب أكثر، وفيما بعد يتوحش أرازكول، ويبدأ بتصرفاته الوحشية الشريرة، ويباشر بضرب زوجته ضرباً مبرحاً. أما هي فتصفح له كل هذا. وكذلك الجد يسامحه على ما فعل. وعندما يصحو في صباح اليوم التالي فإنه ينظر بعينين جريئتين، وكأن شيئاً لم يكن، وتحضر له الزوجة بيكي الشاي رغم الكدمات، التي تغطي معظم وجهها، ويستيقظ الجد باكراً، ويقدم العلف للحصان، إذ يضع أمامه كمية من الشوفان، ثم يقوم بوضع السرج عليه، ويشده كما يجب. يشرب أرازكول الشاي، يعتلي صهوة حصانه - ها هو يأخذ مظهر المدير، الذي يشرف على كل الغابات الموجودة على جبال سان- تاش. ولم يعرف أحد أنه من الضروري قذف أرازكول وأمثاله إلى النهر...

⁂

حلت الظلمة. وخيّم الليل ببساطه الأسود في كل مكان.

وهكذا انتهى ذلك اليوم، الذي اشترى فيه الولد أول حقيبة مدرسية.

وعندما قرر أن يخلد للنوم، أخذ يبحث عن مكان لحقيبته. وأخيراً صمم أن يضعها إلى جانبه في الزاوية. لم يعرف الولد، ولكنه سيعرف لاحقاً، في منتصف السنة الأولى كيف ستصبح الحقيبة. ولكن الأمر سيان بالنسبة له، وتبقى حقيبته هي الوحيدة بجمالها،

وأجمل من كل الحقائب. ولم يعرف كذلك، أن الكثير من المفاجآت تنتظره في حياته الصغيرة. وسيأتي اليوم، الذي سيبقى فيه وحيداً في هذه الدنيا، ولن يبقى لديه أحد غير هذه الحقيبة. والسبب الرئيس لكل هذا، كان ينحصر في الحكاية المحببة لقلبه عن الغزالة - الأم، ذات القرون...

وفي هذا المساء اشتعلت رغبته، وتمنى أن يسمع هذه الحكاية. والجد مأمون كان يحب هذه القصة، ويحدثها في كل مرة برغبة ومتعة، وكأنه قد شاهد ذلك بأم عينه، وهو يتأوه، ويبكي أحياناً، ويصمت مفكراً بخصوصياته.

أما الولد لم يستطع، أو لم يرغب في أن يعكر صفو جده. كان يدرك جيداً، أن الجد في مزاج مضطرب. "سوف نطلب منه أن يحكيها لنا، في مرة أخرى،- قال الولد لحقيبته. - أما الآن فأنا سأحدثك عن الغزالة - الأم، ذات القرون، كلمة، كلمة كما يحدثني إياها الجد. وسأرويها لك بكل هدوء، حتى لا يسمع أحد غيرك. وأنت استمعي بانتباه. أحب أن أحدث، وأرى كل شيء، كما في الأفلام. ويقول الجد، أن كل ما في هذه الحكاية - حقيقة خالصة. وهكذا حصل...".

4

حدث هذا منذ أمد بعيد. في قديم وغابر الأزمان، عندما كانت الغابات على الأرض أكثر من الأعشاب، والمياه في مناطقنا، كانت أكثر من اليابسة، عاشت قبيلة قرغيزية على ضفاف نهر كبير وبارد للغاية. وأطلق الناس على هذا النهر اسم إينيساي. وينبع هذا النهر بعيداً، بعيداً من هنا، في سيبيريا. يلزم الإنسان، وهو يركب حصاناً شديداً وقوياً ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، وهو يعدو حتى يصل إلى

المكان، الذي ينبع منه النهر. أما الآن، أصبح الناس يسمون هذا النهر بـ "إينيسي"، وبقي بعض الكبار في السن يطلقون عليه الاسم القديم إينيساي. ولهذا كانت الأغنية:

هل من نهر أعرض منك، يا إينيساي،
هل من أرض أحب منك، يا إينيساي؟
هل من جبل شاهق بعمقك، يا إينيساي،
هل من إرادة أقوى من إرادتك، يا إينيساي؟

لا يوجد نهر أعرض منك، يا إينيساي،
لا توجد أرض أحب منك، يا إينيساي.
لا يوجد جبل شاهق بعمقك، يا إينيساي،
لا توجد إرادة أقوى من إرادتك، يا إينيساي...

هكذا كان نهر إينيساي في غابر الأزمان.

تموضعت أغلب الشعوب، على اختلاف أصنافها، وسلالاتها على ضفاف هذا النهر. وعانوا من صعوبات شتى، وخاصة أن الحروب كانت تنشب بينهم، وتنتشر الكراهية. وقد أحاطت القبائل العدوة بقبيلة قرغيزية. فكانت القبائل الغريبة تهجم وتتراجع، وفي بعض الأحيان كان القرغيز يقومون بغزوة، أو هجوم على عدو محدد، فيصادرون المواشي، ويحرقون المنازل، ويقتلون البشر. وبكلمة، يتخلصون من الأعداء بأي شكل، - هكذا كانت تلك الأزمنة. فالإنسان لا يأسف على الآخر. والإنسان يصفي الإنسان تصفية جسدية. ووصلت الأمور لدرجة أنه لم يعد هناك بشر يجمعون الغلال وخاصة القمح، ونقص عدد الرعاة، ومربي المواشي، وانتشر الصيد. وأصبح من السهل أن يعيش الإنسان بما ينهب، ويسرق، يقتل صاحب

البيت ويأخذ ما يملك، - فعمّ القتل والثأر. واختلط العقل عند البشر. وسال الدم في كل مكان. وأصبح مقياس العبقرية، أن تهاجم عدوك وتقتله قبل أن يقتلك، وتفتك بالقبيلة كلها حتى آخر فرد فيها، وتنهب خيراتها وممتلكاتها على اختلاف أشكالها.

ظهرت في منطقة التايغا طيور غريبة. كانت أصواتها تشبه النحيب. وكانت تمضي الليالي، وهي تنعق حتى الفجر. والغريب أن أصواتها تشبه صوت بكاء الإنسان. وكانت تردد حانقة، وهي تطير من غصن إلى غصن: "لتحل المأساة الكبرى! لتكن المصيبة الكبرى!". وهذا ما حصل فعلاً، وحلّ ذلك اليوم الأسود.

وفي صباح ذلك اليوم، ودعت قبيلة القرغير المتواجدة على ضفاف نهر إينيساي قائدها الأكبر، الذي قاد، وخلال سنوات طويلة، المحاربين القرغيز في العديد من المعارك، والغزوات. ولقد أبلى بلاء حسناً في كثير من الحروب، وخرج سالماً منتصراً. ولكن حانت الساعة، التي ستودع فيها القبيلة هذا القائد. وقد أمضت القبيلة يومين من الحداد الأليم. وفي اليوم الثالث، قامت القبيلة بتجهيز دفن رفاة قائدها في الأرض الأم. وحسب العادة القديمة، حمل أبناء القبيلة رفاة قائدهم إلى مثواه الأخير عبر ضفاف نهر إينيساي قاطعين الالتواءات والمنعطفات والانكسارات، حتى تودع روح المتوفى من الأعلى النهر الأم إينيساي، فـ "إيني" - هي الأم، أما "ساي" - فهي مجرى النهر. وحتى تغني روحه لآخر مرة الأغنية عن إينيساي:

هل من نهر أعرض منك، يا إينيساي،
وهل من أرض أحب منك، يا إينيساي؟
هل من جبل شاهق بعمقك، يا إينيساي،
وهل من إرادة أقوى من إرادتك، يا إينيساي؟

لا يوجد نهر أعرض منك، يا إينيساي،
لا توجد أرض أحب منك، يا إينيساي.
لا يوجد جبل شاهق بعمقك، يا إينيساي،
لا توجد إرادة أقوى من إرادتك، يا إينيساي...

وهناك، عند المدفن المكشوف، كان من الضروري والواجب أن يرفع جثمان القائد على الأكف إلى الأعلى فوق الرؤوس، حتى يرى الجهات الأربع للكون: "هذا هو نهرك. هذه هي سماؤك. وهذه هي أرضك. وها نحن، أقاربك من جد واحد. وكلنا جئنا نودعك. فنم هنيئاً". وفي ذاكرة الأقدمين، قام الحاضرون بوضع صخرة كبيرة على قبر القائد.

وفي يوم الدفن كانت خيام القبيلة كلها تنتصب على ضفة النهر في سلسلة طويلة، حتى تتمكن كل أسرة من أن تودع القائد أمام خيمتها، عندما سيمر جثمانه فوق التابوت، وتحني الأسرة العلم الأبيض رمزاً للحداد، ويذكرون مناقبه ويبكونه، ثم يحملون الجنازة تباعاً مع الجميع إلى الخيمة التالية، حيث يتوقف الموكب ويذكرون مناقبه، ويبكونه، ثم يحنون العلم الأبيض للحداد، وهكذا حتى نهاية الطريق، أي حتى يصلون إلى المقبرة.

في صباح ذلك اليوم، بزغت الشمس وسارت على طريق النهار. وعندما انتهت كل التجهيزات، تم سحب شارات الحداد بذيول الخيول على صوار خشبية، وأخرجت دروع القائد، وهي الترس والرمح. أما حصان القائد فقد كان مغطى بشرشف الحداد. واستعد عازفو البوق للنفخ في أبواقهم كتحية الوداع في معزوفة حربية، وضرب حامل الطبل بقوة مزدوجة على طبله، وكأنه أراد أن يهز التايغا، وحتى تغادر الطيور بكل أسرابها إلى السماء، وتحوم وهي تصدر أصوات

الحداد، وحتى تهرب الوحوش عبر شعاب الجبال، وهي تنحر وتشخر بشدة، وحتى تلتصق الأعشاب بالأرض، وحتى يتردد صدى قرع الطبل فوق الجبل مدوياً، وحتى تهتز الجبال. أما النادبات في العزاء، فقد حللن شعورهن، وذرفن الدموع على القائد الراحل كولتش. وانحنى المحاربون راكعين على ركبة واحدة، حتى يلتحقوا كتفاً لكتف ويرفعون جثمان القائد إلى الأعلى، فوق الرؤوس. الجميع كانوا جاهزين، لحمل القائد. وعند طرف الحرش كانت تقف تسع أضحيات من الخيل مربوطة إلى جانب بعضها وتسعة ضحايا من الثيران، وتسع تسعات ضحية من الأغنام لتحضير وليمة الدفن.

وهنا حصل ما هو غير منتظر. ومهما كانت من حروب وغزوات وكره متبادل بين القبائل، التي تعيش على ضفاف إينيساي، فقد كان من المتعارف عليه، أنه لا يجوز القيام بأعمال عدوانية خلال أيام الحداد على القادة الراحلين من القبائل المجاورة. أما اليوم فقد استغل الأعداء هذا الوضع، وهجموا على حين غرة على القبيلة القرغيزية، وأحكموا الطوق عند الفجر على المواطنين القرغيز المصابين بمأساة موت قائدهم، وهجم الأعداء من أماكن خفية، ومن كل الجهات، حتى لم يتمكن المحاربون القرغيز من الوصول إلى خيولهم واعتلاء صهواتها، ولم يتمكنوا أيضاً من الحصول على سلاحهم لمواجهة هذا العدوان. وحصلت معركة غير متكافئة، قام الأعداء خلالها بقتل القرغيز العزل من السلاح، دون تمييز. هكذا خطط الأعداء، حتى ينهون، وبضربة واحدة مقاومة هذه القبيلة القرغيزية الشجاعة. وقتلوا كل من كان في العزاء، حتى لا يبقى شاهد يذكر هجوم هؤلاء الأشرار. وحتى لا يبقى أحد، يثأر لبني قبيلته، وحتى يمحي الزمن بكثبان رملية آثار الماضي، كان - ولم يكن...

فحتى يخلق الإنسان ويكبر، يحتاج الأمر لزمن طويل، أما قتله - فيتم بسرعة البرق. امتلأ وجه الأرض بالجثث المقطعة. وهناك من يتخبط في برك من الدماء. وقفز البعض إلى مياه النهر، هاربين من وقع وضربات السيوف، وطعن الرماح، فغرقوا في مياه إينيساي. وبمحاذاة ضفة النهر، وعند المنعطفات والانكسارات غاصت في الغبار آلاف الخيام، ولمسافة طويلة، وتعفر أهلها بتراب أرضهم الأم. وتم تهديم كل شيء، وحرق كل ما يقبل ولا يقبل الاحتراق. وتم قذف الجثث من المنعطفات والانكسارات إلى المياه، والأعداء يقولون ويهللون: "أصبحت هذه الأراضي وهذه الغابات منذ الآن لنا! وهذه القطعان أصبحت الآن لنا!".

كسب الأعداء الكثير من غنائم حربهم العدوانية، ولم يلحظوا، كيف عاد من خلف الحرش ولدان اثنان، ولد وبنت. وكانا يختلفان عن كل الأولاد. ويتخذان قرارهما معاً. وقد غادرا في الصباح، ومن دون أن يعلما أحداً من أهلهما، واتجها إلى أقرب حرش يجمعون بصلات بعض الأزهار. تنزه الاثنان ولعبا معاً، ونسيا الوقت، حيث غاصا في أعماق الحرش. ولم ينتبها إلا عند سماع ضجيج، وصراخ وقرقعة المعركة، فعادا مسرعين ولكنهما لم يجدا أحداً من أهليهما على قيد الحياة، لا الآباء، ولا الأجداد، ولا الأمهات، ولا الإخوة ولا الأخوات. وبقي هذان الطفلان بلا أهل، وبلا قبيلة تأويهما. وهكذا أخذا يركضان من خيمة محترقة إلى أخرى، وهما يبكيان ويصرخان، ولم يجدا إنساناً واحداً. وهكذا، وخلال ساعة من الزمن أصبحا يتيمين، ولم يبق غيرهما في هذا الكون. وأمامهما، وإلى مسافة طويلة تكونت سحائب الغبار الداكنة. كان ذلك غبار قطعان المواشي، التي غنمها الأعداء، فضلاً عن الرعاة والسبايا، الذين أخذوهم معهم كأسرى حرب بعد هذه الغزوة الدامية.

شاهد الولدان الغبار المنبعث من حوافر الماشية. وانطلقا مسرعين في أثر الأعداء المجرمين، وهما يبكيان ويناديان. وفقط الأولاد كان من الممكن أن يتصرفوا هكذا. وبدل من أن يختبئا عن أعين الأعداء، قاما باللحاق بهم، وكلهم أمل أن لا يبقيا وحيدين. وقررا أن يغادرا هذا المكان اللعين المدمر كلياً. وهكذا أمسك الولد بيد البنت، وركضا معاً خلف المحاربين الغرباء، وهما يصرخان طالبين من الأعداء أن ينتظروهما، ويأخذوهما معهم. ولكن كيف من الممكن سماع أصواتهما في هذا المعمعان والضجيج، وصهيل الخيول، ووقع حوافر المواشي في هذا الزحف الحامي الوطيس!

ركضا معاً، وهما يشدان على أيديهما. ولكنهما لم يتمكنا من اللحاق بهم. وبعد ذلك وقعا على الأرض من شدة التعب. وخافا أن ينظرا إلى ما حولهما. وخافا من الحراك في المكان. وأخذا يرتعدان هلعاً وتعباً. فالتصقا ببعضهما بعضاً، ولم يلحظا، كيف خلدا للنوم.

وليس من العبث، أن يقال في الأمثال - لليتيم سبعة مصائر. مضت الليلة بسلام. فالوحوش لم تقترب منهما، وغيلان الأحراش لم تأخذهما. وعندما استيقظا كان قد عمَّ الصباح. والشمس تنير كل مكان. والطيور تغرد. نهض الولد والبنت، وسارا من جديد على أثر الغزاة. وفي الطريق كانا يجمعان الفواكه البرية والجذور. سارا وسارا طويلاً، وفي اليوم الثالث توقفا فوق قمة جبل. أخذا ينظران إلى الأسفل، إلى الهضاب والسهول الخضراء الفسيحة، فشاهدا وليمة ضخمة مقامة في مرج عريض أخضر. فكم من الخيام نصبت - فهي لا تعد، وكم من الشعب حول شُعل النار - لا يحصى، وكم من المواقد والمشاعل قد أضرمت، - وهي لا تعد! والبنات كن يتأرجحن في الأراجيح وينشدن الأغاني. ويقوم الأقوياء بالعراك والمباراة، وهم

يتحفزون، ويحاورون حتى يلقي أحدهم الآخر على الأرض. هكذا كان الأعداء يحتفلون بنصرهم.

وقف الولد والبنت على الجبل، خائفين من الاقتراب أكثر. وكانا يرغبان بالتواجد عند المشاعل، حيث تفوح رائحة شواء اللحم اللذيذ، والخبز، والبصل البري.

لم يتمكن الولد والبنت من مقاومة رغبتهما. أخذا بالهبوط، فاستغرب المحليون من قدوم الولد والبنت، وأحاطوا بهما من كل الجهات، وهم يسألون:

- من أنتما؟ ومن أين أتيتما؟

- نحن جياع، - قال الولد والبنت، - أعطونا ما يؤكل.

أما الأعداء فقد عرفوا الولدين من لهجتهما. فاعتلى الضجيج وعمت الثرثرة. وأخذوا يتناقشون بحدة: هل نقتلهما الآن كبقية الأسرة عدوتنا، أو نأخذهما للزعيم؟ وخلال نقاشهم، أسرعت امرأة طيبة القلب، وقدمت للولد والبنت قطعتين من لحم الخيل المسلوق. وبعد ذلك اقتادوهما إلى الزعيم بذاته. أما، هما فلم يتمكنا من قهر نفسيهما عن متابعة الأكل. أخذهما الناس إلى الخيمة الحمراء العالية، التي يقف حولها الحراس، وبأيديهم بلطات فضية براقة. وقد انتشرت في أنحاء القبيلة أنباء مقلقة، عن وصول ولدين مجهولين، وغير معروفين، قدما من القبيلة القرغيزية، وماذا يعني هذا؟ ترك الجميع ألعابهم واحتفالاتهم، وجاء جمع كبير إلى خيمة الزعيم. أما هو فكان يجلس متربعاً على لباد أبيض كالثلج مع المقربين منه من المحاربين المعروفين. كان يشرب الكوميس* مع العسل الحلو، وهو يستمع للأغاني التي

* الكوميس - حليب خيل رائب، وهو معروف في جمهوريات آسيا الوسطى، كشراب وغذاء مفيد. - (المترجم).

تمدح به، وعندما عرف الزعيم، لماذا جاء هؤلاء، إليه، غضب غضباً كبيراً، وخرج عن طوره: "كيف تجرأتم على القدوم إليَّ، وإزعاجي؟ أولم نقض على قبيلة القرغيز قضاء مبرماً؟ أولم أجعل منكم ملاكين لضفاف نهر إينيساي، وإلى الأبد؟ فما جاء بكم إلى هنا، أيتها الأرواح الجبانة؟ انظروا، من يسير أمامكم! وصاح الزعيم: - إيه، أيتها العجوز العرجاء المجدورة! - وعندما خرجت العجوز من بين الحشد أضاف قائلاً لها: - خذي هذين الولدين إلى الغابة، وافعلي ما يلزم، حتى تنتهي قبيلة القرغيز كلياً، وحتى لا يذكر أحد اسمهم، وحتى يُنسى اسم القرغيز إلى الأبد. اذهبي، أيتها العجوز العرجاء المجدورة، وافعلي ما أمرتك به...".

انحنت العجوز العرجاء المجدورة بصمت، وقادت الولد والبنت من يديهما، وسارت أمامهما بعيداً. سارت معهما عبر الحرش طويلاً، ثم خرجوا إلى ضفاف النهر إينيساي، إلى ربوة عالية. أوقفت العجوز العرجاء المجدورة الولد والبنت، على حافة الانكسار الجبلي، وقالت قبل أن تدفع بهما إلى الأسفل: - أيها النهر العظيم، إينيساي! إذا تم قذف الجبل إلى أعماقك، سيغرق الجبل، كما يغرق الحجر، وإذا تم قذف صنوبرة بعمر مئة عام، سيحملها النهر بعيداً كقشة خفيفة، فاستقبل في مياهك طفلين صغيرين - ولدين من أبناء البشر. ليس لهما من مكان على الأرض. وهل لي أن أحدثك أنا، يا إينيساي؟ لو أن النجوم أصبحت بشراً، لضاقت السماء بهم. ولو أصبحت الأسماك بشراً، لضاقت مياه الأنهار والبحار بهم. وهل لي أنا، أن أحدثك عن كل هذا، يا إينيساي؟ فخذهما، واحملهما بعيداً. ودعهما يغادران عالمنا الكريه في سن الطفولة، وأرواحهما بريئة، وما زال ضميرهما طفولياً بريئاً، وغير ملطخ بالأفكار الشريرة، والأعمال الشريرة،

وحتى لا يعرفان عذاب الناس، وحتى لا يقومان هما بتعذيب الآخرين. خذهما، خذهما، يا إينيساي العظيم...

أخذ الولد والبنت يبكيان، وتعالى صوتهما الحزين. وهل كان لهما أن يستمعان لكلمات العجوز، في الوقت الذي كان فيه النظر من علياء الانكسار مخيفاً للغاية، وفي الأعماق كانت تتلاطم الأمواج بصورة مرعبة.

- تعانقا، للمرة الأخيرة، ليودع أحدكما الآخر إلى الأبد.

- قالت العجوز العرجاء المجدورة.

وشمرت عن ساعديها، حتى تتمكن من قذف الاثنين معاً، وفي لحظة واحدة من فوق الانكسار، وقالت: - سامحاني، أيها الولد والبنت. هذا هو مصيركما. واعلما أنني لا أقوم بهذا العمل بإرادة مني، بل رغماً عني، - ومن أجل إراحتكما من العذاب...

وما إن لفظت هذه الكلمات، حتى تردد بالقرب منها صوت يقول:

- انتظري، تمهلي، أيتها المرأة الكبيرة والحكيمة، لا تقتلي الأطفال الأبرياء.

التفتت العجوز العرجاء المجدورة، نظرت - فأخذتها الدهشة، إذ وجدت أمامها الغزالة - الأم الخلوقة. ومما يثير الدهشة أن عيناها الكبيرتان كانتا تنظران بجدية وحزن. أما الغزالة نفسها فكانت بيضاء اللون كالحليب اللبأ لدى الغزالة في الولادة الأولى. وعلى بطنها كان صوف أجعد قليلاً وقد تكسر قليلاً كما عند الجمل الصغير. أما القرن، فهو أعجوبة في التكوين، وذو جمالية خاصة - كما يبدو ملتوياً، كأغصان الأشجار في الخريف. أما ثديها فقد كان نظيفاً وناعماً كصدر امرأة قد أنجبت منذ أيام قليلة.

- مـن أنـت؟ ولمـاذا تـتكلمين بلغـة الإنسـان؟ - سـألت العجـوز العرجاء المجدورة.

- أنـا الغزالـة - الأم، - أجابتهـا. - وتكلمـت هكـذا لأنـني إذا تكلمت بشكل آخر، فإنك لن تفهمين شيئاً مما أقول، ولن تستمعي لي، وستنفذين ما أردت.

- وماذا تريدين أيتها الغزالة - الأم؟

- اتركـي البنـت والصـبي، أيتهـا المـرأة الكـبيرة والحكيمـة. أرجوك أن تعطيهما لي.

- ولماذا أنت بحاجة إليهما؟

- قتـل البشـر تـوأميَّ، غـزالين اثـنين. وأنـا أبحـث عـن طفلـين صغيرين.

- وهل ترغبين بإرضاعهما؟

- نعم، أيتها المرأة الكبيرة والحكيمة.

- وهل فكرت بشكل جيد، أيتها الغزالة - الأم؟ - قالت المرأة العجوز العرجاء المجدورة. - فهما ولدان إنسانيان من بني البشر. سوف يكبران، وسيقومون بقتل أولادك الغزلان.

- عنـدما يكـبران، لـن يقومـا بقتـل أولادي الغـزلان، - أجابتهـا الغزالة - الأم. - فأنا سـأكون لهما أماً، وهما سيكونان ولديّ. فهل سيقتلان إخوتهما وأخواتهما؟

- أواه، لا تقـولي أيتهـا الغزالـة - الأم هكـذا، فأنـت لا تعـرفين بني البشر جيداً! - هزّت المرأة العجوز العرجاء المجدورة رأسها، - إنهم كـالوحوش في الغابـات، وخاصـة تلـك الـتي لا تـرحم بعضـها بعضـاً. وكـان بالإمكـان أن أعطيـك هـذين اليتـيمين، حتـى تعلمـين، أن كلماتي على حق، وسيقتل بني البشر هذين الطفلين بين يديك. فلماذا تلزمك هذه المصائب الكثيرة؟

- سوف آخذ الأولاد إلى مكان بعيد من هنا، حتى لا يعثر عليهما أحد كان. فارحمي هذين الطفلين، أيتها المرأة الكبيرة والحكيمة، أرجوك أن تطلقي حريتهما. وسأكون لهما أماً حنونة ووفية بلا حدود... فثديي مليء بالحليب، ويبكي حليبي عطفاً على الأولاد، ويطلب حليبي أن يأتي الأطفال إليه.

- بما أن الأمر كذلك، لم يبق عليّ إلا أن أوافق، - قالت العجوز العرجاء المجدورة بعد تفكير. - استلمي هذين الطفلين، وارحلي معهما من هذه المنطقة إلى منطقة بعيدة، وبالسرعة الممكنة. خذي هذين اليتيمين إلى أرضك البعيدة من هنا. وإذا ما قتلا خلال الطريق البعيدة، وإذا ما قتلهم المجرمون، وقطاع الطرق، وإذا ما حرمك أتباع الشر من أولادك من بني البشر، - تكونين أنت المسؤولة عن هذا، وما عليك إلا الصبر.

شكرت الغزالة - الأم العجوز، وقالت للولد والبنت:

- الآن أصبحت أنا أمكما، وأنتما ولداي. سوف آخذكما إلى مكان بعيد من هنا، حيث يتموضع بين الجبال المغطاة بالغابات بحيرة دافئة - إنها بحيرة إسك - كول.

فرح الولد والبنت، وأخذا يركضان بنشاط وحيوية خلف الغزالة - الأم، ذات القرون، وبعد مسافة شعرا بالتعب، والإنهاك خلال الطريق الطويلة - من أقصى الدنيا حتى أقصاها. ولم يكن باستطاعتهما قطع هذه المسافة، لولا حليب الغزالة، الذي كانت تطعمهما إياه كلما جاعوا، ولولا الدفء، الذي وهبته لهما من جسمها خلال الليالي الباردة. سار الثلاثة أيام مع لياليها بعيداً عن ضفاف نهر إينيساي في الموطن القديم. وما زال أمامهم مسافة طويلة حتى يصلوا إلى بحيرة إسك - كول، ويلزمهم زمان طويل - صيف وشتاء، وربيع،

وصيف، وخريف وصيف آخر، وشتاء بطوله، وربيع ثاني، وصيف رابع، وخريف يلحق به. والغزالة - الأم، ذات القرون والولد والبنت في الفيافي، والغابات الكثيفة، والسهوب الحارة، والرمال المتحركة، وعبر الجبال العالية، والأنهار الغاضبة الهوجاء. وطاردتهم الوحوش، وخاصة الذئاب البرية المتوحشة. ولكن الغزالة - الأم، ذات القرون حملت الولدين على ظهرها، وأنقذتهما من الوحوش المفترسة. ولقد طارد الصيادون على صهوات خيولهم الغزالة - الأم وولديها، وأطلقوا سهامهم عليهم، وهم يصرخون: "انظروا! غزالة خطفت ولدين! حاصروها! أمسكوا بها!". وكان الصيادون يطلقون الأسهم على الغزالة، بينما، كانت تركض بسرعة فائقة، بعيداً عن هؤلاء المنقذين المتطفلين، وأنقذت الغزالة - الأم، ذات القرون ولديها. لقد كانت تركض أسرع بكثير من أسهم الصيادين، وهي تهمس في آذان ولديها: "تمسكوا بشدة، يا ولداي، إنهم يطاردوننا!".

وصلت الغزالة - الأم، ذات القرون أخيراً مع ولديها إلى بحيرة إسك - كول. وقفوا فوق الجبل - واستغربوا ما يشاهدون. فمن حولهم كانت الجبال مغطاة بالثلوج وفي الوسط بين الجبال، غابات خضراء كثيفة، على مدى ما ترى العيون من مسافات شاسعة. أما الأمواج برغوتها البيضاء، كانت تتعاقب فوق المياه الزرقاء، وتأتي الرياح بأمواج جديدة من بعيد، وتسوقها بعيداً، إلى نهاية البحيرة. وهم لا يعرفون أين بداية البحيرة، وأين نهايتها. فمن جهتها الشرقية تبزغ الشمس، ومن الجهة المقابلة تعم ظلمة ليلة ليلاء. وكم من الجبال تقف حول إسك - كول شاخصة، وهي لا تعد ولا تحصى. وخلف هذه الجبال، تنتشر جبال أخرى، تزيدها عدداً وارتفاعاً، وتغطيها ثلوج كثيفة، وهناك سلاسل جبال أخرى تتفرع عنها.

- هــذا هــو موطنكمــا الجديــد ، - قالــت الغزالــة - الأم، ذات القــرون. - ســوف تعيشــان هنــا ، تحرثــان الأرض، وتصـطادان السـمك، وتربيان المواشي. عيشا هنا بسـلام ولآلاف السنين. وكونـا علـى ثقـة أن سـلالتكما سـتبقى، وتتكـاثر، ولـن ينسـى أبناؤكمـا وأحفادكمـا لغتكمـا الأم، الـتي تتكلمـان بهـا ، والـتي جئتمـا معهـا إلى هنـا ، وليتمتعوا بالحديث والكـلام بهذه اللغـة ، وليغنـوا الأغـاني العذبـة بهـا. فلتعيشـا ، كمـا يجـب أن يعـيش النـاس أجمعـين. أمـا أنـا فسـأكون معكما ، ومع أبناء أولادكم في كل الأوقات...

وهكـذا ، أصبح للولـد والبنـت، اللـذين بقيـا وحيـدين مـن قبيلـة القرغيز وطن جديد ، إلى جانب البحيرة المقدسة إسك - كول وإلى الأبد.

تعاقبـت الأزمـان بسـرعة. أصـبح الولـد رجـلاً قويـاً وشـجاعاً، أمـا البنت، فغدت شابة ناضجة جميلـة. عندئذٍ تزوجـا وعاشـا زوجـاً وزوجـة. أما الغزالة - الأم، ذات القرون لم تـترك بحيرة إسـك - كـول، وعاشـت في الغابات المحيطة بالبحيرة.

ذات يـوم، عنـد طلـوع الفجـر عصـفت الريـاح، واضـطربت بحـيرة إسك - كـول. لقـد حانـت لحظـة الإنجـاب عنـد المـرأة. وأخـذت تتعـذب، وتصرخ. أمـا الـزوج فقـد خـاف علـى زوجتـه، فهـرع يـركض إلى صـخرة عالية ، واعتلاها ، وأخذ ينادي بصوت عال:

- أيــن أنــت، أيتهــا الغزالــة - الأم، ذات القــرون؟ هــل تسـمعين كيف عمّ الصخب أرجاء بحيرة إسك - كول؟ إن ابنتك تلد. أسرعي بالحضور إليها ، أيتها الغزالة - الأم، ذات القرون، ساعدينا...

جاء ساعتئذٍ، ومـن بعيـد ، صـدى رنـين متمـوج وشـفاف، وكـأنـه وقـع صـدى أجـراس قافلـة تتنـاوب ضـمن معزوفـة خاصـة. وأخـذ هـذا الصـدى يتعـاظم ويقـترب بسـرعة. وهـا هـي، وبعـد لحظـات قليلـة تظهـر

الغزالة - الأم، ذات القرون، وكانت تحمل فوق فروع قرنها، سريراً للطفل الوليد، وقد علقته من مسكته على القرن. أما حوافه فكانت من أخشاب الحور الأبيض، وعلى المسكة كان يعلق جرس فضي، يرن بعذوبة هادئة. وحتى الوقت الحاضر، ما زال هذا الرنين يصدح فوق المهود عند إسك - كول. فتهز الأم السرير، والجرس الفضي يرن بعذوبة، وإيقاع يحمل السعادة، وكأن الغزالة - الأم، ذات القرون تركض مسرعة من بعيد، والسرير معلق فوق فروع قرنها...

ومجرد أن وصلت الغزالة - الأم، ذات القرون، ملبية نداء الزوج القلق أنجبت المرأة بسلامة.

- هذا السرير لابنكِ البكر، - قالت مخاطبة الأم الشابة. - وسيكون عندكما أولاد كثر. سبعة أولاد، وسبع بنات!

سعدت الأم والأب، وأطلقا على الولد البكر اسم بوغوباي، على شرف الغزالة - الأم، ذات القرون. وعندما كبر بوغوباي تزوج من شابة من قبيلة كيبشاك، وأخذت تتكاثر قبيلة بوغو - سلالة الغزالة - الأم، ذات القرون. وأصبحت هذه السلالة قوية وكبيرة ومتميزة في منطقة إسك - كول. وكان الناس يحسبون الغزالة - الأم، ذات القرون البوغوبايية كمقدسة محترمة، في منطقة إسك - كول. وعلى خيام سلالة البوغو، وفوق مداخل البيوت كانوا يطرزون علامة - قرن الغزالة، ويراه الناس من بعيد، ويدركون أن هذه الخيمة تتبع لسلالة البوغو. وعندما كان يصد البوغيون الغزوات والاعتداءات الغريبة، أو عندما كانوا يقيمون سباقاً للخيل، كانوا يطلقون صيحة: "بوغو". وفي النهاية غالباً ما كان ينتصر البوغيون. وفي الغابات التي تحيط ببحيرة إسك - كول تكاثرت سلالة الغزلان البيضاء، وهي جميلة ورشيقة القامة، حتى النجوم في السماء كانت

تغار منها. وهذه الغزلان كانت من سلالة الغزالة - الأم، ذات القرون. ولم يعتد أحد على هذه الغزلان، ولم يزعجها أحد في مرعاها وتجوالها. وعندما يشاهد خيّال من سلالة البوغو غزالاً ينزل عن صهوة جواده ويتوقف في مكانه سامحاً للغزال بالمرور، وغالباً ما كان يصف المحب حبيبته الجميلة بأنها تشبه الغزالة البيضاء...

هكذا مرّ الزمن، حتى توفي أحد الأغنياء المعروفين من سلالة البوغو - وكان يملك آلاف الآلاف من الأغنام، وآلاف الآلاف من الخيول، وكل الناس العاملين من حوله كانوا يعملون عنده كرعاة. وأقام أولاده له حفل تأبين، بل حفلات كثيرة تخليداً لذكراه. ودعوا لحفلة التأبين الأساسية أناساً من كل الأصقاع، ولم يتركوا واحد من الناس المعروفين إلا ودعوه لحضور حفلة التأبين. وأشادوا للضيوف ألف ومئة خيمة على شاطئ بحيرة إسك - كول. ولم يحص عدد الأضحيات، التي ذبحت في ذلك الحفل، وكم من الكوميس قدم كشراب، وكم نوع من المأكولات قدم بسخاء. بينما كان أولاد الرجل الغني يمشون بكبرياء: ليعلم الناس، عظمة وغنى، وكرم أولاد المتوفى، وكيف هم مفجوعون به ويحبونه ويحترمونه، ويرغبون بتخليد ذكراه... ("إيه - إيه، يا بني من المعيب والمخجل، عندما يمجد الناس الثروة، وليس العقل!").

أما المغنون والمنشدون في الحفل كانوا يتباهون بالخيول المهداة لهم من أولاد المتوفى، ويتمايلون بحركات من رؤوسهم المغطاة بالقبعات المصنوعة من فراء السمور الثمينة، والأثواب الحريرية الفضفاضة، وتسابق المنشدون في مديح الراحل وأولاده:

- أين ترى تحت الشمس مياه سعيدة كهذه، التي نراها في حفل التأبين هذا؟ - قال أحد الشعراء.

- منذ تكوين الدنيا، لم نر حفلاً كهذا! - يقول شخص آخر.

- لا يوجد مكان في الدنيا، كما هو الأمر عندنا، إذ يحترمون الأهل ويقومون بالواجب أمامهم أحياء وأموات، ويقدسون أسماءهم.

- أخذ ينشد ثالث.

- إيه، أيها المغنون الفصحاء، عجباً لصخبكم! فهل توجد كلمات في الدنيا، تصف هذا الكرم. وهل يوجد كلام يفي الراحل وأولاده حقهم، ويمجد بمجده! - يغني شاعر رابع.

وهكذا تسابقوا فيما بينهم في المديح ليلاً ونهاراً. ("آه، يا بني، من السخف أن يتسابق المغنون في المديح، فإنهم بذلك يتحولون من مغنين إلى أعداء للغناء").

استمرت الاحتفالات عدة أيام، وقبيلة البوغو تحتفل بتأبين هذا الشخص الغني. ولقد أراد أولاده أن يتفوقوا على غيرهم، وعلى كل شخص أقام تأبيناً لقريب أو زعيم له. وحتى يعمّ كلام المديح لهم كل الدنيا، اتفقوا على أن يضعوا على شاهدة قبر أبيهم قرن غزالة، حتى يعرف الجميع أن هذا القبر هو مدفن جدهم المجيد من سلالة الغزالة - الأم، ذات القرون. ("إ - إ، يا بني، ففي القدم كان يتكلم الناس، أن الثروة تلد التكبر، والتكبر يلد قلة العقل والسفاهة").

لقد أراد أولاد الغني أن يقدموا لمدفن أبيهم شاهدة لم توضع لأحد من قبل، ولم يحظى بها أي زعيم أو غني من قبل، ولم يستوقفهم أي شيء. حصل القول، وتم الفعل! فأرسلوا الصيادين، الذين قاموا بقتل غزالة، وخلعوا قرنها من جذره، وكان يشبه أجنحة صقر همَّ بالتحليق. لقد أعجب أولاد الغني بقرني الغزالة، وكان على كل قرن ثماني عشرة عقدة نامية - هذا يعني أن عمرها ثمانية عشر عاماً. حسناً! هكذا صدر الأمر للحرفيين، أن يضعوا القرن فوق المدفن، كما يجب، وفوق قاعدة خاصة.

احتج الكهلة والحكماء:

- من سمح لكم، أن تقتلوا الغزالة، ومن منحكم هذا الحق؟ ومن سمح لنفسه أن يرفع يده على أحفاد سلالة الغزالة - الأم، ذات القرون؟

وجاءت الإجابة من أولاد الغني:

- لقد قتلت الغزالة على أرضنا. وكل ما يمشي، ويزحف، ويطير على أرضنا وفوقها هو من حقنا، من الذبابة وحتى الجمل. كل هذا يعود لنا. ونحن نعرف، ماذا علينا أن نفعل بأملاكنا. اخرجوا من هنا!

قام الخدم بضرب الكهلة بالأسواط، وأجلسوهم على الخيول، ووجوههم إلى خلف الأحصنة، وتم طردهم وتوبيخهم بأقسى الكلمات.

ومن هنا بدأت المأساة... فقد حلت المصيبة الكبرى على أحفاد سلالة الغزالة - الأم، ذات القرون. إذ أصبح كل الناس يصطادون الغزلان البيض في الغابات. وكل بوغيني أخذ يعتقد أنه من الواجب عليه أن يضع على مدفن آبائه وأجداده قرن غزال أو غزالة. وأصبح يتم الأمر، وكأنه نوع من الاحترام الخاص لذكرى الموتى. ومن لا يعرف كيف يصطاد الغزلان، كان يحسب من المتخلفين. وانتشرت التجارة بقرون الغزلان، وأخذوا بتجميعها وخزنها لوقت الحاجة. وظهر بعض الناس ضمن سلالة الغزالة - الأم، ذات القرون، الذين يقومون بهذه المهمة كحرفة، إذ يتم الحصول على قرون الغزلان، وبيعها مقابل نقود. ("إ - إ، يا بني، حيث النقود، لا مكان للكلمة الخيرة، ولا مكان لكل جميل").

حان زمن القتل للغزلان حول بحيرة إسك - كول، وخاصة في الغابات، والأحراش. ولم يعد أحد يرأف بها. لجأت الغزلان إلى مناطق

الصخور، التي يصعب اجتيازها، ولكن البشر تمكنوا من اللحاق بها وقتلها. أطلقوا خلفها كلاب الصيد المدربة، التي تطرد الغزلان إلى المناطق، التي يتجمع فيها الصيادون، الذين لا يخطئون الهدف. لقد نفذت عملية إبادة جماعية للغزلان، وتمت عمليات القتل لقطعان بأكملها. وكان الرجال يراهنون فيما بينهم، من يحصل على قرون ذات فروع نامية أكثر من غيرها.

وهكذا أخذ عدد الغزلان يقل يوماً بعد يوم، حتى انعدم وجودها تقريباً في الجبال. ولم يعد يسمع غناء الغزلان لا في الليل ولا في النهار. ولم يعد الإنسان يشاهدها لا في الغابات، ولا في السهوب، ولا يراها في المراعي، ولا في الانتقال مسرعة من منطقة لأخرى، وهي ترفع رأسها عالياً، حتى تلامس نهايات قرونها ظهورها، ولا وهي تقفز قفزات عالية فوق الحفر والوهاد، كالعصافير في طيرانها. وتكاثر بني البشر، وعاش أناس معظم حياتهم، أو كلها دون أن يشاهدوا الغزلان، ولو لمرة واحدة، وسمعوا عنها في الحكايات فقط، وشاهدوا القرون فوق المدافن.

وماذا حصل للغزالة - الأم، ذات القرون؟

اغتاظت من أفعال بني البشر. ويقال، أنه، وعندما أصبح عدد الغزلان في المنطقة قليلاً نتيجة لهجمات الصيادين ورصاص بنادقهم، ومن كلاب الصيد الشرسة، حتى أصبح ممكناً تعدادهم على أصابع اليدين، ساعتئذٍ نهضت الغزالة- الأم، ذات القرون، وصعدت إلى أعلى قمة في الجبال، وودّعت بحيرة إسك - كول، ومشت أمام ما تبقى من أولادها، وتجاوزت المنحدرات العميقة، إلى الجهة الأخرى من السلاسل الجبلية، وبدأت حياة جديدة في جبال ووهاد بعيدة عن أنظار البشر.

نعم، هكذا يحدث ما لا يصدق من أعمال على وجه الأرض.

هذه هي الحكاية عن الغزالة - الأم، ذات القرون، فصدق إذا أردت، أو لا تصدق.

وعندما غادرت الغزالة - الأم، ذات القرون، قالت بأنها، لن تعود مطلقاً...

5

ومن جديد عاد الخريف إلى الجبال. ومن جديد، وبعد الصيف الصاخب تأقلم الجميع مع هدوء الخريف. وهدأت عواصف الغبار الناجمة عن أظلاف وحوافر المواشي، وخمدت نيران المواقد والمشاعل. وغادرت القطعان إلى حظائر الشتاء، وغادر الناس. وفرغت الجبال من أنس الإنسان، ومن شره أيضاً.

أخذت النسور تطير فرادى، وهي تبخل بإرسال صياحها إلى الأرض. وخرست المياه نسبياً في النهر: تعود النهر خلال فترة الصيف على غزارة الفيضانات العالية، وانخفض منسوب المياه فيه، وجفت بعض أطرافه، وأصبحت أكثر ضحالة. ولم يعد العشب ينمو كالسابق، وذبل فوق جذوره. وعجزت الأوراق عن الصمود طويلاً فوق الأغصان، وأخذت تميل للاصفرار والسقوط في بعض الأماكن.

أما بالنسبة لذرى الجبال العالية، فقد أخذت تكتسي بالثلج الفضي الشاب. وبعد الليالي الثلجية، ومع ظهور الصباح أخذت سلاسل الجبال الداكنة تظهر شائبة، وتحل شعرها الأبيض فوق أكتافها، كما تبدو الثعالب الداكنة.

أخذت الرياح تعصف باردة في شعاب الجبال، وانكساراتها. أما سفوحها فقد بقيت جافة ومضيئة.

أخذت الغابات خلف النهر، مقابل محور الحراسة، تخلع

وبسرعة ثوبها الأخضر، وترتدي حلة الخريف. فمن ضفاف النهر مباشرة ، وحتى حدود غابة الصنوبر السوداء في أعالي الجبال امتدت نار الخريف حريقاً بلا دخان، وأحاط بالأشجار فوق السفح شديد الانحدار. أما أشجار الحور الرجراج، فبدت أكثر الأشجار سطوعاً بلونها الأحمر الناري فقد ارتقت إلى قمم الغابة الكبيرة، الموشحة بالثلج، إلى مملكة أشجار الصنوبر والسنديان القاتمة.

في غابة الصنوبر كان يعمّ الهدوء، والنظافة كما في المعبد. وبانت الجذوع البنية، ومنها فاحت رائحة الصنوبر الإبري الزاهي، الذي ينشر أوراقه الإبرية طبقة سميكة تحت أشجار الصنوبر. وفقط الرياح تحرك أعالي أشجار الصنوبر العالية بهدوء واتزان.

أما اليوم، ومنذ الصباح، فقد ضجت الجبال، وبصورة مستمرة وقلقة للغاية، بأصوات صياح غربان الزرع، التي حلقت في الفضاء على شكل أسراب كثيرة، وهي تدور ضمن دوائر فوق غابة الصنوبر. وبمجرد أن سمعت الغربان وقع ضربات البلطة اضطربت وهلعت. وها هي الآن تنعق بشكل قوي، وكأن أحداً ما قد نهب أعشاشها في وضح النهار. وكانت الطيور تتعقب شخصين، نزلا من الجبل وهما يسحبان جذع شجرة صنوبر.

قام الرجلان بجر جذع الشجرة بسلاسل مشدودة إلى حصان. كان أرازكول يسير في المقدمة، ماسكاً مقود الحصان. سار عابساً، ومعطفه يشتبك بالأغصان، وكان يلهث كالثور المشدود إلى محراث. ومن خلفه بدا الجد مأمون يسرع الخطا. وهو أيضاً كان يعاني على هذا الارتفاع الجبلي من صعوبة التنفس. وكان يمسك بيده عصى من شجرة حور، حتى يوجه جذع الشجرة الصنوبرية خلال الجر. وكان الجذع يصطدم أحياناً في ناميات وشجيرات، وأحياناً يصطدم

بالأحجار. وخلال الانحدار الشديد كان الجذع يذهب يمنة ويسرة، ويهدد بتدحرج الحصان في اتجاه آخر إلى الأسفل. ولو حصل ذلك لكانت مصيبة حقيقية تهدد بالموت المحتم.

وكان الخطر الأكبر يتهدد من يقوم بتوجيه الجذع خلال النزول بعصا الحور، - ولكن لا يعرف الإنسان ما يخطر ببال الشيطان: ولقد وقع أرازكول في حالات عسيرة عدة مرات، فكان يقفز جانباً، بعيداً عن خطر الحصان، وعن خطر الجذع. وفي هذه الحالات كان يقع أرازكول في حالة حرجة ومعيبة، عندما يهرب ويترك الكهل مأمون، وهو يخاطر بنفسه ويمسك بالجذع، الذي ينزلق للأسفل، وينتظر، حتى يعود أرازكول ويمسك بمقود الحصان. وليس من العبث أن يقول الناس: حتى تخفي عيبك، عليك أن تعيب الآخرين، فيقول أرازكول لحماه: - ماذا بك أيها الكهل، هل ترغب أن تدفعني إلى عالم الأموات؟

لم يكن من إنسان آخر قريب منهما، حتى يسمع حوارهما، فيدين أرازكول: أيُّ حقٍّ تملكه حتى تعامل الكهل بهذا الشكل؟ وقال العجوز على استحياء، أنه هو أيضاً كان معرضاً للوقوع تحت الجذع، فلماذا الصراخ، وكأنه فعل ذلك متعمداً.

ولكن هذا الرد أغاظ أرازكول أكثر من ذي قبل:

- آه، يا لك من كهل! - قال هو حانقاً. - لو أصابك الجذع وقتلك، كان الأمر عادياً، فأنت عشت عمرك. وهل لك ما ترجوه بعد الآن؟ أما أنا، لو حدث وقتلت، فمن سيأخذ ابنتك العقيمة؟ فمن تلزم هذه العقماء، كعود الشيطان؟

- إنك رجل صعب يا بني، لا يوجد عندك أي احترام للناس. - أجابه مأمون.

توقف أرازكول، ونظر شزراً إلى الكهل، قائلاً:

- إن الكهلة من أمثالك يجلسون منذ أمد بعيد عند المواقد، ويدفئون مؤخراتهم فوق الرماد. أما أنت فما زلت تتقاضى مرتباً، مهما كان حجمه. ومن أين يأتيك هذا المرتب؟ بالطبع أنا الذي وفرت الظروف لهذا. وأي احترام تحاول أن تحصل عليه؟

- لا تؤاخذني، كلمة وخرجت مني. - قال مأمون موافقاً.

وهكذا سار الاثنان مذللين المصاعب، التي اعترضتهما خلال مسافة من المنحدر. وتوقف الاثنان عند المنعطف للاستراحة قليلاً. أما الحصان فقد تبلل بالعرق كلياً.

واستمرت الغربان بالنعيق، وهي تحوم في السماء بلا انقطاع. كانت أعدادها لا تحصى. وأخذت تنعق لدرجة بدا معها، وكأنها قررت ألا تقوم بأي عمل اليوم سوى النعيق طيلة النهار.

- كما يبدو، أن الغربان أخذت تحس بقرب الشتاء المبكر، - قال مأمون، حتى يتكلم عن أي شيء ويخفف من غضب أرازكول. - وأضاف وكأنما يعتذر عن الطيور غير العاقلة، - إن طيور الغربان عندما تقلع عن الأرض، تصطدم ببعضها البعض، وهي لا تحب أن يزعجها أحد كائن من كان.

- ومن أزعجها؟ - أجاب أرازكول بحدة. واشتد غضباً فجأة، إذ قال، مهدداً الكهل: - عما تتكلم أيها الكهل، وأنت لا تعلم شيئاً!

"إيه، - فكر أرازكول في نفسه، - ماذا يقصد من وراء كلامه! أمن أجل غربانه هذه، لا ينبغي أن نلمس صنوبرة، أو نكسر عوداً من الغابة؟ هذا لن يكون! فأنا ما زلت المدير الأساسي هنا". جحظت عيناه على أسراب الغربان الصاخبة، وقال: "لو كان لديَّ رشاش لعلمتهم!". وأدار ظهره، وشتم بصورة سيئة.

التزم مأمون الصمت. فهو لم يعد يتحمل سباب وشتائم صهره. انغلق على نفسه، وعانى من الاكتئاب، مستغرباً تعامل أرازكول الغريب معه. وقال في نفسه حزيناً: يشرب - يصبح وحشاً. وبعد أن يكسر الخمرة في صباح اليوم التالي، عليك أن تلتزم الصمت أمام تصرفاته، وضربه لزوجته أيضاً. والسؤال لماذا يصبح الناس على هذا الشكل؟ - حاول مأمون أن يحلل مواقفه. - تقول له كلمات طيبة فيرد عليك بكلمات شريرة بلا حياء، ولا خجل، ولا تفكير. وكأنما كل شيء يجب أن يكون هكذا. دائماً يعتبر نفسه على حق. وخاصة عندما يكون كل شيء كما يرغب هو. وعلى كل من حوله أن ينفذوا رغباته. وإذا رفض الإنسان ما يطلبه منه يجبره بالقوة. ومن الجيد أنه يعمل في الجبال، ويتعامل مع الغابات ومع عدد قليل من الناس وهم ينفذون ما يطلب منهم وينتهي الأمر. فكيف الأمر لو كان بيده سلطة أعلى؟ عسى الله أن يكفينا شره، وشر أمثاله... لأنه وأمثاله لا يفكرون إلا بمصالحهم الأنانية. وللأسف من الصعب التخلص من هؤلاء. فهم يجدون ما يلزمهم، ويحصلون على مبتغاهم. وحتى تكون لهم أريحية دائمة، وكرسي ناعمة لديهم الاستعداد أن يسحبوا روح الإنسان، ويبقون على حق. نعم، من الصعب الخلاص من أمثاله...".

- يكفي الوقوف في المكان، - قطع أرازكول تفكير الكهل.

- فلنتابع المسير. - قال آمراً.

وهكذا تحركا من مكانهما.

اليوم، ومنذ الصباح، كان أرازكول معكر المزاج. ففي الصباح، عندما كان من الواجب على الجد مأمون أن يأخذ العدة اللازمة إلى الغابة على الضفة الأخرى، قام بأخذ حفيده إلى المدرسة. هل فقد هذا العجوز عقله من كثرة الأعمال! ففي كل صباح يضع

السرج على الحصان، ويأخذ الولد إلى المدرسة، ثم ينطلق ثانية ليعود به من المدرسة. وبالإضافة إلى المتطلبات الأخرى لهذا الولد اليتيم فعلياً، رغم أن والده ووالدته على قيد الحياة. زد على ذلك، تلك التعقيدات، مثل معاقبته عندما يتأخر عن المدرسة! هذا بالإضافة إلى متاعب أخرى، والله يعلم، ماذا ينجم بعد كل هذا، - وما علينا إلا الانتظار، أليس كذلك؟ وهو يقول: "أما أنا، - سأرجع بسرعة وأنفذ العمل، فمن العيب أمام المعلمة، إذا تأخر الولد عن درس من الدروس". نعم، إنه يخجل من المعلمة! يا له من مجنون! فمن هي هذه الإنسانة، المعلمة؟ خمس سنوات وهي تذهب إلى المدرسة في فستان واحد. وتراها دائماً مع الدفاتر والحقائب. تؤشر إلى السيارات العابرة على اختلافها لتصل إلى المدرسة، وتعود إلى بيتها. وغالباً ما تذهب إلى مركز المنطقة للحصول على المخصصات اللازمة للمدرسة. ففي بعض الأحيان ينتهي الفحم المخصص للتدفئة، وبعض الأحيان الأخرى ترميم النوافذ بالزجاج اللازم، وكذلك الحوار، والمساحات، وأدوات تنظيف المدرسة. فلو كانت معلمة، ذات شخصية، هل كان لها أن ترضى بهذه المدرسة؟ وحتى التسمية، التي أطلقوها على المدرسة، لا تليق بها - المدرسة القزمية. فهي، وعن حقيقة، قزمية. وما هي الفائدة المرجوة منها؟ فالمعلمون الحقيقيون يعملون في المدينة. إن معظم المدارس هناك تكون مبنية من الزجاج الصافي للإضاءة. والمعلمون، مختارون حسب مسابقات، وهم بثياب أنيقة مع ربطة عنق نظامية لكل واحد منهم. إن هذا في المدينة... والقياديين هناك يركبون ذهاباً وإياباً في سيارات أنيقة! يرغب الإنسان أن يتوقف، وينظر بتمعن إلى جمالها، فمنها ذات اللون الأسود والأزرق اللامع، والمتموجة. أما هم، كسكان للمدن، كأنهم لا يلاحظون هذه السيارات، وليس لديهم الوقت للتوقف

والنظر! فهم يسرعون إلى عملهم. وهكذا تسير الحياة في المدينة، حسب أصولها! حبذا لو نحصل على عمل هناك. ففي المدينة يحترم الإنسان حسب مكانه. فطالما يستحق - فالاحترام واجب. وكلما كبرت المسؤولية، حصل على احترام أكبر. حقاً إنهم أناس مثقفون. وهناك لست مضطراً مقابل هدية ما أن تقدم خدمة ما، كتأمين جذع شجرة أو ما يشبه ذلك. وليس الأمر هناك، كما هو عندنا هنا - خمسون روبلاً أو مئة على أكثر تعديل، ثم يمضي الشخص بالأخشاب، وينقلها إلى بيته، ثم يقدم شكوى يتهمك فيها بالسرقة أو الرشوة: أرازكول مرتش وهو كذا، وكذا... يا للجهل!

نعم، حبذا لو أحصل على فرصة عمل في المدينة... إيه، لكنت قد سلمت كل شيء هنا للشيطان، بما في ذلك هذه الجبال، وهذه الغابات، وهذه الجذوع، والأعمدة الملعونة ثلاثاً، وهذه الزوجة، خالية البطن، وهذا الكهل بلا عقل مع ذلك الولد، الذي يرعاه ويتعذب من أجله وكأنه لقية غالية. آه، لو تمكنت من الانتقال إلى المدينة لسرحت ومرحت كما يطيب لي كالحصان الشبعان فوق الحشائش المجففة! لأجبرت كل من يعمل معي على احترامي: "أرازكول بلاجانوفيتش، هل تسمحون لنا بدخول مكتبكم؟". وكان بإمكاني أن أتزوج هناك من ابنة المدينة. ولما لا، ألا أستحق هذا؟ ولتكن ممثلة على سبيل المثال، لا الحصر، ولتكن ملكة جمال، تغني، وترقص كما يطيب لها ولي، وهي تمسك الميكروفون بيدها. ويقال، أن المهم في الأمر بالنسبة لهن، أن يكون الرجل صاحب منصب. وكنت لآخذ هذه السيدة من مرفقها، وارتدي بذلة، مع كرافيتا مناسبة، وأمشي معها بافتخار إلى السينما، وهي تسير عازفة نقرات خاصة بكعب حذائها، وتفوح عطراً، من أغلى أنواع العطور، ويمد

المارة أنوفهم حتى يأخذوا شيئاً من أريجها. ولن تمضي إلا فترة وجيزة، حتى تجد الأولاد يلعبون من حولنا، وقد جاء الواحد بعد الآخر تباعاً. وسأجعل الولد يدرس في كلية الحقوق، والبنت سأعلمها العزف على البيانو. إن أولاد المدينة يتعلمون بسرعة، ويشتهرون بسرعة بديهتهم واستيعابهم. وفي البيت سوف يتكلمون باللغة الروسية فقط، فهم ليسوا بحاجة لأن يحشو رؤوسهم بالكلمات القروية القديمة. وكنت لأربي أولادي على المخاطبة التالية: "بابي، مامي، أريد هذا، وأريد هذا..." وهل يبخل الأب على ابنه بشيء ما يطلبه؟ إيه، لو تحقق حلمي لفركت أنوف الكثيرين، وبينت لهم، من هم في واقع الأمر!

فهل هو أسوأ من الآخرين؟ وهل الذين هم أعلى منه منصباً أفضل منه؟ إنهم أناس مثله. كل ما هنالك أن الظروف خدمت الآخرين أكثر مما خدمته، واقتصرت من السعادة، التي كان يحلم بها. ولكنه هو أيضاً مخطئ. فبعد إنهاء دورة للعاملين في مجال الغابات كان من الضروري أن يسافر إلى المدينة، ويدرس في المعاهد التكنولوجية المهنية، وكذلك الدراسة في المعاهد العليا. لكنه تعجل في الموافقة على أول وظيفة مهمة، بغض النظر عن صغرها. وهكذا كان عليه أن يمضي أغلب وقته في الجبال والغابات، وثم جر الجذوع والأعمدة كالحمار، والآن يعاني من هذه الغربان... - "وما السبب في استمرار صراخ هذه الطيور اللعينة، ولم تدور وتحوم؟ إيه، حبذا لو كانت معي بندقية رشاشة... ".

كانت في حياة أرازكول منغصات. فقد انتهت متع فصل الصيف، وجاء فصل الخريف. ومع انتهاء الصيف، تنتهي فترة الزيارات إلى الرعاة، ومربي الخيول. وكان ذلك كما في الأغنية: "ذبلت الأزهار في الهضاب، حان الوقت للنزول إلى الوهاد...".

حل فصل الخريف. وكان على أرازكول أن يدفع حساب التشريفات، والضيافة، والقرضة، والدين والوعود، وكذلك على التكبر والافتخار: "ماذا يلزمك؟ فقط جذعي صنوبر؟ عما يجري الحديث هنا! تعال وخذ ما تشاء!".

تكلم وثرثر كما يطيب له، استلم الهدايا، وشرب الفودكا، - أما الآن فأخذ يتأوه، والعرق يتصبب منه، وهو يلعن كل شيء على وجه الأرض. كان يجر هذه الأعمدة عبر الجبال. وكان يحصل على هذا بما يساويها. وهكذا عاش حياته بلا مبالاة. وفجأة برقت في عقله فكرة تشاؤمية: "سأبصق على كل شيء، وأغادر هذه البلاد، حيث ترى عيناي النور!" وأدرك هو ساعتئذٍ، أنه لن يذهب إلى أي مكان، فهو لم يعد يصلح لأي شيء، ولا في أي مكان، ولن يجد الحياة، التي يبحث عنها.

حاول أن تغادر من هنا، أو ترفض ما وعدت به! فإن أصحابه والمقربين منه هم الذين سيتنكرون له ويشون به. فقبل سنتين، وعد أحد أصدقائه، وهو من أبناء سلالته من البوغيين بأن يقطع له جذع شجرة صنوبر مقابل خروف كان قد أهداه إياه، ولكنه لم يتمكن في الخريف من الصعود إلى الجبال ليقطع الشجرة. فالوعد كلامياً سهل على أرازكول، ولكن، الفعل، وتنفيذ ما وعد به أمر صعب، وخاصة أنه من اللازم أن يقوم بعملية النشر، والجر من الجبل. زد على ذلك، أن عمر هذه الشجرة ليس عقداً واحداً من السنين، بل أكثر بكثير، وعاشت، ونمت بكل حرية في هذه الدنيا، وهذه العملية ليست بالسهلة! ويرفض الإنسان السوي أن يقوم بهذا العمل مقابل الذهب. وفي تلك الأيام مرض الكهل مأمون، ولازم الفراش. ولم يتمكن عند ذلك أن يقوم بهذا العمل لوحده، وخاصة أن الجذع ثقيل

جداً، وجره من الجبل يحتاج لأكثر من شخص واحد. فبإمكان الشخص أن ينشر شجرة الصنوبر، ويرميها على الأرض، ولكنه لن يتمكن من جرها إلى أسفل الجبل... ولو علم، بما سيحدث مستقبلاً، كان بإمكانه مع زميله سيداخمات أن يذهبا ويحضرا جذع الصنوبرة. ولكن أرازكول تكاسل من التعامل مع الجذع، وقرر أن يتخلص من صاحب العلاقة بأول شجرة تصادفه. وهنا لم يوافق صاحب الجذع، الذي قال له بعد أن ماطل مطولاً: "من السهل عليك أن تأخذ الخروف، ولكنه يصعب عليك أن تجلب جذع الصنوبرة!". غضب أرازكول، وطرده من ساحة منزله: لا ترغب أن تأخذ ما أعطيك، فاخرج من هنا. أما ذلك الشاب فلم يكذب كلمة، وفعل ما هدد به، إذ كتب تقريراً وشكوى ضد مدير محمية سان - تاش، وحارس الغابة أرازكول بلاجانوف. وكتب في التقرير كل ما يريد، - منها الصحيح، ومنها معلومات سمعها من هنا وهناك عن أرازكول، حتى يحكم عليه بالإعدام "ككخائن للمحمية الاشتراكية، ومخرب لها". وفيما بعد أخذت المحاكم الشعبية والحكومية تجر أرازكول من لجنة لأخرى، ومن محاسبة وتفتيش وتدقيق إلى المحكمة العليا في وزارة الثروة الحراجية. ولم يتخلص من هذه القضية إلا بصعوبة فائقة... هكذا فعل به قريبه! وكذلك: "كلنا أبناء الغزالة - الأم، ذات القرون، الواحد من أجل الجميع، والجميع من أجل الفرد!". كل هذا كلام فارغ، ولا معنى له! وما معنى الغزالة - الأم هنا، وليأخذها الشيطان بعيداً، فعندما يخص الأمر المصلحة الذاتية، فإن كل واحد على استعداد أن يقطع حنجرة قريبه، أو يدخله إلى السجن لقاء كوبيك! لقد كانت صلة القرابة موجودة سابقاً، عندما كان يثق الناس بالغزالة. ويا لهم من أناس جهلة آنذاك. إنهم أغبياء لدرجة

الضحك! أما الآن فالكل مثقفون، ومتعلمون! وهل لهذه الحكايات والخرافات القديمة أي معنى، فهي لتسلية الأطفال الصغار فقط!

بعد تلك الحادثة لم يعد أرازكول يثق بأحد مهما كان قريباً، ولو ادعى أنه واحد من سلالة الغزالة - الأم، ذات القرون. وأقسم أرازكول أن لا يعطي عوداً واحداً، ولا ورقة من أوراق الصنوبر الرجراج.

وها هو الصيف قد عاد من جديد. ونصبت الخيام هنا، وهناك على الهضاب عند أقدام الجبال، وعلى سفوحها الدُّنيا. وتزاحمت قطعان الأغنام للسبق على المراعي الخصبة. وارتفع الدخان داكناً فوق ضفاف النهر والجداول. وسطعت الشمس، وفاحت رائحة "الكوميس" المخمر قليلاً، وانتشر أريج الأزهار. وما أجمل أن تجلس في الهواء الطلق على العشب الأخضر بجوار الخيمة، وحولك الأصدقاء والأقارب، وتستمتع بشرب الكوميس، وتناول اللحم الطازج معهم. ثم تجترع كأساً مليئاً بالفودكا، حتى يدور الرأس وترتاح عقده. وتشعر ساعتئذٍ أن بمقدورك أن تقتلع شجرة من جذورها لوحدك، أو أن تقلب الجبل رأساً على عقب... نسي أرازكول في تلك الأيام ذلك القسم، الذي قطعه على نفسه. وكان يطيب له، ويشعر بالنشوة عندما كانوا ينادونه بـ "المالك الكبير للغابة الكبرى". ومرة أخرى يعد بجذوع الأشجار، ومرة أخرى يقبل الهدايا... ومن جديد أخذ يحدد الجذوع المتميزة من أشجار الصنوبر في الغابة، والتي لم تفكر بأن أيامها أصبحت معدودة، وأن حياتها ستنتهي مع بدء أيام الخريف الأولى.

وها هو الخريف قد حل تدريجياً في الجبال، وبعدها في الأراضي، التي تم جني المحاصيل فيها. وتم استقبال السنونو من كل صوب. وهناك، حيث عبرت علائم الخريف، أخذ العشب يميل للاصفرار، كما اصفرت الأوراق على الأشجار في الغابة.

نضجت الثمار. وكبرت الخراف. وتم تقسيمها إلى قطعان - النعاج على حدة، والخراف على حدة. وحفظت النسوة الجبن اليابس في أكياس خاصة لأيام الشتاء. وبدأ الرجال يتناقشون فيما بينهم من سيكون في أول الطريق عند العودة عبر الوادي. أما أولئك الذين اتفقوا مع أرازكول في الصيف فإنهم ينبهونه قبل رحليهم أن لا ينسى اليوم والساعة المتفق عليها، والتي سيحضرون فيها إلى مكتب الحراسة في الجبل، ومعهم سيارات شحن لتحميل الأخشاب، التي وعدهم بها.

واليوم مساء ستأتي سيارة مع قاطرة، حتى تنقل جذعين من شجر الصنوبر. واحد منهما أصبح في الأسفل، تم قذفه في النهر، وحجز في المكان المقرر له، حيث ستأتي السيارة إليه. والجذع الثاني يتم جره الآن إلى الأسفل. ولو كان بإمكان أرازكول أن يعيد ما أكله وشربه مقابل هذين الجذعين، لفعل ذلك بلا تفكير، حتى يتحرر من التزامه بالعمل والعذاب، اللذين سيعاني منهما الآن، وهو مضطر للتحمل والصبر.

للأسف، لا توجد طريقة لتغيير مصيره الملعون في الجبال: ستكون السيارة مع القاطرة عند المساء في المكان المحدد، حتى تقوم بنقل الجذعين ليلاً.

حسناً، إذا تم كل شيء على خير وسلام. فالطريق يمر عبر السوفخوز، إلى جانب الإدارة مباشرة، ولا يوجد طريق آخر. وفي السوفخوز تراقب الشرطة الأوضاع عن كثب، وقليل من الناس من يأتي إلى هناك من إدارة المنطقة. ولكنهم عندما يشاهدون سيارة تنقل الأخشاب فإنهم يسألون: "من أين جاءت بالأخشاب، وإلى أين تتجه؟".

وعندما يفكر أرازكول بهؤلاء المراقبين، تعم القشعريرة جسده، ويملأ الشر والغضب نفسه، نحو العالم، الذي يحيط به،

كان من كان، ونحو هذه الغربان، التي تنعق كالمجانين فوق رأسه، ونحو الكهل المسكين مأمون، ونحو سيداخمات الكسول، الذي خطر على باله قبل ثلاثة أيام أن يذهب إلى المدينة ليبيع البطاطا، مع أنه كان يعلم أنهم سيسحبون الجذوع من الجبل! هذا يعني أنه تهرب، ولن يعود قبل أن ينهي أعماله في السوق. ولو كان موجوداً هنا لأعطاه أرازكول أمراً أن يقوم مع الكهل مأمون بنقل الجذع إلى المكان اللازم، ولما تعذب وفكر بالأمر هو.

ولكن سيداخمات كان بعيداً، وهذه الغربان بعيدة عن أن يلتقطها. وفي آخر المطاف ليس أمامه، إلا أن يصب غضبه على زوجته، ويصفعها كما يشاء، ولكن البيت ما زال بعيداً. ولم يبق إلا الكهل مأمون، قريب منه وهو يختنق من التعب. وأخذ أرازكول يتأوه أكثر وأكثر من هذه الصعوبات في عمل الجبال، وأخذ يشتم ويسب في كل خطوة. سار أرازكول بصورة فجة وعناد عبر الشجيرات الصغيرة والأشواك، وبلا شفقة ورأفة بالحصان، أو بالكهل الذي يوجه الجذع. فلينفق هذا الحصان، ولينفق هذا الكهل، ولينفق هو بالذات، ويتفجر قلبه! وطالما يعاني هو، فليعاني الكهل الآن أشد معاناة. وليدمر هذا العالم، الذي بني كل شيء فيه ليس كما يجب، وكما يروق له على أقل تقدير. كيف لا، وهو المدير أرازكول بكل صفاته وميزاته، ومسؤولياته الكبيرة!

لم يعد أرازكول يسيطر على أعصابه، وفقد الإرادة، فقاد الحصان عبر الشجيرات الصغيرة، وذلك عبر نزول حاد، وأصبح مأمون يرقص حول الجذع. ودعه يجرب أن لا يمسك الجذع كما يجب "سأقتل هذا الكهل المجنون - وكل شيء هنا"، - قرر أرازكول هذا. وفي وقت آخر لم يتجرأ نهائياً أن يتدخل في موضوع نقل الجذع في مثل

هذا المنحدر الخطر. وهنا تعثر الشيطان بحبائله. ولم يتمكن مأمون من إيقافه، وتمكن من الصراخ فقط: "إلى أين؟ إلى أين؟ توقف!"، وانقلب الجذع على سلسلة الجر، وحطم الشجيرات في طريقه، وانزلق إلى الأسفل. كان الجذع طرياً، وثقيلاً للغاية. حاول مأمون أن يضع عصا الحور حتى يحيل دون سقوطه، ولكنه لم يتمكن، إذ أن الانحدار كان قوياً، وقذف بالعصا من يد الكهل في جهة أخرى.

كل هذا حصل خلال ثانية واحدة. وقع الحصان على جنبه، وجره الجذع إلى أسفل. وبينما هو يسقط أوقع أرازكول أرضاً. أخذ أرازكول يتدحرج ، وهو يتشبث بشجيرة بعد شجيرة. وفي هذه اللحظة فزعت بعض الحيوانات ذات القرون، وهربت بعيداً في عمق الغابة، وراحت تقفز عالياً وبقوة، واختفت في حرش الحور الكثيف.

- إنها غزلان! يا لها من غزلان! - صرخ الجد مأمون من المفاجأة والخوف والفرح بآن واحد. ثم صمت، وكأنه لا يثق بعينيه.

عم الهدوء في الجبال بعد هذه الحادثة. ورحلت الغربان من فوق الغابة دفعة واحدة. وتوقف الجذع على المنحدر، بعد أن حطم شجيرات الحور الشابة. وعانى الحصان من السلاسل، التي جر بها الجذع، ثم وقف على قوائمه بعد تخبط.

أما أرازكول، فقد تمزقت ثيابه، وتخدشت أطرافه، فقد زحف وبصعوبة بعيداً عن الخطر.

أسرع الجد مأمون حتى يساعد صهره، وهو يقول:

- آه، أيتها الأم القدّيسة، أيتها الغزالة، ذات القرون! أنتِ التي أنقذتنا! أرأيتها؟ هؤلاء هم أولادها، لقد عادت أمنا مع أولادها! أرأيتها؟

لم يصدق أرازكول، أن كل شيء قد مر بسلام، فوقف في مكانه، عابساً، وغاضباً وكئيباً، وقال:

- لا تثرثر أيها الكهل. يكفي! هلم وخلص الحصان من حبال أحزمته، وعدته.

امتثل مأمون للأمر على الفور، وأخذ يخلص الحصان من السلاسل والأحزمة. وتابع يكلم نفسه بسعادة:

- آه، أيتها الأم المدهشة! كم يسرنا أن تعودي مع أبنائك إلى غاباتنا. - لم تنسنا الغزالة - الأم، ذات القرون! وقد غفرت لنا إثمنا...

- ماذا بك تثرثر؟ - قال أرازكول ساخطاً، إذ عاد إلى وضع هادئ نسبياً بعد الخوف، الذي ألم به، وعاد الشر القديم إلى روحه، لينبعث ثانية في عالمه، ويملأ روحه، حتى النهاية. - وتروي حكاياتك وخرافاتك؟ ألأنك فقدت عقلك، وتظن أن كل الناس من حولك سيصدقون تلك الترهات، التي ترويها!

- لقد رأيتها بأم عيني. إنها كانت غزلان حقيقية، - لم يستسلم الجد مأمون. - أولم ترها بعينيك، يا بني؟ فأنت حقاً رأيتها بنفسك.

- لقد رأيتها. وكما أعتقد كانت ثلاثة غزلان...

- نعم، ثلاثة، لقد رأيتها هكذا.

- وماذا ترى في هذا، من غرابة؟ الغزلان هي الغزلان. وهنا إنسان بالكاد نجا من خلع رقبته. وما بك تفرح وترقص؟ وإذا كانت غزلان، هذا يعني أنها جاءت من خلف سلسلة الجبال. وهناك، في كازاخستان، على الجهة الأخرى من سلاسل الجبال، توجد محميات طبيعية لتربية الغزلان، وربما هذه الغزلان الثلاثة هي من تلك المحميات. فجاءت من هناك ومرحباً بها. وماذا يهمنا في هذا الأمر. وكازاخستان لا تشغل بالنا.

- وهل من الممكن أن تستقر وتعيش عندنا؟ - أخذ يحلم الجد مأمون. - حبذا لو يبقوا عندنا...

- أرى، أنه، يكفي! - قاطعه أرازكول. - لنذهب.

كان يلزمهما، أن يتعذبا بإنزال الجذع مسافة غير قليلة، وبعد ذلك إرساله عبر النهر بطريقة جذب الجر بقرن الأعمدة إلى بعضها. وهذا عمل شاق أيضاً. وبعد ذلك، وإذا حصل كل شيء كما يجب، وتم جر الجذع عبر النهر، من الضروري جره إلى الربوة حيث ستتم عملية التحميل على السيارة.

- آوه، كم من العمل علينا أن ننفذ!..

شعر أرازكول بأنه إنسان بائس وتعس الحظ. وكل من حوله في وضع ممتاز، وهذا ليس من العدل. فالجبال - لا تشعر بشيء، ولا تتمنى شيئاً، ولا تشتكي من أي شيء، فهي واقفة في مكانها، ولا شأن لها في هذا. وتدخل الغابات في الخريف، ثم في الشتاء، ولا يرون في هذا شيئاً صعباً. وها هي الغربان تنعق، وتحوم في السماء حرة طليقة، وتصرخ ما دامت قادرة على الصراخ. وها هي الغزلان، إذا كانت غزلان فعلية، قد جاءت من خلف سلسلة الجبال، وسوف تتجول وترعى في الغابات، كما ترغب، وأين يطيب لها. وفي المدن يسير الناس بكل حرية وسعادة، فوق طرق معبدة ونظيفة، ويتنقلون من منطقة لأخرى بوساطة سيارات الأجرة، ويتناولون الطعام في مطاعم فاخرة، ويستخدمون أدوات التسلية، ويستمعون إلى الموسيقا، ويرقصون. أما هو فقد خانه القدر في هذه الجبال. يعيش حياة بائسة... وحتى مأمون الكهل هذا، والد زوجته فهو لا يصلح لشيء ما، ورغم كل ذلك، فهو سعيد أكثر منه، فهو على أقل تعديل يحب الحكايات ويصدقها. الناس الأغبياء سعيدون في الحياة بصورة دائمة.

أما أرازكول، فهو لا يحب حياته. فهي لا تتناسب معه. فهذه الحياة لأولئك من أمثال مأمون. وما يلزم أولئك من أمثال مأمون؟ ومهما

طالت حياته، فإن تابوته يعفن ويخرب من يوم ليوم بانتظاره، وهو يعيش بلا استراحة. ولم يكن عنده طيلة حياته إنسان تابع له، أو ينفذ أمراً له، بل هو دائماً تحت أمرة الجميع، بما في ذلك العجوز، التي تعتبر زوجته فلا يقدر على معارضتها، ولو بكلمة واحدة. فهو وكل أمثاله سيكونون سعداء عند سماع الحكايات. فشاهد الغزلان في الغابة - فرح، حتى ذرف الدموع عينيه، وكأنه التقى الإخوة المقربين، الذين بحث عنهم مئة سنة في كل العالم.

إيه، فماذا من الممكن أن يقول الإنسان!..

وها هما يخرجان أخيراً إلى المرحلة الأخيرة، حيث بدأ الطريق المنحدر إلى النهر. فتوقفا للاستراحة.

وخلف النهر، وفي ساحة مركز الحراسة، بالقرب من منزل أرازكول، ارتفع دخان كثيف. وهذا يدل على شيء، وهو أن زوجة أرازكول بدأت تحضر السماوار. ولكن هذه الرؤية لم تجعل أرازكول سعيداً، أو يشعر بأية أريحية كحد أدنى. تنفس فاتحاً فاه حتى النهاية، وتأوه، حتى الهواء لم يكفه. كان صدره يضيق بالهواء، ورأسه يضج بأصداء مختلفة، وارتفعت دقات قلبه، والعرق المتصبب من جبهته، أخذ يحرق عينيه. وأمامهما ما زالت مرحلة صعبة من الهبوط المنحدر جداً. وفي البيت تنتظره زوجة فارغة البطن. ألا يكفي أنها حضرت السماوار، وتنتظر أن تنفذ أية رغبة عنده... وهنا شعر بشعور خاص فيه شيء من الرغبة أن يركض إلى البيت ويضرب بقدمه هذا السماوار ذا البطن الكبير، حتى يطير هذا إلى كل شياطين الدنيا. ثم يهجم على زوجته، ويأخذ بضربها، حتى يدميها، من أنفها وأسنانها حتى الموت. من خلال التفكير شعر بأريحية لهذا، وهو يسمع أنين زوجته، ولعناتها، وشكواها من هذا المصير الملعون،

وفكر: "دعها تبكي وتنزف دماً! فلماذا أعاني أنا من الكثير، أما هي فتعيش سعيدة؟".

وهنا قُطع تفكيره فجأة من قبل الجد مأمون، الذي قال له:

- يلزمني أن أذهب إلى المدرسة بسرعة. يجب أن أحضر الولد، فالدروس قد انتهت.

- وماذا بعد؟ - قال أرازكول بهدوء وكره شديدين.

- لا تغضب، يا بني. دع الجذع في مكانه الآن ولننزل. تناول غدائك في البيت. وأنا في دقائق سأركب الحصان إلى المدرسة، وأحضر الولد. وسنعود بعد الظهر ونكمل عملنا، وننزل الجذع كما يجب.

- وهل فكرت طويلاً، أيها الكهل، حتى توصلت إلى هذا؟ - قال أرازكول ساخراً.

- إن الولد سيتعذب ويبكي إذا تأخرت. - قال مأمون بحزن.

- وماذا في هذا؟ - قال أرازكول غاضباً. وأخيراً قد وجد السبب حتى يلقن الكهل درساً لا ينساه مطلقاً. فطيلة النهار، كان يبحث عن سبب حتى يسب ويشتم، ويفرغ حقده، وها هو مأمون يوفر له هذا السبب. - إنه سيبكي، وعلينا أن نترك العمل، الذي نقوم به؟ ففي الصباح قد أوجعت رأسي - تريد أن تأخذه إلى المدرسة. حسناً، أخذته إلى المدرسة صباحاً، والآن سوف تعيده من المدرسة؟ وأنا ما ذنبي؟ وهل نحن هنا نلعب بالدمى، أو المكعبات؟

- لا تغضب، يا بني، - طلب مأمون بهدوء، - في مثل هذا اليوم! وبالنسبة لي لا بأس، ولا ضير في الأمر. أما بالنسبة للولد سينتظر، وسيبكي، في هذا النهار...

- ماذا تقصد بهذا النهار؟ أي نهار، وماذا يعني هذا النهار؟

- ألا ترى كيف عادت الغزلان. فلماذا في هذا اليوم...

لقد ذهل أرازكول، وحتى بهت، وصمت من شدة الاستغراب. لقد نسي موضوع الغزلان، التي ظهرت لثوان، واختفت على عجل، وهي تقفز قفزات سريعة، بينما كان أرازكول يتدحرج بين الأشواك والشجيرات، وروحه قد جمدت من شدة الرعب. وفي كل دقيقة وثانية كان معرضاً للموت تحت وقع ثقل الجذع، إلا أنه بقي بين الوعي والموت. ولم يكن له وقت حتى يفكر بالغزلان، وليس لديه أية رغبة لأن يسمع ثرثرة هذا الكهل...

- من تحسبني أنت؟ - قال أرازكول بهدوء، وهو يخفي حقد دفين وغضب لا حدود لهما، واقترب من الكهل، وهو يزفر في وجهه بشدة. - للأسف لا توجد لك لحية، ولو كانت لك لحية لجررتك بها كعنزة نافقة. لا تعود ثانية وتحسب الآخرين، أنهم أغبى منك. فلماذا تلزمني أو تهمني غزلانك! وتراني مجنوناً حتى أسخر وقتي للنظر إليها. فأنت لا تحاول أن تخدعني. تعال وقف لتوجيه الجذع. وقبل أن نسحبه إلى المكان المطلوب، وننقله عبر النهر لا تتجرأ أن تلفظ كلمة واحدة، ولا حول أي موضوع: من هناك في المدرسة، ومن يبكي هناك - فهذا لا يهمني مطلقاً. يكفي، فلنسير...

كان مأمون كعادته دائماً، يلجأ للاعتذار. وكان يدرك أنه ليس بإمكانه أن يفلت من قبضة أرازكول، ما دام الجذع لم يصل إلى المكان المطلوب. ولهذا أخذ يعمل بصمت وبهدوء واكتئاب. ولم يعد يلفظ أية كلمة، هذا مع العلم أن روحه كانت تصرخ ألماً وبؤساً. فالحفيد ينتظره إلى جانب المدرسة. وكل الأولاد تفرقوا إلى بيوتهم، أما هو فقد بقي وحيداً، نعم، حفيده شبه اليتيم، ينظر إلى الطريق، ويرقب خائفاً، منتظراً جده.

أخذ الكهل يعمل، وهو يتصور كيف أن الأولاد قد خرجوا مسرعين من المدرسة، وأخذوا طرقهم الأقصر إلى بيوتهم. فقد جاعوا. وقبل أن يصلوا إلى بيوتهم، أخذوا يتحسسون ويشمون رائحة الطعام، الذي قامت الأمهات بتحضيره لهم. وكيف أن أمهات الأولاد ينتظرن قدومهم، وعلى شفاه كل واحدة منهن، كانت صحتها جيدة، أو مريضة، ابتسامة اللقاء مع الابن. فهي ستجد في نفسها القوة والإرادة لبث الحب والسعادة. وحتى لو قالت الأم بلغة صارمة: "آه، ومن سيغسل اليدين، بعد المدرسة؟" - فإن عينيها تخفيان الابتسامة نفسها.

أما بالنسبة لحفيد مأمون، فمنذ اليوم الأول، الذي باشر فيه الذهاب إلى المدرسة، كانت يداه ملطختان دائماً بالحبر. ولقد تعود الجد على هذا، اعتقاداً منه أن الولد يتعلم، وهذا الحبر من آثار العمل. أما الآن فحفيده يقف على قارعة الطريق، ويداه ملطختان بالحبر، وهو يتأبط حقيبته المحبوبة، التي اشتراها الجد له في هذا الصيف. ربما قد تعب من الانتظار، وأخذ يتلفت يمنة ويسرة، يرقب اللحظة، التي يشاهد فيها رأس جده فوق صهوة الحصان، عندما سيصعد فوق الربوة. وسيزداد قلقاً، لأنه يعرف أن جده لا يتأخر مطلقاً، وهو ينتظره عند البوابة، عندما تأتي لحظة خروجه من المدرسة. فكان الأولاد يتفرقون إلى بيوتهم، أما الولد، فكان يهرع إلى جده. "هناك يقف جدي، فلنركض إليه!". - كان يخاطب الولد حقيبته. وعندما كان يصل إلى جده، كان يغمره بكلتا يديه، ويلتصق بجسده، ووجهه إلى بطن جده، وهو يتنفس الرائحة الطبيعية لثياب الكهل العتيقة، التي تشبعت برائحة الحشائش اليابسة من أيام الصيف، هذه الرائحة التي لا تفارقه فترة طويلة بعد جمعها، وهي تشبعه بالغبار المر نسبياً.

كان الجد يرفع الصبي ويجلسه خلفه على عجز الحصان، ثم ينطلقان عدواً في بعض الأحيان، أو مسيراً عادياً للحصان، صامتين تارة، ومتحدثين، عن شيء غير مهم، تارة أخرى، حتى يصلا دون أن يشعرا بطول الطريق. ويكون وصولهما أسرع من جهة الطريق المختصر بين التلال، إذ ينزلان إلى البيت فوراً، إلى فسحة سان - تاش.

إن تعلق الولد الشديد بالمدرسة، كان يثير حنق المرأة العجوز. فهو بمجرد أن يستيقظ، يرتدي ملابسه بسرعة، ويضع كتبه، ودفاتره في الحقيبة. ولقد اشتد حنق العجوز أكثر، عندما أصبح يضع الحقيبة إلى جانبه في الفراش. "ماذا حل بك، حتى التصقت بهذه الحقيبة البائسة؟ لو كان من الممكن أن تكون لك زوجة لأرحتنا من دفع المهر لعروستك...". أما الولد فلم يعر انتباهه لكلام الجدة، وهو لم يفهم ما كانت تقصد من وراء كلامها. والمهم بالنسبة له كان أن لا يتأخر في الذهاب إلى المدرسة، فكان يسرع، ويخرج إلى ساحة المنزل، ويستعجل جده. ولا يطمئن، حتى يرى المدرسة أمامه.

وذات مرة، تأخر الولد عن الحضور إلى المدرسة. ففي الأسبوع الماضي، عند طلوع الفجر الأول، ذهب مأمون راكباً حصانه إلى الجهة الأخرى من النهر. وأراد أن يأخذ نقلة حشائش يابسة باكراً، قبل المدرسة. وكان الأمر تم بسلام، لولا أن حزمة الحشائش تلك قد تملصت من الحبال، وكادت تتبعثر، فاضطر الجد أن يعيد شدها من جديد، وكان من الضروري شد عدة الحصان أيضاً. ونتيجة للسرعة الزائدة انحلت الحبال ثانية، وكادت الحشائش أن تسقط على الأرض، وكان ذلك بالقرب من الضفة. أما الحفيد فقد كان ينتظر على الضفة الأخرى. وقف على صخرة، وأخذ يلوح بالحقيبة إلى الأعلى، وهو يصرخ وينادي. أما الكهل، فأخذ يسرع - تعقد الحبل،

ولا يوجد وقت لحل العقد، فشد حمل الحشائش بالحبل على علاته دون أن يحل العقد، والولد ما زال يصرخ، وفهم الكهل أن الولد يبكي. عند ذلك قذف الحشائش والحبل، وجلس على الحصان - وأخذ يعدو عبر مياه النهر إلى حفيده.

لزم الكهل وقتاً، حتى وصل إلى حفيده: فإنه من الصعب على الحصان أن يعدو، وهو يعبر مياه النهر - فالمياه عميقة نسبياً، والمجرى سريع. في الخريف ليس الأمر خطر للغاية، أما، في الصيف تقذف المياه الحصان بما حمل إلى الهلاك. وعندما وصل مأمون إلى الولد، قاطعاً مياه النهر، مخاطراً بنفسه وبالحصان، كان الولد ينحب بألم وشدة، ولم ينظر إلى جده مطلقاً. وتابع البكاء وهو يقول: "لقد تأخرت، لقد تأخرت عن المدرسة...". انحنى الكهل من فوق الحصان، ورفع الولد وأجلسه فوق السرج، وأخذ يعدو بسرعة. ولو كانت هذه المدرسة قريبة من البيت، لكان الأمر سهلاً وذهب وعاد لوحده. وهنا لم يصمت طيلة الطريق، وتابع البكاء الحاد، ولم يستطع الكهل من أن يهدئه. وهكذا أدخله إلى المدرسة وهو يبكي. وكان الدرس قد ابتدأ، فأخذه إلى صفه مباشرة.

اعتذر الكهل، ثم اعتذر ثانية أمام المعلمة، ووعدها، بأن هذا التأخير لن يتكرر مرة ثانية. وأكثر ما أزعج الكهل مأمون ذلك البكاء الحاد، الذي عانى منه الولد لأنه تأخر عن المدرسة. "أسأل الله، أن تبقى دائماً متعلقاً بالمدرسة على هذا الشكل". - أخذ يفكر الجد. ولكن مهما يكن من أمر، لم يعرف الجد سر بكاء الولد، فلماذا بكى بمرارة؟ ربما توجد في روحه عقدة، ناجمة عن حرمان ذاتي، وهو ما لا يفصح عنه، وتبقى قضية داخلية في عالمه.

والآن، تابع الجد العمل، في دفع وتوجيه الجذع، وأخذ يركض

من جنب إلى جنب، وهو يدفع الجذع إلى الأمام، ثم يمنعه من الانحراف نحو جهة أخرى، وكان يعتمد على عصا الحور، التي كان يستخدمها كعتلة، وحتى ينزلق الجذع للأسفل بصورة أسرع. وظل مأمون يفكر طيلة الوقت: كيف هو حال الولد هناك؟

أما أرازكول فلم يسرع الخطا، وكان يقود الحصان الهوينى، فلا تجوز السرعة هنا - فالانحدار صعب، وشديد، ومتعرج، وفي بعض الأحيان يجب السير بالتفاف كلي. وهل كان من الصعب أن يحترم أرازكول طلب الجد مأمون، أن يترك العمل الآن بإنزال الجذع والعودة بعد الاستراحة لمتابعة العمل؟ إيه، لو كانت القوة موجودة، لحمل الجذع على كتفه، وقطع النهر، وقذف به في ذلك المكان، الذي سينقل منه إلى السيارة! خذوا، هذا الجذع، الذي تطلبونه منا- وكفوا عن الطلب ثانية. وساعتئذٍ كان بإمكان مأمون أن يسرع إلى حفيده.

ولكننا ما زلنا في خضم العمل! يجب الوصول أولاً حتى الضفة، والمعاناة من الحجارة والأشواك والشجيرات الصغيرة وغيرها مما يعيق عملنا، كما علينا أن نقطع النهر بواسطة الحصان، الذي سيجر الجذع. ولقد تعب الحصان جداً، فهو قد قطع مسافة طويلة في الجبل إلى الأسفل، ثم إلى الأعلى والعكس... وعسى أن يتم كل شيء بسلام، وعسى أن لا يعلق الجذع بين الحجارة في وسط النهر، أو يتعثر الحصان ويقع متخبطاً؟

وجاءت اللحظة للدخول إلى الماء واجتياز النهر، فوقف الجد مأمون يصلي: "أرجوك أيتها الغزالة - الأم، ذات القرون أن تساعدينا، حتى لا يعلق الجذع بين الحجارة، وعسى أن لا يقع الحصان!". نزع الجزمة عن رجليه، وقذف بها بعيداً، وشمر عن ساقيه، وعصا الحور في يده، وسار مسرعاً يدفع الجذع ويوجهه من الخلف، وكانوا

يسيرون بانحراف خفيف ضد اتجاه المياه الجارية في النهر. وقد كانت المياه نقية وشفافة، وباردة جداً كعادتها في الخريف.

تصبر الكهل، ولم يعد يعر اهتماماً لما يحدث لرجليه، ولو اصطدمت بالحجارة، وكان همه أن يوجه الجذع، ويتحكم به كما يجب. ولكن القدر قد عاكسه وعانده، وها هو الجذع يرسو بين الحجارة في منطقة شلالات. وفي مثل هذه الحالة من الضروري أن يعطى الحصان برهة استراحة، وتفكير، ثم لسعة بالسوط حتى يجتاز العقدة، ويرفع الجذع. ولكن أرازكول كان يركب على الحصان، ولم يعطه فرصة للاستراحة وتجميع قوته كما يجب، وفعل على العكس، إذ أخذ يضربه باستمرار حتى كلّ متنه من لسعات السوط وركلات كعبي القدمين. وقف الحصان على رجليه الخلفيتين، حتى اصطدم بمؤخرته بالجذع، الذي لم يتحرك من مكانه. تجمدت رجلي الكهل، وأظلمت الدنيا في عينيه، وأخذ رأسه بالدوران بلا نهاية. انكسار حاد، والغابة فوق الانكسار، والغيوم في السماء، - كلها اختلطت مع بعضها، وسقطت في النهر، وأخذت تسبح فوق مياه النهر السريع، ثم عادت كلها، وأخذت تعاكس مجرى المياه. ساء وضع مأمون، يا لهذا الجذع الملعون! لو كان جافاً، وقطع من فترة، لكان الأمر يختلف كثيراً، - فالأشجار اليابسة تسبح فوق المياه بلا عناء، وعليك أن توجهها فقط. أما هذا الجذع فقطع قبل قليل، وأخذنا نجره فوراً، والآن نحاول أن نعبر به النهر. فمن يعمل هكذا! وهذا ما حصل معنا. فلكل عمل سيئ، نهاية هزيلة. ولا يرغب أرازكول أن يترك الجذع حتى يجف: تأتي لجنة الرقابة، وتكتب تقريراً حول قطع الأشجار الثمينة في الغابة المحمية. ولهذا، قمنا بنشره، وعلينا على طرف من السرعة، أن نخفي الجذع عن أعين الرقابة.

أخذ أرازكول يضرب الحصان بالسوط وبكعبي قدميه، وأخذ يضربه بالسوط على رأسه، وهو يسب ويشتم، ويصرخ على الكهل، وكأن مأموناً، قد أخطأ في كل هذا. أما الجذع فلم يتحرك من مكانه، وكان يغرق بين الحجارة أكثر من ذي قبل. وأخيراً نفد صبر الكهل، ولأول مرة في حياته، ورفع صوته غاضباً ومحتجاً:

- انزل عن الحصان! - اقترب بسرعة وشجاعة من أرازكول، وأخذ يشده عن سرج الحصان. - هل أصابك العمى، ولا ترى أن الحصان عاجز عن جر الجذع؟ انزل الآن فوراً!

ذهل أرازكول، وما كان عليه إلا أن ينفذ الأمر. قفز وهو يرتدي الجزمة عن سرج الحصان، ونزل في الماء. ومنذ هذه اللحظة أصبح غبياً، وأصم، وأضاع نفسه. فصاح به الجد مأمون: - هلم! اضغط معي على العتلة! هلم معاً!

وحسب أمر مأمون، أخذا يضغطان بقوة على العتلة، وتمكنا من رفع الجذع من المكان، الذي حشر فيه، وتم تحرير الجذع من الاستعصاء، الذي وقع فيه بين الحجارة.

يا للحصان من حيوان ذكي! وفي هذه اللحظة، التي ارتفع فيها الجذع فوق الماء، شب الحصان، إذ قفز إلى الأمام بقوة، وشدّ الحبال بقوة، وهو ينحرف جانباً، ولكن الجذع قد تحرك من مكانه بصورة ملاحظة، وانزلق ثانية ليعلق مرة أخرى. فشب الحصان مرة أخرى، ولكنه تعثر ووقع في الماء، وأخذ يتخبط، لا يستطيع النهوض. وهنا لم يبق للجد إلا أن دفع أرازكول وأمره:

- ارفع! ارفع! ارفع الحصان معي!

تمكن الاثنان معاً أن ينهضا الحصان على قوائمه المرتجفة في الماء البارد، وبالكاد بقي صامداً في مكانه.

- حل الأحزمة، بسرعة! - صرخ الجد مأمون.

- لماذا؟ - أجاب أرازكول سائلاً بسذاجة.

- قلت لك حل الأحزمة عن الحصان، سوف نخلع العدة. انزع العدة عن الحصان بسرعة.

ومرة أخرى، كان على أرازكول أن يعتذر صامتاً. وعندما تخلص الحصان من الحبال والعدة أخذه مأمون من مقوده، وسحبه من الماء، وهو يقول لأرازكول:

- تعال معي الآن، وسنعود فيما بعد، دع الحصان يستريح قليلاً.

- قف، إلى أين! - سحب أرازكول حبل مقود الحصان من يد الكهل، وكأنه قد استيقظ من غفوته، وعاد من جديد إلى وضعه السابق. - هل تعتقد أنني فقدت عقلي؟ لن تذهب من هنا. سوف ننقل الجذع الآن. ففي المساء سوف يأتون لاستلامه. جهز الحصان، وشد الأحزمة والعدة عليه، وبدون أي حديث، أتسمع!

استدار مأمون صامتاً، وأخذ يتنقل من حجر لحجر، سائراً عبر المخاضة نحو الضفة.

- إلى أين أنت ذاهب؟ إلى أين، أسألك؟

- إلى أين! إلى أين! إلى المدرسة. فالحفيد ينتظرني هناك منذ الظهيرة.

- عد إلى مكانك بسرعة! عد!

لم يصغ، ولم ينفذ ما طلب منه. ترك أرازكول الحصان في النهر، ولحق بالجد عند الضفة فوق تجمع الحصى النهري، فأمسكه من كتفه بشدة، وأداره نحوه.

وهكذا وقفا وجهاً لوجه.

وبحركة سريعة، تناول أرازكول الجزمة الجلدية العتيقة، التي

كان يحملها الجد على كتفه، ويسير حافياً في الماء البارد، وضرب بها رأس ووجه الجد مأمون مرتين بشدة. وتكلم بصوت أبح، وهو يقذف بالجزمة بعيداً في الماء.

ذهب الكهل إلى الجزمة، ورفعها عن الرمل الرطب، وعندما رفع قامته، شعر أن الدم ينزف من شفتيه، حتى امتلأ فمه.

- آه، أيها الوغد! - قال مأمون، وهو يبصق الدم. ووضع جزمته ثانية على كتفه.

هكذا قال مأمون البائس المسكين. وهو لم يقل هذه الكلمات مرة واحدة في حياته. هكذا تكلم الكهل، الذي تجمدت رجلاه في الماء البارد، وهو يحمل جزمته المهترئة على كتفه، وعلى شفتيه تسيل الدماء بغزارة.

- لنذهب! - قال أرازكول، وجر مأمون من كتفه خلفه. ولكن مأمون تخلص منه بقوة، وسار بعيداً عنه صامتاً، مقهوراً، دون أن ينظر إلى الخلف.

- لا بأس، أيها الكهل المجنون، الآن تحمل ما سأفعله بك! فسوف أذكرك بهذا لاحقاً! - صرخ أرازكول في أثر الجد مأمون، وهو يهدده بقبضة يده.

لم يلتفت الكهل. وعندما خرج إلى الطريق بالقرب من "الجمل الجالس"، جلس على الأرض، وانتعل جزمته، ومشى بسرعة إلى البيت دون أن يتوقف في أي مكان. ذهب إلى الإسطبل مباشرة، وأخرج الحصان الأشهب ألاباشا، وهو الحصان المدلل، الذي لا يمسه أحد، عدا أرازكول، فهو يتنقل عليه خلال زياراته، ولم يتجرأ أحد أن يركب عليه حتى لا يسيء إلى طريقة سيره الهادئ. وانطلق مأمون وكأنه على نار حارقة. خرج من البوابة مسرعاً، ومر من جانب

النافذة، وكانت رائحة الدخان من السماوار تملأ ساحة المنزل، والغريب في الأمر أن مأمون قد اعتلى صهوة الجواد بلا سرج، وبلا العدة المعهودة له. استغربت العجوز هذا التصرف من قبل مأمون، وليس له حسب عادته أن يفعل هكذا. فزوجة مأمون، وابنته بيكي والشابة غولجمال أدركوا أنه ثمة شيء ما حصل مع الجد، وخاصة أنه لأول مرة يركب على ألاباشا، ولأول مرة يعدو على حصان بدءاً من ساحة المنزل، وبسرعة فائقة. وأخذت كل واحدة تفكر ما هو العقاب، الذي سينزل على الكهل المستضعف لقاء هذا الموقف المعارض لأرازكول...

ومن جهة المخاضة عاد أرازكول، وهو يسحب الحصان، وعليه العدة. وكان الحصان يعرج على رجله الأمامية. تابعت النسوة بصمت كيف كان يقترب من ساحة المنزل، وهن لم يعرفن بعد ما الذي حدث، وما يخفي في روحه، وماذا حمل لهن في هذا اليوم، وأية مصائب تنتظرهن، وأية مخاوف مقلقة...

كان أرازكول يخطو خطوات ثقيلة، وجزمته مشبعة بالماء، وسرواله مبلل للغاية. وعندما اقترب منهن، نظر نظرة صارمة من تحت حاجبيه. أما زوجته بيكي، هرعت تسأله بقلق:

- ماذا حصل لك، يا أرازكول؟ ماذا بك؟ فأنت مبلل الثياب حتى العظام. فهل سبح جذع الشجرة رغماً عنكم؟

- كلا، - لم يرغب أرازكول بالإجابة. - خذي الحصان، - أعطى المقود للشابة غولجمال. - وأدخليه إلى الإسطبل. - أما هو فتوجه نحو الباب. - لندخل إلى البيت، - قال لزوجته.

أرادت العجوز أن تدخل معهما، ولكن أرازكول منعها من ذلك عند عتبة البيت.

- إلى أين تقتحمين البيت أيتها العجوز. ليس لك عمل هنا. اذهبي إلى بيتك ولا تعودي ثانية.

- ماذا نابك؟! - غضبت العجوز. - لماذا تتصرف هكذا؟ وماذا حل بكهلنا، هل أصابه شيء؟ أخبرني بما حدث؟

- اسأليه شخصياً، فهو يخبرك، - أجاب أرازكول.

قامت بيكي بخلع الثياب المبللة عن زوجها، وأعطته الفروة، وجاءت بالسماوار، وشرعت تصب الشاي في الفناجين.

- لا أريد، - رفض أرازكول بحركة من يده. - أعطني كحولاً.

نهضت الزوجة، وجاءت بزجاجة من عيار نصف ليتر فودكا، فضت سدتها وسكبت في الكأس نصفه.

- املئي الكأس! - أمر أرازكول.

اجترع أرازكول الكأس دفعة واحدة حتى النهاية، ولف جسمه بالفروة، وتمدد على اللباد، ثم قال لزوجته:

- أنت لست بزوجة لي، وأنا لست بزوج لك، اذهبي وشأنك، فأنا لا أريد أن أراك في هذا المنزل ثانية. اذهبي، قبل فوات الأوان.

تنهدت بيكي بعمق، وجلست على السرير، وأخذت تبتلع دموعها على عادتها، وقالت بهدوء: - مرة أخرى، كالعادة؟

- ماذا، مرة أخرى؟ - صرخ أرازكول بشدة. - اغربي عن وجهي!

خرجت بيكي من المنزل على عجل، وكما في كل مرة، أخذت تفرك يديها، وصرخت بصوت قوي، سمعه كل من في المنزل:

- آه! لماذا ولدت في هذه الدنيا! أنا الإنسانة البائسة التعيسة!

في هذه اللحظة كان الكهل مأمون يعدو على الحصان ألاباشا، متجهاً إلى حفيده في المدرسة. وعلى الرغم من سرعة هذا الحصان في

العدو، إلا أن مأمون تأخر لأكثر من ساعتين ونيف. التقى الجد بحفيده سائراً على الطريق مع معلمته، التي أخذته من يده إلى المنزل. تلك المعلمة نفسها، ذات اليدين الجافتين والخشنتين للغاية، صاحبة المعطف العتيق، الذي ما زالت ترتديه منذ أكثر من خمس سنوات. كانت المعلمة تعبة للغاية، وبدت عابسة، وكئيبة. أما الولد، فقد نظر نحوي شزراً، وبدت عيناه قد تورمتا من كثر البكاء، سار إلى جانب المعلمة، وهو يحمل حقيبته بيديه، وكان منظره بائساً، وكئيباً. أخذت المعلمة توبخ الجد لتأخره عن الولد، أما هو فقد وقف أمامها، وهو يلهث من السرعة والقلق، مصغياً، مطأطئ الرأس أمامها بكل احترام.

- لا تأتوا بولدكم إلى المدرسة، - قالت المعلمة، - إذ ليس لديكم الوقت الكافي للقدوم إلى المدرسة وأخذه في الوقت المناسب. لا تعتقدوا أنني سأصطحبه ثانية، فلدي أربعة أطفال صغار.

اعتذر الجد مأمون ثانية، ووعد أنه لن يتأخر عن موعد خروج التلاميذ مرة أخرى.

عادت المعلمة إلى جيليساي، وتابع الجد وحفيده طريقهما إلى البيت.

صمت الولد، وهو يجلس على الحصان أمام الجد. ولم يعرف الجد ماذا يقول له.

- أأنت جائع جداً؟ - سأل الجد.

- كلا، لقد أعطتني المعلمة خبزاً، - أجاب الحفيد.

- ولماذا تلتزم الصمت؟

لم يجب الولد عن سؤال جده نهائياً.

ابتسم مأمون معتذراً:

- يا لك من غاضب عليّ! - نزع القبعة عن رأس الولد، وقبّله على رأسه، وأعاد القبعة لمكانها.

لم يلتفت الولد، ولم يقل شيئاً.

وهكذا تابع الجد وحفيده الطريق، وكلاهما كان مغلوباً على أمره، ويلتزم الصمت. ولم يعط مأمون الحرية للحصان ألاباشا حتى يسرع، وكان دائماً يشد اللجام. لم يرغب الجد أن يتعب الولد بهزه فوق الحصان، كما أن السرعة الآن أصبحت غير ضرورية.

لقد تفهم الحصان منذ البداية، ما هو المطلوب منه، - سار على طريقة الرهوان من الدرجة الوسطى، وكأنه كان يرقص، وهو ينقل قوائمه بطريقة فطرية رائعة، وهو يدق الأرض بحوافره الصلبة على الطريق. يتمنى أي إنسان، ذو أحاسيس جياشة، أن يعتلي صهوة هذا الحصان، وينطلق إلى الطبيعة الخلاقة، ويغني أغانيه القريبة من روحه، وبصوت هادئ ورخيم، حتى يصدح هذا الصوت في الفيافي، لروح الإنسان نفسه. وبالتالي، ليس من المهم عما يغني الإنسان في وحدانيته مع ذاته، فربما سيغني عن الأحلام الناضجة، وعن السنوات الغابرة، وعن ذلك الذي كان آنذاك، عندما كانت الروح منفتحة للحب... ومما يعجب الإنسان ويستهويه، أن يتنفس الصعداء متذكراً تلك الفترة، التي بقي فيها شيء من الأمنيات غير محقق. وماذا، حصراً - فالإنسان نفسه لا يفهم حقيقة الأمر. ولكن، نادراً، ما يرغب أن يفكر بهذا، ويريد أن يشعر بكينونته الذاتية.

يا له من رفيق رائع في الطريق - حصان ممتاز، ومشية متميزة!...

ولقد فكر الكهل مأمون عندما نظر إلى خلفية رأس حفيده، قصيرة الشعر، وإلى رقبته النحيفة، وأذنيه المستنفرتين بحدة، في هذه الحياة البائسة، ولماذا لا تسير أموره في أي مجال بشكل جيد. ومن بين

هذه القضايا الصعبة مصير هذا الولد، الذي ما زال قاصراً عن تدبير شؤون نفسه. وسيكون شيئاً جيداً أن يساعده حتى يقف على رجليه. أما إذا بقي وحيداً، فسيكون الأمر صعباً للغاية بالنسبة له. على أي حال، إن الصبي ما زال صغيراً، وهو يملك طبع خاص، ويجب التعامل معه بحنان ومودة... ولكن أرازكول وأمثاله يكرهونه وسوف يقطعونه لأجزاء كما تقطع الذئاب الغزال بعد مطاردة شرسة.

وهنا تذكر مأمون الغزلان، التي مرت بسرعة من أمامه بسرعة خاطفة، كما حبست في صدره الأنفاس وأثارت الدهشة والمحبة لها، والشعور بالسعادة.

- هل تعلم، يا بني؟ إن الغزلان قد أتت إلينا.- قال الجد مأمون مخاطباً حفيده.

التفت الولد عبر كتفه نحو جده الجالس خلفه على الحصان وسأل:

- حقاً يا جدي؟

- نعم، حقاً. إنني رأيتها بنفسي. ثلاثة غزلان.

- ومن أين جاءت؟

- حسب تصوري، قد جاءت من السلسلة الجبلية خلف الوادي، فهناك توجد محمية غابات يربون فيها الغزلان، والوادي مفتوح من جهتنا، وهكذا أتت إلينا حتى تحل في ضيافتنا.

- وهل ستبقى عندنا؟

- إذا أعجبها الجو والمكان ستبقى. وإذا لم يتعرضوا للأذى. والمرعى عندنا غني لهم، ويكفي لآلاف الغزلان... وفي الأزمنة السابقة، وفي حياة الغزالة - الأم، ذات القرون، كان عددها كثير للغاية، حتى لا يعد ولا يحصى...

وعندها شعر الجد أن الولد بدأ يرتاح، بعد سماع خبر قدوم الغزلان، وأخذ ينسى الحزن، الذي في قلبه. بدأ الجد يحدث الصبي بإسهاب عن الأزمنة البيضاء، وعن الغزالة - الأم، ذات القرون، وحتى الجد نفسه قد انسجم مع هذا الحديث، وأخذ يفكر: كيف من الممكن وببساطة، أن ينتقل الإنسان من حالة الغضب إلى السعادة، وأن يساهم بنقل السعادة للآخرين! حبذا لو عاش الإنسان هكذا دائماً. نعم، هكذا هي الأمور، كما هي الآن، كما في هذه الساعة. ولكن الحياة لم تبنى هكذا - فإلى جانب السعادة توجد منغصات كثيرة ودائماً تهاجم وتحطم الروح الإنسانية. ففي الحياة يسير البؤس مع الإنسان إلى الأبد وبلا تقصير، أو تراجع. وحتى في هذه اللحظات، التي شعر فيها الجد وحفيده بالسعادة، كان الألم يتواجد في روح الكهل إلى جانب السعادة البسيطة: ماذا نظم أرازكول هناك؟ وماذا جهز له؟ أي عقاب سينزله به، لأنه تجرأ على عصيان أوامره؟ فإن أرازكول لن يترك الأمر يمر هكذا ببساطة. ولو تصرف عكس ذلك لما كان أرازكول.

وحتى لا يفكر بالبؤس، الذي ينتظر ابنته، وينتظره هو بالذات، أخذ مأمون يحدث حفيده عن الغزلان، وعن الخير والجمال في طبيعتهم، وعن سرعة هذه الحيوانات الجميلة الفائقة في العدو، وكأنه أراد بهذا الحديث أن يحول دون وقوع الأشياء السيئة.

أما الولد فلقد شعر بالسعادة والراحة. ولم يفكر مطلقاً بما كان من الممكن أن ينتظره في البيت. ولقد أشعت عيناه، وسخنت أذناه. - كيف حصل هذا! حقاً عادت الغزلان؟ هذا يعني، أن كل ما أخبرنا به الجد حقيقي! فالجد يقول، أن الغزالة - الأم، ذات القرون قد غفرت للناس جريمتهم ضدها وسمحت لأولادها أن يعودوا إلى جبال

إسك - كول. وهو يقول أيضاً، أنها أرسلت ثلاثة غزلان من أولادها حتى يستطلعوا، كيف تجري الأمور هنا، وإذا أعجبتهم، فإن جميع الغزلان ستعود من جديد إلى الوطن.

- ربما إن الأم، - قاطع الولد جده. - قد جاءت بنفسها، لترى كيف الأمر عندنا هنا، وبعد ذلك ستدعو أولادها، أليس كذلك؟

- ربما، - قال مأمون متوقعاً ذلك. تلعثم بالكلام، وشعر بعدم ارتياح: كأنه ذهب بعيداً بالحديث مع الولد، وربما بالغ في الوصف عن الغزلان، وهل سيتعلق الولد بما حدثه؟ ولكن الجد لم يحاول أن يغير في كلامه مع حفيده. والآن، أصبح الوقت متأخراً. - فمن يعلم، - رفع كتفيه متسائلاً، - ربما، من الممكن، من الممكن، أن الغزالة - الأم، ذات القرون قد جاءت بنفسها. مَنْ يعرف...

- الآن سوف نعلم الحقيقة. لنذهب إلى ذلك المكان، الذي رأيت فيه الغزلان، - قال الولد، - أنا أيضاً أريد أن أراهم.

- ولكنهم لا يبقون في مكان واحد. - أجاب الجد.

- فلنذهب، وسوف نقتفي أثرهم. سوف نسير طويلاً، طويلاً في أثرهم. وسنعود على الفور مجرد أن نراهم ولو للحظة واحدة، بطرف عين واحدة من أعيننا. وساعتئذٍ ستفهم الغزلان أن الناس لن يقتربوا منها، ولن يمسوها بأي أذى.

- يا حفيدي الصغير، - ضحك الجد. - سوف نصل إلى البيت، وستتضح الأمور لاحقاً.

ها هما قد اقتربا من موقع الحراسة عند باب المحمية، عبر الطريق الترابي من خلف البيوت. فالبيت من الخلف - يشبه الرجل، الذي يدير ظهره. ومن جهة البيوت الثلاثة لم تتضح أية حركة تشير

إلى ما يحدث هناك في الداخل لكل منهم. وفي الساحة كان يعم الهدوء والفراغ الكلي. وهنا، ثمة شعور مسبق ضغط على قلب مأمون. فما الذي حصل؟ هل ضرب أرازكول زوجته المسكينة بيكي كالعادة؟ هل شرب حتى فقد عقله؟ ما الذي حصل؟ لماذا يخيم الهدوء، وليس من إنسان واحد في هذه الساعة في الساحة؟ "إذا كان كل شيء على ما يرام، من الضروري أن نذهب ونسحب هذا الجذع الملعون من النهر، - فكر مأمون بطيب خاطر. - أما بخصوص أرازكول فمن الأفضل أن لا أتعامل معه، وعليّ أن أعمل ما يطلب مني، كما سأبصق على الزعامة ومن يحبها. فمن الصعب أن تبرهن للحمار، أنه حمار".

عندما اقترب مأمون من إسطبل الخيل، قال لحفيده، وهو يحاول إخفاء قلقه، وكأنهما جاءا من سفر بعيد:

- انزل. ها قد وصلنا.

وعندما ركض الولد مع حقيبته نحو المنزل، استوقفه الجد مأمون وقال له: - توقف، سنذهب سوية.

ربط الجد الحصان ألاباشا في مكانه في الإسطبل، وأخذ الولد من يده، ودخلا إلى المنزل.

- انظر، - حذر الجد حفيده. - إذا شتمني أو سبني أحد ما هنا، فلا تخف، ولا تستمع إلى ما يقول من أحاديث أو كلام، فهذا لا يخصك، واهتم بدروسك، ومدرستك فقط.

ولكن لم يكن هناك أي شيء. وعندما دخلا إلى البيت، نظرت العجوز إلى مأمون نظرة طويلة فيها كثير من الإدانة، وأطبقت على شفتيها، وتابعت عملها في الخياطة. والجد لم يقل لها شيئاً. وقف

في وسط الغرفة عابساً، متحفزاً، قلقاً، ثم أخذ من على الموقد صحناً كبيراً يحتوي على معكرونة مطبوخة، أخذ ملعقتين وخبز، وجلس مع حفيده ليتناولا طعام الغداء المتأخر.

أخذ الاثنان يأكلان معاً في صمت، أما العجوز فلم تنظر مطلقاً إليهما، وعلى وجهها البني ازدادت التجاعيد عمقاً، وتجمد الغضب على جبينها. أدرك الولد، أن شيئاً ما حصل، وهو شيء سيئ للغاية. أما الكهل والعجوز فقد التزما الصمت.

كان الوضع مخيفاً ومضطرباً بالنسبة للولد، حتى الطعام لم يدخل في بلعومه، حتى الاختناق. ولم يعان سابقاً من مثل هذا الموقف السيئ. وعندما يصمت الناس، ويفكرون بشيء ما يخصهم وفيه سوء وشكوك "ربما نحن، قد أخطأنا؟". - قال الولد للحقيبة صامتاً، بينما كانت الحقيبة على قاعدة النافذة. وهنا شعر الولد، كأن قلبه قد وقع من صدره، وتدحرج على الأرض. بينما اقترب هو من النافذة، مقترباً من الحقيبة، وهمس معها:

- "أنت لا تعرفين ما في الأمر؟ لماذا الجد حانق وحزين؟ بماذا أخطأ؟ ولماذا تأخر اليوم في القدوم إلى المدرسة، وجاء على الحصان ألاباشا بدون سرج؟ إن هذا لم يحصل سابقاً. ربما شاهد الغزلان في الغابة، ولهذا تأخر عن القدوم إليّ؟... وربما لا توجد أية غزلان؟ وعسى أن لا يكون ذلك كذباً؟ وماذا إذا كان كذلك؟ لماذا هو حدثني عن هذا كله؟ زد على ذلك، أن الغزالة - الأم، ذات القرون، سوف تغضب جداً، إذا كان قد خدعنا...".

أنهى الجد مأمون تناول الطعام، وقال على الفور، وبهدوء للولد:

- اذهب إلى الساحة، فلدي عمل، ستساعدني به، وأنا سألحق بك على الفور.

خرج الولد من المنزل، وهنا، عندما أغلق الولد الباب خلفه صرخت العجوز بأعلى صوتها على الجد: - إلى أين أنت ذاهب؟

- سأذهب حتى أخرج جذع الشجرة من النهر، حيث علق معنا في النهر بين الحجارة.- أجاب مأمون.

- آه، الآن عدت إلى وعيك! - صرخت العجوز - اذهب، وانظر إلى ابنتك، أخذتها غولجمال إلى بيتها. فمن تلزم بعد الآن، ابنتك العقماء. اذهب إليها، ولتقل لك من هي الآن. لقد طردها ككلبة عابرة. لقد طردها زوجها من البيت.

- وليكن الأمر كذلك، طردها، ليست المرة الأولى التي يطرها فيها. - قال الكهل بمرارة دفينة.

- إيه يا لك من رجل! ومن أنت بالذات؟ فابنتك لا طريق لها، وتفكر الآن بتعليم حفيدك. هل تنتظر من هذا الولد أن يصبح مديراً؟ لو كان الذي تشاجرت من أجله يستحق ذلك لهان الأمر. زد على ذلك، أنك أخذت ألاباشا وانطلقت كالبرق. انظر كم أنت شجاع! اعرف مكانك، ومع من تخلق مشاكل... فهو سيخلع رقبتك كالدجاجة. ومتى أصبحت ترفض طلبات مديرك؟ ومنذ متى أصبحت بطلاً؟ عليك أن تعلم أن ابنتك لن تدخل إلى هذا البيت، ولا تفكر أن تأتي بها إلى هنا! فلن أسمح لها أن تجتاز العتبة...

هرع الولد إلى الساحة كئيباً. وفي البيت اعتلى الصراخ الشديد للعجوز، ثم خرج مأمون من البيت بسرعة وأغلق الباب بشدة. توجه إلى بيت سيداخمات، لكن غولجمال استقبلته عند العتبة قائلة:

- من الأفضل أن لا تتحدث معها الآن، من الأفضل، فيما بعد.

- قالت غولجمال لمأمون. توقف مأمون في مكانه، ولا يعرف ما عليه أن يفعل. ابنتك تبكي، لقد ضربها ضرباً مبرحاً، - همست غولجمال،

- وهي تقول أنهما لن يعيشان معاً نهائياً. إنها تلعنك ... وتقول أنك أنت السبب في هذا كله.

صمت مأمون. فماذا يقول؟ حتى ابنته الآن لم تعد ترغب برؤيته.

- أما أرازكول، فقد جلس في بيته يشرب الكحول، وهو كالوحش المسعور. - همست غولجمال بهدوء.

استغرق مأمون بالتفكير، بينما قالت غولجمال متأسفة:

- لو أن سيداخمات يعود بسرعة، لكان ساعدكما بنقل هذا الجذع، ولما كانت هذه المشكلة.

- وهل المسألة في جذع الشجرة؟ - هزّ مأمون رأسه، آخذاً بالتفكير. وعندما شاهد حفيده إلى جانبه، قال له: - اذهب والعب.

ابتعد الولد جانباً. ذهب إلى الملحق، وأخذ المنظار المخبأ هناك. مسح الغبار الذي علق عليه، وخاطبه بنبرة حزينة: "سيئة هي أمورنا، - ويبدو أننا، أنا والحقيبة قد أخطأنا بحقك. حبذا لو كانت لدينا مدرسة أخرى. لذهبنا أنا والحقيبة معاً إلى هناك، ودرسنا فيها، حيث لا يعلم أحد أين نتعلم. ولكن يؤسفني وضع الجد، فهو الوحيد، الذي سيبحث عنا. أما أنت أيها المنظار، فمع من ستراقب من فوق سطح السفينة البيضاء؟ وهل تعتقد أنه لم يكن بإمكاني أن أتحول إلى سمكة؟ سترى. سوف أسبح إلى السفينة البيضاء...".

اختفى الولد خلف كومة الحشائش اليابسة، وأخذ ينظر من حوله عبر المنظار. نظر برهة بلا سعادة، وفي أوقات أخرى لم يكن يشبع من النظر: فالجبال الشاهقة تقف شامخة، مغطاة بالثلوج الخريفية البيضاء، وفي الأسفل تستطع كرة الشمس ملتهبة حمراء.

وضع الولد المنظار في مكانه، وعندما خرج من الملحق، شاهد، كيف أخرج الجد الحصان من مكانه عبر الساحة بعد أن

وضع عليه العدة اللازمة، وشد الأحزمة كما يجب، وتوجه نحو المخاضة. أراد الولد أن يركض إلى جده، ولكن استوقفه صراخ أرازكول الحاد، عندما خرج من المنزل، وهو يرتدي فروة على الألبسة الداخلية، ووجهه أحمر اللون، وقد بدت عليه انتفاخات غريبة كضرع البقرة الملتهب.

- إيه أنت! - صرخ أرازكول بصوت أجش وهو يخاطب مأمون.

- إلى أين تقود الحصان؟ أعده إلى مكانه. سنعمل على نقل الجذع ومن دون مساعدتك. ولا تتجرأ أن تمسه بيدك. فأنت الآن بلا عمل، وبلا أي اعتبار. فأنا قد سرحتك من العمل هنا من نقطة الحراسة للمحمية. عليك أن ترحل من هنا بسرعة، وحيثما تشاء.

ضحك الجد ساخراً بمرارة، وأعاد الحصان إلى الإسطبل. ولقد أحس مأمون، وبسرعة بالكبر والعجز، وكذلك بضعفه وصغر حجمه. سار وهو يتخبط بنعليه الثقيلين دون أن ينظر إلى جانبيه.

تنهد الولد بحسرة بسبب هذه الإهانة، التي يوجهها أرازكول لجده، وحتى لا يراه أحد كيف كان يبكي، أخذ يركض على ضفة النهر، وكان الضباب ينتشر على الهضاب القريبة. كان الضباب يغيب ويبتعد أحياناً، وأحياناً أخرى يقترب حتى يشعر أنه يغمره من كل الجهات. أخذ الولد يركض والدموع تتدحرج على وجنتيه. وها هي الجلاميد الصخرية: "الدبابة"، و"الذئب"، و"السرج"، و"الجمل الجالس". لم يقل الولد لهم شيئاً - فهذه الصخور لا تفهم شيئاً، وهي في هذا المكان منذ أمد بعيد، وسيبقون كما هم. تلمس الولد سنم "الجمل الجالس" وأخذ يبكي بكاءً مراً. وبعد مدة من البكاء أخذ يعود إلى الهدوء. أخيراً، رفع الولد رأسه، ومسح الدموع عن وجنتيه، وأخذ ينظر، وجمد في مكانه مندهشاً.

في الجهة الأخرى من الضفة، وعلى حافة الماء، وقفت ثلاثة غزلان حقيقية، وحية. كانوا يشربون الماء. ويبدو وكأنهم قد ارتووا من شرب الماء، إلا أن واحداً منهم كان يمتاز عن الاثنين الآخرين بكبر قرونه، قد أحنى رأسه ثانية نحو الماء، ومد رقبته إلى الأمام، لينظر بإمعان إلى ناميات قرونه القصيرة، وكأنه يشاهدها بالمرآة. كان لونه رمادياً مزركشاً، ذا صدر عريض وقوي، وعندما رفع رأسه، بدت شفتاه الجميلتان بلونهما الأبيض، والمكسوتين بشعر أبيض ناعم، وسقطت عدة نقاط من الماء عن فمه، حرك أذناه من تحت القرون القوية فوق رأسه، ونظر برزانة وهدوء إلى الولد.

وكانت بين الغزلان الثلاثة واحدة بيضاء اللون، نظرت إلى الولد بتمعن، وكانت أجملهم وأكثرهم رشاقة، وعلى رأسها قرن جميل عليه فروع رفيعة نسبياً، وأصغر من قرون الغزال الآخر، ولكنه أجمل وأبهى. ولقد كانت حسب الأوصاف، التي تناقلها الناس تشبه الغزالة - الأم، ذات القرون. بينما كانت عيناها واضحة وكبيرة. أما هي فلقد كانت برشاقتها تشبه الفرس الجميلة الرشيقة، والتي تنجب كل سنة مهراً رائعاً. نظرت الغزالة - الأم، ذات القرون إلى الولد باهتمام، وهدوء، وكأنها تتذكر، أين شاهدت هذا الولد، ذا الرأس الكبير، وذا الأذنين الكبيرتين. برقت عيناها بود ومحبة عن مسافة بعيدة نسبياً. ومن أنفها خرج بخار خفيف شفاف. وإلى جانبها، كان يقف غزال فتي، ينظر إلى جهة أخرى، ويأكل أوراق شجيرة خضراء صغيرة، ولم يهتم بأي شيء يدور حوله. بدا بديناً، مليئاً وقوياً، ومرحاً. ترك فجأة حك رأسه بفروع الشجيرة، وأخذ يقفز قفزات جميلة في المكان، متحرشاً بالغزالة - الأم، ذات القرون برأسه، الذي ما زال

خالياً من القرون. بينما لم تهتم الغزالة - الأم، ذات القرون بحركاته، التي تعودت عليها، وتابعت النظر إلى الولد كالسابق.

حبس الولد أنفاسه. خرج بهدوء من خلف الجلمود، وكما في الحلم، مد يديه أمامه، وسار نحو الضفة، إلى حافة المياه. فلم تخف الغزلان منه على الإطلاق، وتابعت النظر إليه من الضفة الأخرى بهدوء.

وبين الولد والغزلان كان يجري النهر بسرعة، وبدت مياهه شفافة للغاية، حتى بان الحصى لماعاً على وجه الأرض، وتناثرت قطرات الماء، والرذاذ الناعم عندما كانت ترتطم المياه بالأحجار الكبيرة. ولو لم يكن هذا النهر هنا، وفرق بين الولد والغزلان كان من الممكن أن يقترب منها ويداعبها. وقفت الغزلان على هضبة سهلة ونظيفة من الحجارة الكبيرة، وخلفها بدت الأشجار عند نهاية الرسوبات النهرية، وخاصة تلك الحصى الناعمة الملساء، ذات الألوان والأحجام والأشكال المختلفة. ولاحت جذوع الأشجار الصنوبرية القوية كجذرٍ أحمرٍ ذي لون خاص. وإلى الأعلى قليلاً كان انكساراً ترابياً حاداً. وفوق المنحدر الطيني كانت تقف أشجار البتولا والصنوبر. وإلى الأعلى، كانت تشكل الأشجار القوية المعمرة غابة كثيفة، وعلى هاماتها كان الثلج يلمع ببريقه الأبيض الخاص، على الصخور المتوزعة في الشعاب العالية.

أغمض الولد عينيه لبرهة، ثم فتحها بهدوء. فرأى اللوحة نفسها، وبدت الغابة والغزلان أمامها أقرب لنظره من ذي قبل، وخاصة الأشجار ذات الأوراق الكثيفة فوق الهضبة السهلة وأمامها الغزلان كما في الحكاية الأبدية.

وهكذا استدارت الغزلان وذهبت في الطريق المغطى بالحصى،

وصعدت تدريجياً إلى الغابة. وفي المقدمة كان يسير الغزال الأكبر، ذو الصدر العريض والقوي، وفي الوسط كان الغزال الفتي، وخلفهما كانت تسير الغزالة - الأم، ذات القرون. وما إن سارت الغزلان بضع خطوات، حتى التفتت الغزالة - الأم ثانية وأخذت تنظر إلى الولد بإمعان ومحبة. استمر الحال هكذا إلى أن دخل ثلاثتهم بين الأشجار الكثيفة، وهم يقفزون فوق الشجيرات الصغيرة، ومن فوقهم بدت الأغصان بأوراقها الحمراء الذهبية في الخريف. وكانت تلك الأوراق الحمراء تتساقط على ظهور الغزلان الناعمة الجميلة.

سارت الغزلان، صاعدة عبر طريق ضيق إلى أعلى الهضبة، ثم ارتقت بعدة قفزات إلى الانكسار، ثم توقفوا. وهنا ظن الولد أن الغزلان تتقصد الوقوف في الأماكن، التي تتمكن من رؤيته منها. مد الغزال الكبير رقبته، وأخذ يحك ظهره بقرونه، فأصدر صوتاً وكأنه ينفخ في بوق: "با - أو! با - و!" وأتى الصوت، وكأنه انزلق فوق الانكسار، إلى فوق النهر وكون صداً جميلاً: "أ - و، أ - و".

وهنا عاد الولد إلى ذاكرته، وأخذ يركض مسرعاً إلى البيت، عبر الطريق، الذي يعرفه جيداً. ركض بكل ما يستطيع من قوة، ودخل إلى المنزل، وفتح الباب بقوة، وصرخ، وهو يلهث من عتبة المنزل:

- يا جدي! يا جدي! جاءت الغزلان، ها هي الغزلان قد جاءت إلى هنا!

نظر الجد مأمون إليه من زاوية المنزل، حيث قبع في همومه حزيناً وكئيباً، ولم يجب بشيء، وكأنه لم يفهم عما يدور الحديث.

- يكفيك صراخاً! - قالت العجوز بجفاء، - جاءت، دعها وشأنها، ليس لدينا الآن رغبة للتفكير بها.

خرج الولد إلى ساحة المنزل. كانت الساحة خالية من أي إنسان. وسقطت شمس الخريف المسائية خلف جبل الحراسة، ثم خلف سلسلة الجبال المجاورة العارية من الأشجار، وانعكس الوهج القرمزي فوق الجبال الخريفية كما في كل خريف، وغرقت الغابة في ظلمة أبدية.

عم البرد، وجاءت رياح ثلجية من الجبال العالية، وأخذ الولد يرتجف من البرد.

6

أصيب الولد بقشعريرة، فلجأ إلى الفراش. ولم يتمكن من الخلود للنوم. وفي الساحة عمت الظلمة. وأخذ يعاني من صداع شديد. ولكنه لم يخبر أحداً عن معاناته، ولم يعرف أحد بحاله. ارتفعت حرارته، ومرض، وهنا كان لا بد من النسيان!

لقد فقد الجد صوابه. ولم يجد مكاناً له يستقر فيه. يخرج من المنزل، ثم يعود، يجلس لدقيقة، ثم ينهض، يتنهد ويتنفس بصعوبة، ويتكلم هامساً مع نفسه. ثم يقف من جديد ويخرج إلى مكان ما. أخذت العجوز تتكلم مع الجد بلهجة غليظة وشريرة، وكانت تلف وتدور في أرجاء الغرفة، أو في الساحة، ثم تعود. وفي ساحة المنزل كانت تصدر بعض الأصوات غير المفهومة، والمتقطعة، وثمة أصوات وقع أقدام ثقيلة ومسرعة. ويعلو صوت مشاجرة، ثم يخفت. وكما يتضح أن أرازكول كان يشتم. وصعد مع الظلمة صوت بكاء...

التزم الولد الصمت والهدوء في فراشه، وكان يضجر ويتألم من هذه الأصوات، ومن وقع الخطا، ومن كل ما يدور حوله في البيت والساحة.

حاول الولد أن يطبق عينيه، وأن يخفف من آلام وحدانيته

وكآبته وآلامه، فتذكر كل ما حدث أمامه اليوم، وكل ما أراد أن يراه. كان يقف على ضفة نهر كبير. والمياه كانت تتدفق بسرعة، حتى كان من الصعب على الإنسان أن ينظر إليها طويلاً، إذ كان يصاب بالدوران مباشرة. ومن الضفة الأخرى كانت تنظر إليه الغزلان. وهذه الغزلان الثلاثة، التي رآها بالأمس قبل المساء. ها هي نفسها تقف أمامه على ضفة النهر الأخرى. وكل شيء كان يتكرر من جديد. وحتى نقاط الماء، التي تساقطت من شفاه الغزال الكبير، عندما رفع رأسه عن الشرب عادت لتتساقط ثانية الآن. وكذلك الغزالة - الأم، ذات القرون نظرت بتمعن إلى الولد بعينين خيرتين متفهمة وضعه. أما عيناها فقد كانتا كبيرتين، سوداوتين رطبتين. واستغرب الولد جداً، كيف أجادت الغزالة - الأم، ذات القرون، أن تتنهد بحزن وأسى كما يفعل جده. وبعد لحظات غادرت الغزلان المكان، عبر الشجيرات الصغيرة. أما الأغصان كانت تهتز من فوقها، وتسقط أوراقها الحمراء على ظهورها الناعمة الجميلة. ثم صعدت إلى أعلى الانكسار، وتوقفت هناك. وبعد ذلك مد الغزال الكبير رقبته ورفع رأسه حتى ارتد للخلف ولامست قرونه ظهره الناعم، ودوى صوته: "با - أو! با - أو!" ابتسم الولد ضمنياً، متذكراً كيف ابتعد صوت الغزال، الذي كان لصداه وقع جميل ورائع. وبعد هذا اختفت الغزلان في الغابة. أما الولد فلم يرغب أن يفارقها، وأخذ يتصور ما كان يحلم برؤيته.

ومن جديد تدفق النهر بغزارة وقوة أمام ناظره، ومثل النهر عريضاً سريعاً هائلاً. وأخذ رأسه بالدوران شيئاً فشيئاً من سرعة جريان مياه النهر. وها هو يتخيل كيف يقفز فوق النهر، ويحلق من فوقه ويحط على الضفة الأخرى، ويقترب بكل هدوء من الغزلان،

التي تابعت وقوفها فوق المنحدر الحاد. فأخذت الغزالة - الأم، ذات القرون، تناديه حتى يقترب منها: - مع من ترغب أن تكون؟

التزم الولد الصمت: كان يشعر بالخجل أن يقول بصراحة لمن يحب أن يتبع، فقال بهدوء:

- أنا وجدي نحبك كثيراً أيتها الغزالة - الأم، ذات القرون، ونحن ننتظرك من زمن بعيد.

- وأنا أعرفك من قبل. وأعرف جدك أيضاً. إنه إنسان طيب، - قالت الغزالة - الأم.

اطمئن الولد، ولكنه، لم يعرف كيف يشكرها. فقال لها:

- حسناً، هل ترغبين أن أتحول إلى سمكة، وأسبح عبر النهر حتى جزيرة إسك - كول وألحق بالسفينة البيضاء؟

إنه يجيد هذا. ولكن الغزالة - الأم، ذات القرون، لم تقل له أي شيء رداً على اقتراحه. أخذ الولد يخلع ملابسه، كما حدث له في الصيف، ثم انغمس بالماء حذراً، وهو يتمسك بغصن من أغصان شجرة الدلب الممتد فوق ضفة النهر، ولكن المياه كانت غير باردة، بل دافئة، كما في الحمام. سبح تحت الماء وعيناه مفتوحتان، بينما أخذت حبات الرمال الذهبية والحصى النقي اللامع يتحرك من حوله مع الماء المتدفق بقوة. أخذ يتنفس بصعوبة، ولكن السيل الدافئ سحبه معه إلى الأمام حسب مجرى النهر.

- ساعديني، أيتها الغزالة - الأم، ساعديني، فأنا أيضاً ابنك، أيتها الغزالة - الأم، ذات القرون! - أخذ يصرخ هو بصوت عال.

هرعت الغزالة - الأم، ذات القرون تركض على حافة النهر في أثره بسرعة. وها هي تقترب منه والرياح تعصف في قرونها، فيصدر صفير خاص، يبعث الطمأنينة في قلبه، وهان الأمر عليه.

أخذ العرق يتصبب منه. وتذكر، أن الجد في مثل هذه الحالات كان يلفه بفروته حتى يشعر بالدفء. تغطى الولد بصورة جيدة. وفي البيت لم يكن أحد يزعجه. ولقد اشتعلت الفتيلة في المصباح، وأخذ نورها يخف ببطء. أراد الولد أن يقف، ويشرب، ولكن أصوات الشجار قد عادت تملأ ساحة المنزل من جديد، وبحدة أكثر من ذي قبل. ثمة إنسان ما أخذ يشتم، والآخر أخذ يبكي بحدة. وثمة أناس آخرون أخذوا يخففون من حدة الموقف، وبعد ذلك اعتلت أصوات قتال حادة، ووقع خطوات شديدة... ثم، وبالقرب من النافذة جاءت أصوات رجلين يتقاتلان، وكان أحدهما يجر الآخر، أحدهما يتأوه، والآخر يشتم، وفتح الباب بشدة. والعجوز كانت تصرخ بأعلى صوتها وتتنفس بصعوبة، حتى تمكنت من أن تدفع بالجد مأمون إلى البيت. ولم يشاهد الولد جده سابقاً مغلوباً على أمره، وخائفاً كما يراه الآن. وبدا كأنه فاقد الوعي، وكانت عيناه تنظران، وكأنه لا يرى شيئاً أمامه. ودفعته العجوز في صدره حتى جلس على الأرض.

- اجلس، اجلس، أيها الكهل المجنون، ولا تتدخل في شيء لا يعنيك. فهل هذه هي المرة الأولى، التي يتشاجران فيها أرازكول وزوجته؟ وإذا أحببت أن يكون كل شيء على ما يرام، اجلس ولا تتدخل. افعل ما أقوله لك. أتسمع؟ وإذا وقفنا ضده سيطردنا من هنا، أنت تفهم، يطردنا من كل المنطقة، وإلى أين سنتجه؟ - قالت العجوز هذه الكلمات وخرجت بسرعة، وأطبقت الباب بشدة.

عم الهدوء في المنزل، ولم تكن أية أصوات عدا صوت شخير الجد، الذي جلس على الدرجة عند الموقد، وهو يشد على رأسه بكلتا يديه. وفجأة وقع الجد على ركبتيه، وهو يستند على يديه، ويئن متألماً، وهو يقول:

- خذني، أرحني من هذه الحياة البائسة! وأرزقها أولاد! لم أعد أستطيع النظر إليها. ارزقها ولداً واحداً، أرجوك يا الله، أرجوك أن تشفع لنا...

بين البكاء والتضرع إلى الله، والتأرجح في المكان، وقف الكهل، وهو يتمسك بأي شيء حتى يقف إلى جانب الجدار. فتح الباب، وخرج من المنزل، ثم أغلق الباب خلفه، وأخذ يبكي بمرارة خلف الباب، وهو يكتم أصوات نحيبه واضعاً يده على فمه.

ساء وضع الولد من جديد، وعادت القشعريرة تعذبه بين الحرارة العالية، والشعور بالبرد القارس وأخذ يرتجف. أراد أن يقف، ويخرج إلى جده، ولكن يديه ورجليه لم تساعده على الوقوف. وامتلأ الرأس بالصداع الشديد. أما الكهل فقد استمر بالبكاء خارج الباب، وفجأة ارتفع صوت أرازكول المتقطع، ولسانه يتلعثم بالكلام ككل السكارى. وكانت الخالة بيكي تبكي، وتبكي وهي ترجوه مع غولجمال والعجوز حتى يغفر للكهل وابنته.

خرج الولد بعيداً عن المنزل ليعود إلى عالمه التصوري الخيالي.

وها هو يقف من جديد على حافة ضفة النهر السريع، وعلى الضفة الأخرى، وفوق المنحدر، كانت تقف الغزلان ذاتها، وعند ذلك أخذ الولد يصلي ويتضرع بخشوع: "أيتها الغزالة - الأم، ذات القرون، احملي فوق قرونك سريراً صغيراً للخالة بيكي! وعسى أن يكون عندها طفلاً"، - أما هو فقد قذف نفسه في الماء، متجهاً إلى الغزالة - الأم، ذات القرون. ولكن الماء لم يهبط، وهو لم يتمكن من الاقتراب من الضفة الأخرى، فكان يراوح في مكانه وهو يركض. ولم تنقطع دعواته للغزالة - الأم، ذات القرون: "احملي لها سريراً على قرنيك! وافعلي كل ما بوسعك حتى لا يبكي جدي، وهدأي العم أرازكول

حتى لا يضرب الخالة بيكي! وابذلي جهدك حتى يلد عند خالتي بيكي طفل يسعدهم. وأنا ساعتئذٍ سأحبهم جميعاً، بمن فيهم العم أرازكول، أرجوك أن تعطيهم طفلاً، واحملي لهم سريراً للطفل على قرنيك!...".

دهش الولد، أن جرساً قد أخذ يُقرع بعيداً، ويرتفع صداه، ويصبح مسموعاً أكثر، وأكثر. ربما هي الغزالة الأم قادمة من الجبال، وهي تحمل السرير المصنوع من الحور الأبيض على قرنيها، وقد علق على مسكته العلوية جرس صغير يزداد قرعاً وإيقاعاً. وهذا يعني أن الغزالة - الأم، ذات القرون تسرع وأصبحت على مسافة قريبة من هنا.

وماذا كل هذا؟ لقد اتحد مع رنين الجرس هدير محرك قادم من بعيد. يدل على مرور شاحنة ثقيلة بالقرب من هنا. ولكن هديرها أخذ يرتفع أكثر وبوضوح كلي. أما الجرس، فقد بدأ يخف رنينه تدريجياً، حتى انقطع كلياً، ولم يعد يسمع في خضم هدير محرك الشاحنة.

سمع الولد كيف كانت الشاحنة تقرقع بحديدها وهي تقترب من ساحة المنزل. هبت الكلاب تنبح على المارة. وشع لدقيقة نور مصباح السيارة فوق النافذة، وانطفأ فجأة. وصمت صوت المحرك، وأغلقت أبواب قمرة السائق. وسمع صوت اثنين يتحدثان فيما بينهما، وهما، كما يبدو ليسا من السكان المحليين، ومر ثلاثة من جانب النافذة، التي يضطجع إلى جانبها الولد.

- وصل سيداخمات، - انطلق صوت غولجمال عالياً، وهي تبشر بوصول زوجها، كما سمع وقع خطاها، كيف كانت تسرع للقاء زوجها. - أما نحن فقد انتظرنا!

- السلام عليكم، - أجابها أناس غير معروفين.

- حسنٌ، كيف هي أحوالكم هنا؟ - سأل سيداخمات.

- لا شيء جديد. نعيش. ولماذا أنت تعود في هذا الوقت المتأخر؟

- قل شيء جيد - وصلت إلى السوفخوز، وأخذت أنتظر - وأنتظر سيارة عابرة، حتى تنقلني إلى جيليسا. وأسعفني الحظ بهؤلاء، الذين قدموا إلينا ليأخذا الخشب، - أخذ يحدث سيداخمات. - وكان الطريق مظلماً في الشعاب. وهو صعب للغاية - أنت تعلمين.

- وأين أرازكول؟ - سأل واحد من القادمين باهتمام.

- في البيت على ما أظن ، - أجابت غولجمال غير متأكدة - لقد مرض قليلاً. فلا تقلقوا. تنامون عندنا، يوجد مكان للجميع.

تحركوا من مكانهم، ولكن، وبعد عدة خطوات، توقفوا، وسلموا على الجد مأمون والعجوز.

وتبين أن الجد والعجوز قد خجلا من القادمين، واستقبلوهم في الساحة بشكل جيد. وعسى أن يستحي أرازكول من الضيوف؟ وعسى أن لا يجر العار على نفسه وعلى الآخرين.

هدأ الولد قليلاً، حتى هان الألم بالنسبة له. وخف الصداع في رأسه. وفكر، أليس من الأفضل له أن ينهض من فراشه، وينظر إلى السيارة، - هل تسير على أربع عجلات، أم على ست عجلات؟ وهل هي جديدة، أم قديمة؟ وأية مقطورة خلفها؟ وذات يوم في هذا الربيع قد جاءت إليهم في جبل الحراسة شاحنة عسكرية - ذات عجلات عالية، وأنف أفطس، وكأن أنفها قد قطع. وسمح العسكري الشاب للولد أن يجلس في السيارة خلف المقود، وكان هذا بالنسبة له شيئاً رائعاً! وذهب هذا العسكري مع أرازكول إلى الغابة، وعلى كتفيه كانت أوسمة عسكرية ذهبية. وماذا هذا؟ لم يكن مثل هذا سابقاً.

- ماذا تعملون هنا، هل تبحثون عن جاسوس؟ - سأل الولد.

ضحك العسكري، وقال:

- نعم، نبحث عن جاسوس.

- لقد جاء إلى عندنا أكثر من واحد، من هؤلاء الجواسيس، - قال الولد بهدوء، وحزن.

قهقه العسكري، وقال:

- ولماذا يلزمك هذا الجاسوس؟

- كان بإمكاني أن أركض خلفه، وألقي القبض عليه.

- آه، يا لك من سريع! ما زلت صغيراً، اكبر أكثر.

وخلال الفترة، التي ذهب فيها العسكري، ذو الكتفيات الذهبية إلى الغابة مع أرازكول تحدث الولد مع السائق عن كل شيء.

- أنا أحب كل السيارات، وكل السائقين، - قال الولد.

- ولماذا كل هذا؟ - اهتم العسكري.

- السيارات - كلها جميلة، قوية وسريعة، وهي تفوح برائحة البنزين. أما السائقون - فهم شباب، وجميعهم أولاد الغزالة - الأم، ذات القرون.

- ماذا؟ ماذا؟ - لم يستوعب العسكري ما قاله الولد. - عن أية أم ذات قرون تتحدث؟

- وهل أنت حقاً لا تعرف هذا؟

- كلا، لم أسمع بهذا الشيء العجيب.

- ومن أنت؟

- أنا من كراغندا، كازاخي. درست في مدرسة عمال المناجم.

- كلا، ابن من أنت؟

- ابن أبي وأمي.

- وهما، من يكونان؟

- أبناء آبائهم وأمهاتهم أيضاً؟

- وهم؟

- اسمع، إذا أردت أن تسأل هكذا، فسيكون هذا بلا نهاية.

- أما أنا فواحد من أبناء الغزالة - الأم، ذات القرون.

- ومن قال لك هذا؟

- جدي.

- إن في الأمر خلل ما، - هز العسكري كتفيه مشككاً في الأمر.

لقد شغل هذا الولد، ذو الرأس الكبير، والأذنين الواسعتين، ابن أبناء الغزالة - الأم، ذات القرون تفكير العسكري. وأصبح حائراً، مرتبكاً في أمره، وعندما اتضح الأمر، أدرك أنه يجهل لمن يعود من حيث السلالة، ومن أين تبدأ سلالته، وحتى لأي جيل يعود من أجيال الآباء السبعة، ولا يعرف حقيقتهم. إنه كان يعرف والده فقط، وجده، وجد أبيه. أما، من كان قبل ذلك؟

- ألم يعلموك أسماء سبعة من الأقرباء الأسبقين بالتسلسل؟

- سأل الولد باستغراب.

- لم يعلموني. وهل من الضروري تعلّم هذا؟ فأنا لا أعلم، ولا بأس عليّ. أعيش على ما يرام.

- الجد يقول، إذا لم يعد يذكر الناس آباءهم، فإن أمورهم قد ساءت إلى أبعد الحدود.

- فمن ساء؟ الناس؟

- نعم.

- ولماذا؟

- الجد يقول، عندما يصبح الأمر كذلك، هذا يعني أن الناس فقدوا الحياء عند فعل الأعمال السيئة، لأن الأولاد، وأولاد الأولاد لن

يتذكروا ذلك. ولم يعد أحد يفعل أعمالاً جيدة، لأن الأمر سيان، والأولاد لن يتذكروا، ولن يعلموا بهذا.

- يا لهذا الجد، الذي عندك! - قال العسكري بإخلاص ودهشة. - إنه جد ممتع. ولكنه يملأ رأسك بأمور أكل الزمان عليها وشرب. وأنت تمتاز بكبر رأسك... ولك أذنان، ما شاء الله، كصحني رادار حساس على الحدود المهمة. فلا تسمع ما يقوله لك: إننا نسير إلى الشيوعية، ونحلق في الفضاء، وهو يعلمك ما هب ودب من السخافات؟ وحبذا لو جاءنا يوماً إلى درس العلوم السياسية، كنا ملأنا رأسه بعلوم عصرية. وها أنت ستكبر، وتدرس - عليك أن تبتعد عنه، فهو إنسان جاهل، وغير مثقف.

- كلا، إنني لن أبتعد عن جدي نهائياً، - أجاب الولد مندهشاً.

- إنه إنسان جيد.

- هكذا تفكر الآن. أما بعد، فستتغير الأمور، وتفهم الحقيقة.

الآن، وهو يستمع لهذه الأصوات، تذكر الولد هذه السيارة الحربية، كما تذكر كيف لم يتمكن آنذاك أن يشرح بالتفصيل للعسكري، لماذا يعتبر السائقين المحليين، أو، وعلى أقل تعديل أولئك الذين يعرفهم، أنهم من أولاد الغزالة - الأم، ذات القرون.

لقد تحدّث الولد حقيقة تفكيره، وفي كلامه لم يكن أي تحريف أو كذب. ففي خريف العام الماضي، كما في الوقت الحاضر، أو في وقت متأخر قليلاً عن هذه الأيام، جاء إلى الجبال أناس من السوفخوزات على سيارات شاحنة، حتى يجمعوا الحشائش اليابسة. ولم يصلوا إلى هنا، بل توجهوا عبر المنعطف إلى الطريق المؤدي إلى وهاد أرشو. ثم صعدوا في الشعاب - إلى الأماكن، التي جمعوا فيها الحشائش في أيام الصيف، حتى يأخذونها في الخريف إلى

السوفخوزات. وعندما سمع الولد هدير محركات السيارات فوق جبل الحراسة، هرع إلى موقع تقاطع الطرق. وفجأة، ولأول مرة، كان يشاهد هذا العدد من السيارات المتتابعة، واحدة بعد الأخرى. قافلة طويلة. ولقد عدها الولد فتبين أنها أكثر من خمس عشرة سيارة.

كان الطقس على وشك التحول لجو آخر، ومن يوم ليوم، كان من المتوقع أن يتساقط الثلج- وعند ذلك- "وداعاً للحشائش اليابسة، حتى العام القادم". وفي هذه المناطق، إذا لم تتمكن من نقل الحشيش اليابس قبل سقوط الثلج، فعليك أن لا تفكر به لاحقاً. وتصبح الطريق عسيرة على الإنسان. ويبدو أنهم انشغلوا في السوفخوزات في أعمال أخرى، وعندما حشرهم الوقت، قرروا أن يرسلوا عدداً كبيراً من السيارات حتى ينقلوا الحشائش اليابسة مرة واحدة. ولكن هذا، لم يحصل هنا!..

أما الولد، فلم يعلم بهذا، وما شأنه في هذا، وهل يخصه؟ وعلى الرغم من ذلك، فقد ركض فرحاً من الجنون ليستقبل كل سيارة، ويركض إلى جانبها، وكأنه يودع أحباباً له فيها. ثم يستقبل سيارة أخرى. وكانت السيارات جميعها جديدة، وقمراتها حمراء اللون، وزجاج واجهتها عريض منحني. وفي غرف القيادة كان يجلس خلف كل مقود سيارة سائق شاب في مقتبل العمر، وكأنه تم انتقائهم على نمط واحد بلا شوارب. وفي قمرات أخرى جلس شابان اثنان. وهما يتعاونان لتحميل الحشيش على السيارة وتثبيته بالحبال، وبدوا للولد من حيث المنظر الخارجي، أنهم يتمتعون بحسن الهيئة، وجمال الوجه، والشجاعة، كما في أفلام السينما.

وعلى وجه العموم لم يخطئ الولد مطلقاً. وهذا ما حصل فعلاً، جميع السيارات القادمة آنذاك قد خضعت لصيانة. وكانت سريعة في

مسيرها. ولقد تجنبوا الهبوط من جبل الحراسة، عبر الطريق الوعر ذي الحصى. وكان المزاج عند جميع السائقين ومرافقيهم جيداً، والطقس ليس بسيئ، زد على ذلك، وجود هذا الولد، الذي يملأ المكان حيوية، وأذناه الكبيرتان تدهش الناظر وكبر رأسه غريب جداً، وكيف كان يركض بسرعة مستقبلاً كل سيارة، وهو يطير فرحاً من السرور الخفي في عالمه. ولم يكن بالإمكان إلا أن يتفاعل معه جميع السائقين ويضحكون له، ويلوحون له بأيديهم، ويهددونه ضاحكين حتى يثيرون فيه الفرح والمشاكسة أكثر وأكثر...

أما الشاحنة الأخيرة فقد توقفت، ونظر السائق من نافذة القمرة، وهو شاب رائع الطلعة، في ثياب عسكرية، يرتدي سترة عسكرية، ولكن بدون كتفيات، وبدون قبعة عسكرية، ويضع على رأسه قبعة عادية. إنه السائق الأساسي.

- السلام عليكم! ماذا تعمل هنا، آ؟ - قال السائق متوددا للولد.

- هكذا، بكل بساطة. - أجاب الولد مع شيء من الخجل.

- هل أنت حفيد الجد مأمون؟

- نعم.

- توقعت هذا. فأنا أيضاً بوغيني. وهنا كل الشباب، الذين معي هم بوغيون. إننا ذاهبون لجمع الحشيش اليابس. وللأسف إن البوغيون المعاصرون لا يعرفون بعضهم بعضاً. لقد تبعثروا... أوصل السلام إلى جدك، وقل له، أنك شاهدت كولوبيك، ابن شوتباي. وقل له أن كولوبيك قد عاد من الجيش، والآن يعمل سائق في السوفخوز. إلى اللقاء، ودمت سالماً! - وعند الوداع أهدى للولد شارة حربية، جميلة جداً، تشبه الوسام.

هدأت السيارة، وكالنمر الأرقط، أقلعت بسرعة، حتى تلحق

برتل السيارات. وهنا اشتدت رغبة الولد أن يسافر مع هذا الشاب اللطيف الشجاع في سترة عسكرية، مع هذا الأخ البوغيني. ولكن الطريق قد خلا من الناس، واضطر هو للعودة إلى البيت. عاد مفتخراً بالحديث مع السائق، وحدث جده عن هذا اللقاء، وكان قد علق الشارة على صدره.

في هذا اليوم، وقبل المساء، جاءت رياح شديدة من صوب جبال سان - تاش، وكانت باردة، لأنها جاءت من السلسلة العالية الملامسة للسماء. وهزت أركان الغابة، مما جعل الأوراق تتفض مستغربة هذا الأمر، وارتفعت عاصفة مشكلة عموداً من الأوراق الجافة والصفراء، وترافق ذلك مع صوت صفير الرياح وحفيف الأشجار، وخلال لحظات ساء وضع الجو، حتى أخذ شيء من الثلج يتساقط فوق أعالي الجبال. وغطى الضباب وجه الأرض، واهتزت الغابات بقوة، وغضبت المياه في النهر واعتلت رغوتها، وتزايد تساقط الثلج.

أسرع الناس، وكل على حسب جهده وطريقته، يأوون المواشي في الحظائر، ويدخلون الأغراض اللازمة للمستودعات أو ملاحق البيوت. وبعد ذلك هدأ الناس، دون أن يخرجوا من بيوتهم خوفاً من هذه العواصف المبكرة.

- لماذا حصل هذا، ولأية أسباب؟ - فكر الجد في هذه العواصف قلقاً ومستغرباً، وأخذ يشعل الموقد ويصغي بانتباه إلى الجهة، التي يأتي منها صفير الرياح، وهو يعرف جيداً أن ساعات بدء الخريف قد اقتربت. وخلف النافذة، قد انتشرت وبسرعة ظلمة الثلج الداكنة.

- اجلس في مكان ما! - قالت العجوز متذمرة، - هل ترى الثلج لأول مرة في حياتك؟ "وما السبب في حدوث هذا؟" - أضافت هي ساخرة منه. - لا يوجد أي سبب غير قدوم الشتاء.

- ولكن، ليس بهذه السرعة، في لحظة واحدة، وفي يوم واحد، بلا مقدمات؟

- ولماذا تعتقد، أنه شيء مستغرب؟ وهل سيسألك أهل القرار في هذا؟ لقد جاء الشتاء وانتهى الأمر.

أخذت الرياح تصفر في قساطل مدخنة الموقد جميعها. دهش الولد في بداية الأمر، ثم شعر بالبرد، وأخذ يساعد جده في شؤون المنزل؛ اشتعل الحطب الجاف في الموقد على عجل، وعم الدفء، وفاحت رائحة دخان أخشاب الصنوبر، ذات الصمغ الخاص، واعتلى دخان الصنوبر. وهدأ الولد بعد أن شعر الدفء.

تناولوا طعام العشاء، ثم ركنوا للنوم على عجل. وفي ساحة المنزل كان يتساقط الثلج مشكلاً دوائر ذات أشكال مختلفة، والرياح ما زالت تزداد سرعة وصفيراً.

"يبدو أن الأمر كان رهيباً في الغابة"، - فكر الولد، وهو يستمع إلى الأصوات خارج النافذة. فقلق، وكاد يخرج عن طوره. وعندها جاءت أصوات مبهمة، وصراخ غير مفهوم، فثمة شخص كان ينادي شخصاً آخر، وهناك من أجاب على النداء. اعتقد الولد في بداية الأمر، أنه قد خيل إليه ذلك. فمن كان بإمكانه أن يأتي إلى جبل الحراسة في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ وقلق الجد مأمون والعجوز قلقاً شديداً.

- هناك أناس، - قالت العجوز.

- نعم، - أجاب الكهل، وهو غير متأكد. - من أين جاء هؤلاء في هذه الساعة المتأخرة؟ - وأخذ يرتدي ثيابه بسرعة. وأسرعت العجوز تضيء المصباح. أما الولد فقد خاف جداً من شيء ما خفي، ولبس ثيابه بسرعة. وفي هذا الوقت اقترب الناس من البيت. كانت الأصوات

كثيرة ومتنوعة، وكذلك وقع خطا كثيرة. أخذ الثلج يعطي أصواتاً مختلفة تتناسب مع نوع النعال، التي يسيرون عليها، وبان ذلك واضحاً على ساحة المنزل. ثم طرقوا على الباب عدة طرقات.

- افتح أيها العم، افتحوا الباب! إننا نتجمد من البرد!

- من أنتم؟

- من أقاربكم.

فتح مأمون الباب. ودخل إلى البيت مع الرياح القارسة، ومع ذرات الثلج شباب تكدس الثلج على ثيابهم. لقد كانوا أولئك الشباب السائقون، الذين جاؤوا عند الظهيرة إلى غابة أرشا بهدف الحصول على الحشائش اليابسة. فالولد عرفهم فوراً. وخاصة كولوبيك في سترته العسكرية، والذي أهداه شارة عسكرية. بينما كان اثنان منهم يسندان شاباً يئن، وبالكاد يستطيع الوقوف على رجليه. وهكذا عم المنزل الكلام، والتهنئة بالسلامة.

- يا ستر الله! ماذا حل بكم؟ - قال الجد مأمون وزوجته العجوز.

- سنحدثك فيما بعد! الآن ننتظر قدوم شباب كانوا معنا، وهم سبعة أشخاص. عسى ألا يحدث معهم شيء سيئ، أو يتيهون في الطريق. - قال كولوبيك وهو يجلس الشاب، الذي عطبت رجله في الطريق، وقدم له الكرسي، حتى يجلس بالقرب من الموقد.

- أين هم رفاقكم؟ - قال الجد مأمون مسرعاً. - أنا الآن، سوف أحضرهم بسرعة، وأنت اذهب بسرعة، قال هو للولد. - وقل لسيداخمات، حتى يسرع بالقدوم مع المصباح الكهربائي.

خرج الولد من البيت، وشرق الهواء البارد. وهو سيتذكر هذه اللحظة الخطرة حتى آخر حياته. وكأنه أصيب في لحظة واحدة بمارد

أشعث، ذي صفير حاد ورهيب، أمسكه من حنجرته، وأخذ يهزه ويعذب روحه. ولكنه لم يخف مطلقاً، وتخلص من الأيادي القوية، وهو يحمي رأسه بيديه، وركض إلى البيت، الذي يعيش فيه سيداخمات، والمسافة كانت لا تزيد عن عشرين أو ثلاثين خطوة. وبدا الأمر له، وكأنه ركض مسافة طويلة، عبر العاصفة، كالقائد لمساعدة محاربيه، وامتلأ قلبه بحب التضحية والتصميم. ورأى في نفسه شجاعاً ومقداماً، وأنه سيحقق النصر؛ وخلال هذه الخطوات لبيت سيداخمات تمكن من القيام بتضحيات بطولية ملأت روحه إقداماً. قفز عبر حفرة سحيقة من جبل لجبل وأخذ يقطع أوصال العدو بسيف بتار. وأنقذ المحترقين في النار، والغارقين في النهر، وأخذ يقتحم مواقع الأعداء على طائرات نفاثة هجومية، ومن فوق الطائرات كانت الرايات الحمراء ترفرف عالياً، وهو يلاحق عملاقاً رهيباً، هارباً منه عبر الشعاب والصخور. وكانت قذائف الطائرة الهجومية تلاحق الشبح الرهيب بغزارة. أطلق الولد النار عليه من الرشاش طلقات كثيفة وهو يصرخ به: "سأقتل الفاشيين!" وفي كل مكان كان يقتحمه بشجاعة، كانت الغزالة - الأم، ذات القرون موجودة، تصلّي من أجله، بل كانت تفتخر به وبشجاعته. وعندما وصل الولد إلى باب سيداخمات قالت له الغزالة - الأم، ذات القرون: "أما الآن عليك أن تنقذ أبنائي، السائقين الشباب!" - "إنني سأنقذهم، أيتها الغزالة - الأم، ذات القرون، أقسم لك!" - قال الولد بصوت عال، وأخذ يطرق باب بيت سيداخمات.

- أسرع يا عم سيداخمات، فلنذهب لننقذ رفاقنا! - ولقد لفظ هذه الكلمات بحدة خطابية حتى تفاجئ كل من سيداخمات وغولجمال، وحل بهما الخوف، حتى الهلع الرهيب.

- ومن علينا أن ننقذ؟ ماذا حدث؟

- الجد قال عليك أن تأتي بسرعة مع المصباح الكهربائي، سائقون من السوفخوز قد تاهوا الطريق.

- يا لك من مجنون! شتمه سيداخمات. - كان عليك أن تقول هذا في البداية. - وأخذ يعد نفسه للخروج معه.

ولكن هذه الشتيمة لم تزعج الولد. فمن أين لسيداخمات أن يعلم بالتضحيات، التي قام الولد بها حتى وصل إلى بيته، وأي قسم قطعه على نفسه. ولم يرتبك الولد أو يحتار عندما علم أن الجد مأمون وسيداخمات قد قابلا سبعة سائقين عند نقطة الحراسة، وأنهما قاما بإحضارهم إلى البيت. ألم يكن من الممكن أن يحصل عكس ذلك! فالمصيبة سهلة، عندما تقع بعيداً عنا... وعلى كل حال فقد تم العثور على المفقودين. وجاء بهم سيداخمات إلى بيته. حتى أرازكول سمح لخمسة من السائقين أن يناموا في بيته - فقد اضطروا إلى إيقاظه هو أيضاً. وتم استضافة ما تبقى من هؤلاء البشر في بيت الجد مأمون.

أما العواصف في الجبال لم تهدأ. خرج الولد إلى الشرفة يستطلع الأمر، وبعد دقيقة واحدة، لم يعد يدرك، أين اليمين، وأين اليسار، أين الأعلى، وأين الأسفل. أخذه الدوران في دوامة هذه الليلة، ذات العواصف الثلجية، والتي تكدس فيها الثلج حتى الركبة.

وفقط الآن، عندما تم إنقاذ جميع سائقي السوفخوز ومرافقيهم، وعندما شعر الجميع بالدفء، وتجنبوا المخاطر والبرد، والضياع، أخذ الجد مأمون يحدثهم بحذر عما حصل معهم، رغم أن كل شيء كان واضحاً، وأن سوء الطقس، والاختلال في الطبيعة، هو السبب الرئيس في كل هذا. كان الشباب يتحدثون، أما الكهل والعجوز فقد كانا يستمعان ويتأوهان.

- أوي - أوي - أوي! - استغرب الاثنان ما حدث للسائقين، وشكرا الله، وهما يضعان أيديهما على صدرهما.

- لو ارتديتم أيها الشباب ثياباً أسمك من هذه التي على أجسادكم، - انتقدتهم العجوز، وهي تسكب الشاي الساخن. - وهل من الممكن التوجه نحو الجبال في مثل هذه الألبسة الرقيقة؟ يا لكم من أولاد، حقاً إنكم أولاد!... تحاولون أن تتصرفوا، وتجملوا أنفسكم كسكان المدن، حتى تبدون نحفاء. ولو كتب لكم أن تضيعوا في الجبال حتى الصباح، لكنتم قد تجمدتم، والحمد لله أن كل شيء تم على خير، وأنقذتم.

- من كان يعرف، أنه سيحدث ما حدث؟ - أجاب كولوبيك على كلام العجوز. - ولماذا علينا أن نرتدي الألبسة الدافئة؟ وخاصة أن هذه السيارات تبثنا بالدفء من داخلها. ونجلس فيها، وكأنك تجلس في البيت. وتحرك المقود كما ترغب. وفي الطائرة - تطير المركبة على ارتفاع شاهق فوق الجبال، والأمر بالنسبة لها سيان، وحتى لو كانت درجة الحرارة خارج الطائرة جليد - أربعين درجة تحت الصفر، أما الركاب وطاقم الطائرة يجلسون ويسيرون في قمصان نصف كم...

جلس الولد على جلد الخروف بين السائقين. واستقر إلى جانب كولوبيك، وأخذ يستمع بانتباه لأية كلمة تقال من قبل كبار السن. ولم يعتقد أحد من الحاضرين أنه كان سعيداً لحدوث هذه العواصف الثلجية، التي أجبرت هؤلاء البشر أن يبحثوا عن مكان يلتجئون إليه هنا في نقطة الحراسة في الجبل. ولقد تمنى في قرارة نفسه أن تستمر العواصف عدة أيام، - وعلى أقل تعديل لثلاثة أيام فقط، وليبقى هؤلاء البشر عندهم فترة أطول. فبوجودهم تحسن الوضع في البيت! ومن

الممتع، أن الجد كان يعرف أكثر من أي شخص فيهم، وربما أكثر من آبائهم وأمهاتهم.

- وهكذا، - تكلم الجد قليلاً، ولكن برزانة وافتخار مخاطباً حفيده، - رأيت يا بني إخوتك البوغيين. وستعلم الآن، من هؤلاء الأشخاص بالنسبة لك. انظر إليهم! آه، يا لهم من شباب طويلي القامة. إنهم فرسان حقيقيون! فليعطي الله لكم الصحة! وأذكر، في عام ألف وتسعمئة واثنين وأربعين تم نقلنا إلى مدينة مغنيتاغورسك لنساهم في مشروع بناء...

أما الجد فقد بدأ يحدِّث قصة معروفة للولد جيداً، كيف ساهم عمل القوات المسلحة في تنظيم مساكن الأعداد الهائلة القادمة من مختلف أنحاء البلاد. وذلك عبر صف طويل، وتبين، أن القرغيز، جميعهم في نهاية الصف، وأغلبهم من قصيري القامة، وهكذا، هيؤوا لهم قائمة تلاوة الأسماء، وبعد ذلك استراحة للتدخين. ثم اقترب منهم شاب طويل القامة، أشقر الوجه والشعر، عريض المنكبين. وقال بصوت عال:

- من أين أنتم؟ هل أنتم من المانشو؟

من بين هؤلاء كان معلمون قدماء فأجاب أحدهم:

- نحن قرغيزيون. وعندما حاربنا مع المانشو، ليس بعيداً من هنا، فمدينة مغنيتاغورسك لم تكن موجودة بعد في ذاكرة أحد من الناس. أما من حيث القامة فلقد كنا طوال القامة مثلك، وقريباً ستنتهي الحرب، وسترتفع قاماتنا، ونزيد طولاً...

تذكّر الجد تلك الحادثة، التي حصلت منذ أمد بعيد. ضحك سعيداً، ونظر مرة أخرى إلى وجوه ضيوف الليل.

- كان ذلك المعلم على حق. ففي المدينة، عندما يكون لي عمل هناك، أو أسافر من خلالها، أنظر إلى الناس من حولي فأجدهم جميلي الوجه، طويلي القامة، وذوي طلعة بهية. ليس كما في الأزمان الغابرة...

ضحك الشباب، متفهمين كلام الجد وقال أحدهم: إن الكهل يحب المزح، وتلطيف الجو.

- نحن من طوال القامة، - قال واحد من الشباب. - وها نحن تركنا السيارة في الحفرة. فكم كان عددنا كبير، ولكن القوة لا تكفي...

- لا بأس في الأمر! فالسيارة محملة بالحشائش، وفي مثل هذه العواصف كل شيء محتم، - حاول الجد مأمون أن يطمئنهم. - وعسى الله أن يخفف الرياح غداً، وسيكون كل شيء على ما يرام.

تحدّث الشباب للجد، كيف وصلوا إلى مكان وجود الحشائش في المنطقة العليا أرتشي. وهناك كانت ثلاثة أكداس كبيرة من الحشائش الجبلية. وبدؤوا بالتحميل فوراً من الأكداس الثلاثة. ولقد حملت الشاحنات حتى أصبحت أعلى من البيوت، ولم يتمكن الشباب من النزول من أعلى الشاحنات إلا بوجود الوهق. وهكذا حمّلوا الشاحنة بعد الأخرى، ولم يعد أعلى القمرة واضح للعيان، وبان من القمرة واجهة الزجاج، ونوافذ التهوية، والغطاء والإطارات فقط.

لقد أردنا طالما قدمنا إلى هنا أن نحمل كل ما يمكننا حمله من الحشائش، حتى لا نعود مرة أخرى. وكنا نعرف أنه في حال بقي شيء من الحشائش سوف يبقى للسنة القادمة. وعملنا بنشاط وحيوية، وعندما تجهز حمولة كل سيارة، يقوم صاحبها بإبعادها عن ساحة الحركة، وتصف الأخرى عند الكدس ويقوم الجميع بتحميلها، حتى

وضعنا أغلب الحشائش، ولم يبق غير كمية قليلة. دخنا سجائرنا، واتفقنا من سيكون في مقدمة الرتل، ومن يتبعه بالتسلسل، وانطلقنا سوية رتلاً واحداً. ولقد اتفقنا على أن نسافر بحذر، وانحدرنا من الجبل بهدوء، وبسرعة دنيا كزحف الطفل الصغير. أما حمل الحشائش اليابسة ليس ثقيلاً، ولكنه غير مريح من حيث الحجم، وخطر للغاية في الأماكن الضيقة، وفي الطرق، كثيرة الالتواءات.

بثقة وهدوء، دون أن يفكروا ماذا ينتظرهم في الطريق.

انحدروا الهوينى من سفح جبل أرتشي، وأخذوا يجتازون الشعاب والالتواءات، وعند الخروج من الوادي، قبل المساء بقليل، استقبلتهم العاصفة الثلجية، وأخذ الثلج يتساقط.

- لقد ابتدأ الثلج كثيفاً حتى تبللت ظهورنا بسرعة، - أخذ يحدث كولوبيك. - وعمت الظلمة بسرعة. وكانت الريح قوية للغاية، حتى بدا، وكأنها ستقتلع المقود من يدي السائقين. ونخاف أن يقلب الحمل عن السيارة لخفة وزنه وارتفاعه عالياً. زد على ذلك، أن الطريق كان عسيراً، حتى يخاف الإنسان أن يسير عليه عند الظهر...

استمع الولد للحديث، وهو يكتم أنفاسه كلياً، وهو قابع في مكانه بلا حراك، دون أن يزيح نظره عن كولوبيك. كل هذه الرياح، وكل هذا الثلج، وكل ما يجري الحديث عنه كان خلف نوافذ السيارات. وحتى لم يخلعوا جزماتهم الجلدية، واصطفوا الواحد جنب الآخر على الأرض، وخاصة أن الدفء قد عم البيت، أما الشيء الذي قد عانوا منه هؤلاء، أخذ يجد له انعكاسات في عالم الولد، ذي الرأس الكبير والرقبة الرفيعة، والأذنين الواسعتين.

وبعد عدة دقائق أصبح الطريق غير مرئيّ. وسارت السيارات، كما يمشي فاقدو البصر خلف من يقودهم في الطريق، وسارت

الواحدة بعد الأخرى، وهم يطلقون الزمامير والإشارات، حتى لا يتوه أحدهم، ويسير في طريق واتجاه بعيداً عن القافلة. أما الثلج فقد كان يحجب الرؤية لكثافته، وتكدس فوق المصابيح، وحتى "الكوابح" لم تستطع تنظيف الزجاج الأمامي من كميات الثلج المتساقط. وكان علينا أن نسافر، ونحن نمد رؤوسنا من النوافذ المفتوحة: وهل هذا من الممكن؟ أما الثلج فقد تساقط ويتابع التساقط، بلا حساب... أصبحت العجلات تتزحلق في غير اتجاهها، توقف الرتل أمام صعود حاد. أخذت المحركات تهدر بغرابة بلا جهد - وكل شيء بلا فائدة... خرج السائقون من قمراتهم، وكذلك المعاونون، وهم ينادون بعضهم البعض، ويقفزون من سيارة لأخرى، حتى التئم جمعهم، وأخذوا يتشاورون فيما بينهم، كيف سيتجنبون الخطر؟ وكان من الصعب إشعال موقد من الحطب، لسماكة الثلج على الأرض. وإذا جلسوا في القمرات، كان عليهم أن يحرقوا ما تبقى لديهم من وقود، مع العلم أن الكمية المتبقية لا تكفيهم للوصول إلى السوفخوز. وإذا لم يشتغل المحرك - تتجمد القمرات، ويهلك السائقون. قلق الشباب. وكل السيارات القوية، أصبحت عاجزة. فما العمل؟ واقترح واحد من المجموعة، أن تفرغ إحدى السيارات من حمولتها، ويتجمع هذا الحشد فيها. ولكن الجميع كان يعرف صعوبة فك الحبال والغطاء، وإنزال الحشائش اليابسة، التي ستحملها الرياح إلى كل أنحاء الغابة: العاصفة ما زالت قوية، وخلال لحظات سوف يتكوم الثلج فوق السيارة وحولها، وسيصعب تحريك العجلات. هلع الشباب، وأخذوا يتجمدون تحت الرياح.

- وفجأة تذكرت، يا عم، - حدث كولوبيك مخاطباً الجد مأمون، - أنني التقيت عندما كنا متجهين إلى هناك، إلى جبل أرتشي

الأخ البوغيني الصغير، - وأشار هو إلى الولد، ومسح بود على رأسه، - وهو يركض على الطريق. وتوقفت أنا... وكيف لا، وسلمت عليه، وتحادثنا. أليس كذلك؟ ولماذا لم تنم بعد؟

ابتسم الولد، محركاً رأسه بالموافقة. ولو علم أحد ما قدر السعادة، التي ملأت قلبه من كلمات كولوبيك، الذي قال عنه، أنه شجاع وجميل وذكي أكثر من أي كان من الأولاد في المنطقة. فحبذا، لو أنه هكذا في واقع الأمر، أو يصبح بهذه الأوصاف.

ولقد مدحه الجد أيضاً، وهو يدخل الحطب إلى الموقد:

- إنه، يتمتع بهذه الصفات حقاً، يحب الاستماع للأحاديث، وها هو يفتح أذنيه على وسعهما!

- وعندما تذكرته في تلك اللحظة العصيبة، وأنا ذهلت لذلك!

- تابع كولوبيك الحديث. - قلت للشباب، بصوت عال، لدرجة الصراخ العالي، لأن الرياح تفوق بصريرها نبرة الكلام، وتطفئ حرارتها. فقلت لهم: "تعالوا، ننطلق الآن، حتى نصل إلى نقطة الحراسة في الجبل. وإذا لم نفعل هذا، سنموت هنا!". - "ولا يجوز أن نترك السيارات هنا". بينما قلت لهم: "تعالوا، نمشي بالسيارات الهوينى، حتى نذلل هذه المسافة الصاعدة، وبعدها سيباشر الانحدار. يلزمنا أن نصل إلى منخفض سان - تاش، - قلت لهم بهدوء، - وهناك سنتابع مشياً على الأقدام حتى نصل إلى حماة الغابة، وهذا ليس ببعيد". استوعب الشباب اقتراحي وقالوا بصوت واحد: "هلم، تولى القيادة". وعندما وافق الجميع... بدأنا من الشاحنة الأولى: "اجلس يا أسمانلي خلف مقود سيارتك!". وجميعنا، أخذنا، وبكل قوتنا ندفع السيارة بأكتافنا إلى الأمام. وهكذا تم دفعها! وبدأ الأمر وكأن كل شيء يسير على ما يرام، ولكننا تعبنا. ولا يجوز أن نسمح للسيارة بالنزول إلى الخلف.

وعندما كنا ندفعها، بان الأمر لنا، وكأننا ندفع الجبل بأكمله. أما أنا فكان عليّ أن أصرخ بكل صوتي: "ادفعوا! ادفعوا! ادفعوا!" - ولكنني لا أسمع نفسي. الرياح، الثلج، لا أرى شيئاً. والسيارة تعوي وتهدر، وتبكي، وتئن، وكأنها كائن حي. تبذل كل ما بطاقتها. ونحن هنا، كأن قلوبنا قد أشرفت على الانفجار، وستطير أجزاء منها في كل الاتجاهات، والدوران يعصف برؤوسنا...

- آي - آي - آي! تحسر الجد مأمون متأسفاً، - لقد عانيتم معاناة كبيرة. حبذا، لو أن الغزالة - الأم، ذات القرون كانت قريبة منكم لساعدتكم، والمهم سلامتكم، فأنتم أولادها وحفظت صحتكم. ولو لم تشفع لكم، لم ندر ماذا كان قد حل بكم... أتسمعني؟ وهي لم تهدأ في الساحة خارج البيت، فهي تدور وتطمئن عن أوضاعكم...

ثقلت أجفان الولد، وأطبقت من النعاس. وكان يجبر نفسه أن لا ينام، ويستمر في سماع الأحاديث، ولكن جفون الولد قد خانته فأطبقت بإحكام. وكان بين الحين والآخر يسمع حديث الجد مع الشاب كولوبيك. وضاع الولد بين الحقيقة والأمور، التي يتصورها خيالياً، حتى تصور نفسه أنه كان مع هؤلاء الشبان، الذين عانوا من هذه العاصفة الثلجية في الجبال. وأمام ناظره كان الطريق المتعرج يصعد إلى الجبال، والثلج يتراكم عليها أبيض، أبيض. والزوابع الثلجية تصفع خديه ببرد قارس، وعيناه تدمعان، وهو يساهم مع الشباب في دفع الشاحنة الكبيرة بارتفاعها العالي، حتى بدت أعلى من البيت وهي محملة بالحشائش اليابسة، وتابعت الشاحنات مسيرها إلى الأعلى بهدوء، وصعوبة. ولقد كانت المحركات تضج وكأنها تتألم، وكان الجو من حول الشاحنات مظلماً قاتماً ومخيفاً. والرياح

تصفر وتلسع الوجوه. فانكمش الولد على نفسه مرتعداً من الخوف أن واحدة من الشاحنات تتدحرج إلى الأسفل وتقضي على الشبان. وهنا، من جهة ما، ظهرت الغزالة - الأم، ذات القرون، فوضعت قرونها القوية على جسم الشاحنة من الخلف، وأخذت تساعد الشبان في دفع الشاحنات إلى الأعلى. "ادفعوا، ادفعوا، ادفعوا" - صرخ الولد. وانطلقت الشاحنة بسرعة وسهولة حتى بلغوا قمة الجبل، ثم اندفعت نحو الأسفل بسهولة، وهكذا سحبوا السيارات الواحدة بعد الأخرى، حتى أنقذوا جميع الشاحنات. وفي كل مرة كانت الغزالة - الأم، ذات القرون تساعدهم في عملهم الشاق، وتسهل أمورهم، دون أن يراها أحد من الشباب. ولم يشعر أحد منهم بأنها إلى جانبهم. أما الولد، كان يراها ويعرف بوجودها. وحقيقة الأمر، كان يرى، كيف كان يعاني الشبان من الضعف والعجز في دفع الشاحنة تلو الأخرى إلى الأعلى. والولد يصرخ: "ادفعوا، ادفعوا، ادفعوا!" وفي كل الأوقات كان يقف هو، إلى جانب صديقه كولوبيك. وفيما بعد قال كولوبيك له: "اجلس خلف المقود". جلس الولد في القمرة. اهتزت السيارة وهدرت. بينما أخذ المقود يلف ويدور في يديه من تلقاء نفسه، وبكل حرية، كما هو الطوق للبرميل، الذي كان يلعب به في السيارة - وهو صغير. شعر الولد بالخجل، إذ كان المقود عنده للعب فقط. وفجأة أخذت السيارة تجنح، وتميل حتى كادت تقع على جنبها. ووقعت مرتطمة بالأرض بشدة، وتكسرت. بكى الولد بمرارة وحدة. وشعر بالخجل الكبير. وكان مخجلاً له أن ينظر في عيني كولوبيك.

- ماذا حل بك؟ قل لي ماذا بك، آ؟ - أيقظه كولوبيك.

فتح الولد عينيه. واطمئن، أن كل هذا كان في الحلم. أما كولوبيك فقد رفع الولد على يديه، وضمه إلى صدره.

- لقد جاءك حلم؟ خفت من الحلم؟ آه منك، وتقول، أنك بطل!

- قبل الولد بشفتين جافتين يعتريهما القشب. تعال معي سأضعك في الفراش، من الضروري أن تنام.

وضع كولوبيك الولد على الأرض، فوق اللبادة، بين السائقين النائمين، واستلقى إلى جانبه، وقربه منه، إلى جانبه وتغطى بالسترة العسكرية.

أيقظ الجد الولد في الصباح الباكر.

- استيقظ، - قال الكهل بهدوء. - ارتدي ملابس دافئة. ستساعدني. انهض.

- خلف النافذة، لاح ضوء الفجر المبكر. وفي البيت كان الجميع نياماً على الأرض.

- خذ، انتعل جزمتك الدافئة. - قال الجد مأمون.

- فاحت من جهة الجد رائحة الحشائش اليابسة. هذا يعني، أنه قدم العلف للخيل. أدخل الولد رجليه في جزمته، وخرج مع جده إلى ساحة المنزل. كان الثلج قد تراكم خلال ساعات الليل. أما الرياح فقد هدأت. ونادراً ما كانت تعصف مبشرة بقدوم الشتاء الحقيقي.

- برد قارس! - ارتعد الولد.

- لا بأس، كأن الجو قد مال للصحو، - همس الكهل بهدوء.

- يا للغرابة! لقد تساقط ثلج كثير من أول مرة، لا خير في الأمر، وفقط عسى أن لا تحصل مأساة...

دخلوا إلى الزريبة، حيث توجد خمس نعاج تعود لمأمون. علق الكهل المصباح على العمود وأشعل الضوء، فنظرت النعاج إلى الزاوية، وأخذت تثغو.

- قف، وأمسك المصباح، - قال الجد للولد، وأعطاه المصباح.

- سنذبح النعجة السوداء. البيت مليء بالضيوف. وعلينا أن نجهز الطعام قبل نهوضهم من النوم. وسيكون اللحم جاهزاً.

أضاء الولد للجد بالمصباح. وكانت الرياح تهب وتصفر من حين لآخر في شقوق الزريبة. وكان الجو بارداً، والظلمة الداكنة تغطي مساحة البيت. وضع الكهل حزمة من الحشائش عند المدخل. وجاء بالنعجة السوداء، وقبل أن يرميها على الأرض، ويربط قوائمها، فكر قليلاً، وجلس القرفصاء.

- ضع المصباح. وأنت اجلس هنا، - قال الكهل للولد.

أخذ الكهل يردد دعوات حفظها عن ظهر قلب، وهو يفتح يديه:

- اقبلي أيتها الأم الأصيلة، أيتها الغزالة - الأم، ذات القرون، أقدم لك هذه الأضحية نعجة سوداء، لقاء إنقاذ أولادنا في ساعة الخطر. ومن أجل الحليب الأبيض، الذي منحتيه لأجدادنا من ضرعك المقدس، ومن أجل القلب الخيّر في صدرك، ومن أجل العيون الغيورة لأمنا. فلا تتركينا في المنخفضات والانكسارات والجبال والوهاد، وفوق الأنهار الهوجاء، وعلى الطرقات الصعبة والمنحدرة والصاعدة والملتوية. ولا تتركينا إلى الأبد على أرضنا، نحن أبناؤك. آمين!

وحسب طريقة الصلوات، رفع يديه ومسح على وجهه بكفيه من الأعلى إلى الأسفل، حتى نهاية ذقنه. وقلّد الولد جدّه في كل حركة. وعند ذلك أوقع الجد النعجة على الأرض، وربط قوائمها. وسحب من الغلاف سكيناً، آسيوياً قديماً.

أما الولد، فوقف باستعداد ينير له بالمصباح.

هدأ الطقس أخيراً. واحد اثنان وها هي الشمس تسطع خائفة من بين الغيوم المتباعدة. ومن حولنا كانت آثار الليلة الماضية العاصفة:

كثبان الثلوج في أوضاع مختلفة، وشجيرات صغيرة قد غطاها الثلج، أو أثقل كاهل فروعها فحط بها على الأرض، كما سقطت الأشجار القديمة. وبدت الغابة، خلف النهر صامتة واجمة بكل هدوء، وكأنها مغلوب على أمرها. أما النهر فقد غادر بعيداً بينما بدت ضفافه مكسوة بثوب الثلج الأبيض. وأخذت المياه تتدفق بصوت هادئ نسبياً.

أما الشمس فقد كانت تغيب خلف الغيوم وتعود لتظهر من جديد، ثم تختفي...

أما بالنسبة للولد فلم يتعكر صفوه، أو يقلق، من أي شيء. وقد أخذ ينسى ما حدث في ليلة البارحة. كما نسي العاصفة الثلجية، والثلج لم يعد يزعجه نهائياً. زد على ذلك، أن الثلج كان ممتعاً رغم المنغصات، التي يسببها أحياناً. وكان يذهب ويعود، ويتحرك بمنة ويسرة، وكان يعرف شيئاً واحداً، أن البيت مملوء بالناس، ولهذا فهو سعيد. وخاصة أن الشباب استراحوا وناموا بشكل جيد، وتحدثوا بصوت عال، وضحكوا، عندما أكلوا وبشهية لحم الغنم المسلوق المجهز خصيصاً لهم.

وحتى هذا الوقت، أصبحت الشمس في أعالي السماء، وأخذت تبث حرارتها وضوءها بقوة شديدة. أما الغيوم فقد تفرقت، وأخذ الجو ينعم بالدفء، بينما أخذ الثلج، الذي سقط في غير أوانه يذوب بسرعة.

حقاً إن الولد أخذ يقلق، عندما توجه السائقون والمعاونون يهيئون أنفسهم للسفر. خرج الجميع إلى ساحة المنزل وودعوا أصحاب نقطة الحراسة، وشكروهم على الاستقبال وعلى الخبز. ولقد ودعهم كل من الجد مأمون وسيداخمات على الخيل وحمل الجد معه كمية من الحطب اليابس، بينما أخذ سيداخمات وعاء كبيراً مغطى بالزنك لتسخين المياه للمحركات المتجمدة.

تحرك الجميع من ساحة المنزل.

- أرجوك يا جدي، أن تسمح لي بالذهاب معكم، - ركض الولد إلى الجد وهو يلهث.

- ألا ترى، أنني أحمل معي خشباً، وسيداخمات يحمل الوعاء، ولا يوجد مكان لك. ولماذا تريد الذهاب إلى هناك؟ ستتعب من المسير في الثلج.

تكدر الولد. وقطب حاجبيه. وعند ذلك تكفل كولوبيك بأخذه معه، إذ قال له وهو يشده من يده:

- لتذهب معنا الآن، وفي العودة سترجع مع جدك.

وهكذا سار الجميع نحو المفرق - واتجهوا إلى هناك، حيث يبتدئ الطريق إلى موقع أرتشي. كان الثلج ما يزال مكدساً على الطرقات، وفي كل مكان. ولم يكن من السهل مرافقة هؤلاء الشبان الأقوياء. فتعب الولد تدريجياً.

- تعال اجلس على ظهري!، - قال له كولوبيك - وحمل الولد بسرعة، ممسكاً إياه من يده، وقذف به بمهارة على ظهره، وحمله، وكأنه متعود على هذا الأمر، وكأنه كان كل يوم يحمله كما حدث الآن.

- إنك قمت بهذه المهمة بمهارة يا كولوبيك، - قال السائق، السائر إلى جانبه.

- إنني معتاد على هذا، فأنا طيلة حياتي، كنت أحمل إخوتي وأخواتي هكذا، - قال كولوبيك متفاخراً بهذا. - فأنا الأكبر في الأسرة، وعددنا كان ستة أشخاص، الأم كانت تعمل في الحقل، والوالد كذلك. أما الآن فقد أصبح لدى إخوتي أولاد. وعندما عدت من الجيش، أعزب، ولم أكن قد بدأت العمل بعد، قالت لي أختي

الصغرى: - "تعال إلينا وستعيش معنا، فأنت تربي الأولاد، وتعتني بهم بشكل جيد"، - "كلا، لا، - أجبتها - يكفيني تربية الغرباء، سوف أبدأ بتربية أولادي، وسوف أحملهم في كل مكان...".

وهكذا سار الجميع، وهم يتحدثون عن مواضيع مختلفة. وشعر الولد براحة وهدوء أنه يركب على ظهر شاب قوي ألا وهو كولوبيك.

"حبذا لو كان عندي أخ، مثل كولوبيك! - أخذ يحلم الولد. - فساعتئذٍ لن أخاف من أي إنسان كان، ولو جرّب أرازكول أن يرفع صوته مرة واحدة على جدي، أو مسّ أي إنسان، لكان سيلتزم الصمت فوراً عندما سينظر إليه كولوبيك شزراً".

كانت السيارات، التي توقفت البارحة تبدو للعيان وكأنها كدس من حشائش يابسة، وبدت تحت الثلج عالية للغاية. وها هي الآن تقف، منذ البارحة على مسافة كيلومترين من المفرق. وقد تغطت السيارات بالثلج كلياً. وظهرت وكأنها أبدية، وقطعة لا تنفصل عن الأرض، ومن الصعب أن يحركها أحد كان من كان من مكانها.

وهكذا أشعلوا النار فوق الثلج. سخنوا المياه في الوعاء، ثم أخذوا يشغلون المحركات بالمناويل اليدوي. وها هو أول محرك يعيش من جديد، فسعل، ثم أخذ يهدر. وبعد ذلك سارت الأمور على ما يرام وبسرعة، حيث، استخدموا طريقة الجر للسيارات، واحدة بعد الأخرى، وعندما تعمل واحدة تساهم في جر أخريات وهكذا، حتى عملت جميع السيارات.

وعندما اشتغلت المحركات كلها، قامت سيارتان بسحب السيارة، التي غرقت في الحفرة. وجميع الشباب الذين كانوا، ساهموا بإخراج السيارة إلى الطريق. حتى الولد، الذي وقف جانباً أخذ يساعد بدعواته، وكان يخاف دائماً من أن يقول أحد ما: "وما قصتك

أنت تعبث بين الأرجل؟ اغرب، من هنا!" ولكن لم يقل أحد هذه الكلمات، ولم يطرده أحد. وربما لأن كولوبيك سمح له أن يأتي معهم ويساعدهم. وهو هنا، أقوى من أي كان، والجميع يحترمونه ويقدرونه.

مرة أخرى ودّع السائقون كل من ساعدهم هنا، وتحركت السيارات، بكل هدوء في البداية، ثم أسرع فأسرع. وامتد رتل السيارات خطاً طويلاً، بين الجبال المغطاة بالثلوج. وهكذا سافر أولاد الغزالة - الأم، ذات القرون، وهم لا يعرفون أن إرادة التصورات البريئة للأطفال، كانت تسير، فاتحة الطريق على مصراعيه بحضور الغزالة - الأم، ذات القرون، التي كانت تقفز قفزات طويلة وعالية جداً إلى الأمام، أمام قافلة الشاحنات. وكانت تحميهم من المصائب والمآسي على امتداد الطريق الصعب، من الانهيارات، والعواصف الثلجية، ومن الضباب، وكثافة تساقط الثلوج وغيرها من المكروهات التي ألمت، وخلال الكثير من القرون بالشعب القرغيزي، وخاصة في حياة التنقل والترحال بحثاً عن الكلأ والماء. وفي الدعوات والصلوات، التي قام بها الجد مأمون متوجهاً للغزالة-الأم، ذات القرون في فجر هذا اليوم، وهو يقدم النعجة السوداء أضحية لها، وهل نسي أن يؤكد لها على هذا؟

لقد سافروا. أما الولد فلقد سافر معهم بروحه وتفكيره. جلس في القمرة مع كولوبيك. "أيها العم كولوبيك، - قال الولد مخاطباً إياه. - في المقدمة أمامنا تركض الغزالة - الأم، ذات القرون". - "عمّ تتكلم؟" - "حقاً، أقول لك. هذه كلمة شرف أقولها لك. إنها في المقدمة. إنها هنا!".

- ما بك تقف؟ وبماذا تفكر؟ - سأله الجد مأمون. وأجبره أن يعود للواقع. - اجلس، خلفي، حان الوقت للعودة إلى البيت. - ثم انحنى

من فوق صهوة الجواد، ورفع الولد إلى السرج. - هل تشعر بالبرد؟ - سأل الجد الولد، وأخذ يغطيه بأطراف الفروة.

☆☆☆

حتى هذا الوقت، لم يحن الوقت، حسب عمره، للذهاب إلى المدرسة.

وها هو الآن، يستيقظ أحياناً، من نومه العميق، ويأخذ بالتفكير قلقاً: "كيف سأذهب إلى المدرسة غداً؟ فأنا مريض الآن، وأشعر بضعف، وسوء وضع..." ثم، نسي الأمر كله. وبدا له الأمر، وكأنه ينقل الكلمات، التي كتبتها المعلمة على السبورة: "آت، أتا، تاكا"*. تعب الولد، وفي عينيه تشكلت دوائر مختلفة، وغمرته موجة حرارة قوية، وتصبب العرق، وقذف الغطاء عنه. وعندما تابع النوم مكشوفاً، اجتاحه البرد الشديد. وها هي التصورات المختلفة تعود إليه ثانية. وكأنه يسبح على شكل سمكة في المياه الباردة، ويتجه بسرعة نحو السفينة البيضاء، وعجز عن متابعة السباحة، أو تعرض لزوبعة ثلجية كثيفة، وأخذ الثلج يتكدس عليه، وغرقت السيارات في الثلج وكان الجو داكناً، وعم الضباب في كل صوب، وأخذت السيارات تخر وتهدر في مكانها، وهي محملة بالحشائش اليابسة على الطريق الملتوي، بين الجبال. كانت السيارات تبكي، كما يبكي بنو البشر، وكلها تغرق في أمكنتها. أما العجلات فأخذت تدور في مكانها مجنونة، حتى أصبحت حامية جداً، وصعد الدخان والشرر من أطرافها، وأخذ الدخان يرتفع كالقرون من تحت القاطرة. هذه هي الغزالة - الأم، ذات القرون، تدفع السيارة بقرونها في الطريق

* أت، أتا، تاكا. كلمات قرغيزية تعني: الحصان، الأب، الحذوة - المترجم.

الصاعد عبر الجبل. أما الولد فقد كان يساعدها. واجتهد بكل ما يستطيع من قوة. لقد كان يتصبب العرق الساخن منه بغزارة. وفجأة تحولت الحشائش اليابسة في السيارة إلى مهد طفولي ناعم مفروش بريش نعام، وقالت الغزالة - الأم، ذات القرون للولد: "لنركض بسرعة، ونأخذ السرير للخالة بيكي، والعم أرازكول" وهكذا انطلق الجميع، فتأخر الولد عنهم. ولكن الآخرين، كانوا يركضون في المقدمة وجرس السرير يرن، ويذهب صوت الرنين بعيداً في الظلام، واستمر يصدح رنين جرس السرير. والولد يركض على وقع صوت الرنين وندائه.

استيقظ الولد، عندما سمع وقع خطا عند شرفة المنزل، ثم صر الباب بشدة. عاد الجد مأمون والعجوز وهما في وضع أهدأ نسبياً. فمجيء الغرباء إلى نقطة الحراسة، قد هون من الخلاف بين أرازكول وبيكي. وخفف من الصدام المباشر بين أرازكول والجد. وربما لأن أرازكول قد تعب جداً من شرب الكحول، وقرر أن ينام بلا حراك لفترة طويلة. وهكذا ساد الهدوء في ساحة المنزل، ولم يعد يسمع للصراخ أي أثر، ولا شتم، ولا مخاصمة.

عند منتصف الليل طلع القمر بكل بهاء، وارتفع عالياً فوق الجبال. وخيّم القمر على قرص دائري من الأرض بضباب داكن فوق هذه البقعة المنتشرة فوق ذرا الجبال الجليدية العالية. وبدا الأمر وكأنَّ الجبل مصفداً بسلاسل جليدية عاتية وأبدية، وهي تلمع بقياسات مختلفة. ومن حولها كان يعم الصمت الكلي للجبل، والصخور، والغابات غير المتحركة، وفي أسفل الجبال، كانت تهدر الأنهار الفرعية، وتصب في مجرى واحد فوق الصخور العملاقة.

وعلى زجاج النافذة كان يأتي ضوء القمر عبر اتجاه مائل.

وعكر هذا الضوء صفو الولد، فأخذ يدمدم متذمراً، وأطبق عينيه. وأراد أن يطلب من العجوز، أن تسحب الستارة على النافذة، ولكنه أحجم عن ذلك .. فقد كانت العجوز غاضبة من الجد.

- يا لك من مجنون! - أخذت تهمس، عندما تمددت للنوم. - فإذا كنت لا تعرف، كيف ستعيش مع الناس، كان عليك أن تلتزم الصمت. وكان عليك أن تستمع إلى ما يقوله الناس لك. فأنت تابع له، وتحت إمرته. والراتب يأتيك عن طريقه، وبغض النظر عن أنه قروش بسيطة، ولكننا نعيش منه، لأنه معاش شهري.. وبدون هذا المعاش - من أنت؟ كهل، ولم تجمع عقلاً طيلة حياتك...

لم يجب الكهل. صمتت العجوز. ولكنها، عاودت لتقول مفاجأة وبصوت عال:

- وإذا حرم الرجل من راتبه، فإنه لا يعود رجلاً، ويصبح لا شيء.

ومرة أخرى لم يجب الكهل بشيء.

أما الولد، فلم يقدر على النوم، فالصداع كان يعذبه، والأفكار قد أزعجته. كان يفكر بالمدرسة. فهو لم يتأخر عن الدروس ولا مرة بعد، ولكنه أخذ يفكر ماذا سيحصل له لو أنه غاب عن الدروس غداً، لأنه لم يقدر ولسبب ما أن يذهب إلى المدرسة في جيليساي. وفكر الولد أيضاً، ماذا سيعمل لو طرد أرازكول جده من العمل، وخاصة أن هذه العجوز لجوجة، وستحرمه من الحياة، والتنفس، فكيف له أن يعمل آنذاك؟

لماذا يعيش الناس هكذا؟ ولماذا يوجد أشرار، وآخرون خيرون؟ ولماذا يوجد أناس سعداء وآخرون بؤساء؟ ولماذا يوجد أناس يخافون من الآخرين، وآخرون لا يخافون من أحد؟ ولماذا عند البعض، يوجد أولاد،

ولا يلد آخرون ولو ولداً واحداً؟ ولماذا بإمكان البعض أن لا يعطوا راتب للآخرين؟ وربما، إن أفضل الناس، هم أولئك الذين يستلمون رواتب عالية. وهذا جدي يستلم قليلاً، والناس يجتهدون في إزعاجه. إيه! كيف العمل حتى يحصل الجد على راتب أكبر! وربما ساعتئذٍ يتغير الوضع، ويصبح أرازكول يحترم الجد.

احتدم الصداع في رأس الولد بعد التفكير بهذه الأمور كلها، وأخذ يزداد مع التفكير بأسئلة أخرى. وها هو يعود ليتذكر الغزلان، التي رآها قبيل المساء عند المخاضة، جانب النهر. وكيف تعيش في الغابات أثناء الليل؟ إنهم يبقون وحدهم في الجبال الباردة بين الصخور، وفي ظلمة الليالي الدامسة في الغابة. إن هذا مخيف ومرعب للغاية. وماذا ستعمل الغزلان البريئة هذه لو هاجمتها الذئاب؟ فمن سيحمل للخالة بيكي آنذاك سريراً سحرياً على قرونه؟

خلد الولد للنوم مبعثراً في الأفكار القلقة، وقبل أن يطبق عينيه محاولاً النوم، تضرع إلى الغزالة - الأم، ذات القرون، أن تجلب للعم أرازكول وللخالة بيكي سريراً من خشب الحور. "فليكن لديهما أولاد، عسى أن يصبح لديها أولاد!" - وشكر الغزالة - الأم، ذات القرون مسبقاً. وهنا سمع صوت رنين جرس المهد المصنوع من خشب الحور قادم من بعيد. وهنا تأكد الولد أن الغزالة - الأم، ذات القرون قد جاءت مسرعة، وهي تعلق فوق قرنيها سريراً سحرياً رائعاً...

7

في الصباح الباكر، استيقظ الولد، إذ أحس بيد تلامس وجهه. كانت يد الجد باردة، فهو عاد لتوه من الخارج. اقشعر جسم الولد دون إرادة.

- نم، ابق في الفراش. - نفخ الجد على يديه، حتى يدفئها قليلاً، ثم تلمس جبهة الولد، ثم وضع كفه على صدره، ثم على بطنه.

- يبدو، أنك مرضت، - قال الجد بحزن. - توجد عندك حرارة. - بينما فكرت أنا، أنك تتمدد كسلاً؟ لقد حان الوقت للذهاب إلى المدرسة.

- أنا، الآن، سأنهض، - رفع الولد رأسه عن الوسادة، ولكن رأسه قد دار دورات سريعة، وبرقت عيناه، وأحسّ بطنين في أذنيه.

- لا تفكر بالنهوض مطلقاً. - ساعد الجد حفيده لينام بصورة أفضل على الوسادة. - فمن سيأخذك إلى المدرسة وأنت مريض؟ افتح فمك، وأريني لسانك!

حاول الولد أن يعاند جده، ويبقى على موقفه:

- المعلمة سوف تغضب. فهي لا تحب نهائياً كل من يتغيب عن الدروس في المدرسة...

- لا، لن تغضب منك. فأنا سأبرهن لها. افتح فمك، وأرني لسانك.

تفحص الجد باهتمام لسان حفيده وحنجرته، وتحسس دقات قلبه: لم يتمكن الجد أن يجد عرق نبض القلب لأن أصابعه قد أصبحت خشنة من العمل القاسي، وبعد محاولات كثيرة تمكنت هذه الأصابع القاسية أن تحس بنبض القلب، بينما كانت يدي الولد ساخنتين ومبللتين بالعرق. أما الكهل، الذي يؤمن بمعتقدات خاصة به، أخذ يتمتم بعض الكلمات قائلاً:

- إن الله رحيم. أنت بردت قليلاً. البرد دخل إلى أحشائك. عليك أن تبقى في فراشك اليوم. وقبل النوم سأقوم بتدليك أسفل قدميك وصدرك بالزيت، فتعرق، وإن شاء الله، ستنهض في الصباح كاليحمور البري.

تذكر ما جرى معه في يوم البارحة، وما ينتظره، فتكدر الكهل مأمون، وهو يجلس إلى جانب سرير حفيده. تنهد متحسراً، وغرق في أفكاره المقلقة، ثم همس متأففاً، وهو يزفر الهواء بشدة، "أفوض أمري إلى الله".

- متى شعرت بالمرض؟ ولماذا التزمت الصمت؟ - خاطب الجد الولد بحنان وود. - هل كان ذلك في المساء؟

- نعم، عند المساء. كان ذلك عندما رأيت الغزلان خلف النهر. فركضت إليك لأخبرك، وبعد ذلك بقليل شعرت بقشعريرة برد قوية.

قال الكهل، وكان صوته يرتجف قليلاً، وكأنه قد أخطأ بحق إنسان آخر:

- لا بأس في الأمر... أنت استرح، وأنا سأذهب.

نهض الجد، ولكن الولد استوقفه:

- أيها الجد، كانت الغزالة - الأم، ذات القرون بذاتها هناك، أليس كذلك؟ تلك، التي يشبه لونها لون الحليب الأبيض، وعيناها كبيرتان - هكذا، تنظر، كما ينظر الإنسان بذكاء...

- يا لك من مجنون! - ابتسم الكهل مأمون بحذر. - فليكن كما تريد، وحسب رغبتك. ربما كانت هي، - قال هو، بصوت خافت، - الغزالة - الأم المقدسة، فمن يعرف؟ أما أنا فأعتقد...

لم ينه الكهل كلامه حتى ظهرت العجوز عند الباب، وقد جاءت مسرعة الخطا من ساحة المنزل. فهي رأت أو سمعت شيئاً ما، تريد الإفصاح، أو الكلام حوله.

- اذهب، أيها الكهل، إلى هناك، - قالت العجوز، وهي تقف عند العتبة. - أما الجد مأمون فقد انكمش على نفسه، وأصبح

شكله يثير الشفقة. - إنهم هناك يريدون سحب الجذع من النهر بواسطة سيارة، - قالت العجوز.- هكذا، اذهب أنت، واعمل كل ما يطلب منك أن تعمله... آه! يا إلهي، ما زال الحليب بدون غلي، لقد نسيت! - قامت العجوز بسرعة، وأخذت تشعل النار، وتقرقع بالأواني على عجل.

عبس الكهل. ورغب في أن يحتج على ما تقول العجوز، ويبدي رأيه، ولكنها لم تدع له فرصة ليفتح فمه.

- ما بك، لماذا توقفت؟ - استغربت العجوز. - ما بك جمدت في مكانك؟ فنحن لسنا على استعداد أن نحزن معك، يا لبؤسي معك! فمن أنت حتى تقارن نفسك مع هؤلاء؟ انظر أي بشر يأتون إلى أرازكول. وأية سيارات رائعة لديهم. ستحمل كل منها عشرة أعمدة، وتقول لك ضع ما عندك، وتذهب بسرعة في الجبال. أما أرازكول فهو لا يريد أن ينظر إلينا. ولقد تعبت، وأهنت نفسي وأنا أرجوه، وكل رجائي بلا فائدة. وهو لم يسمح لابنتك أن تدخل إلى عتبة البيت. وها هي عقماؤك تجلس في بيت سيداخمات. لقد أصيبت عيناها بالعمى من كثرة البكاء. وهي تكيل لك الدعوات السيئة، وتلعنك - تلعن والدها فاقد العقل...

- يكفيكِ، - لم يتحمل الكهل أكثر من ذلك، وخرج إلى ساحة المنزل، وهو يقول: - "أعطي الولد حليباً ساخناً، لقد مرض".

- سأعطيه، سأعطيه حليباً ساخناً، اذهب، اذهب، من أجل الله. - ودعت الكهل وهي تثرثر: - ما الذي جعله يتغير هكذا؟ فهو لم يقف ضد أحد كان، وكان أهون من الماء وأقصر من أية عشبة قاصرة - وها هو يبرز عضلاته! وضد من! زد على ذلك، أخذ حصان أرازكول، وامتطاه بلا سرج، وذهب بعيداً. - كانت تقول بحدة، وهي

تنظر بعداء نحو الولد المريض في فراشه. - هل كنت تستحق كل هذا الاهتمام، حتى أخذ يقاتل من أجلك...

ذهبت إلى المطبخ، وجاءت بالحليب الساخن مع السمن الأصفر المغلي. حرق الحليب الساخن شفتي الولد. ولكن العجوز ضغطت على الولد حتى يتناول الحليب:

- اشرب، اشرب، ما دام ساخناً. لا تخف. فالزكام لا يزول إلا بالسوائل الساخنة.

شرب، فحرق شفتيه، مرة أخرى، والدموع تساقطت من عينيه فوق وسادته. وهنا لانت العجوز وأخذت موقفاً ودياً نحوه:

- حاول أن تبرد الحليب شيئاً، فشيئاً... هذا شيء سيئ أن تمرض في هذا الوقت غير المناسب! - تنهدت بصعوبة.

- لقد فرغ صبر الولد، وهو ينتظر، أراد أن يتبول، وقف من فراشه، وهو يحس بآلام، ووهن في كل جسمه. وترافقت الآلام بطعم حلو في فمه. وهنا سبقته العجوز:

- قف هنا، في مكانك، الآن سأحضر لك الطشت.

أحرج الولد من العجوز، فاستدار جانباً، وتبول في الطشت، ولقد أخذته الدهشة عندما رأى لون بوله أصفر وساخناً.

بعد التبول، شعر الولد أن وضعه قد تحسن، وخف وجع الرأس.

اضطجع الولد في الفراش بهدوء، وشكر العجوز على مساعدتها له. وأخذ يفكر، أنه يجب أن يتعافى كلياً حتى الصباح ومن الضروري أن يذهب إلى المدرسة. وأخذ يفكر كيف سيحدث الأولاد، عن الغزلان الثلاثة، التي ظهرت مؤخراً في الغابة. وسيقول لهم أن الغزالة البيضاء هي نفسها الغزالة - الأم، ذات القرون، وكان معها الغزال الصغير، وقد أخذ يكبر، ومعهما الغزال الكبير، ذو الصدر

العريض، وذو القرون الكبيرة ذات الناميات والفروع الكثيرة. كما فكر أيضاً كيف سيحدثهم، أنه في حال بقيت هذه الغزلان عندهم الآن، فهي لن تغادر مطلقاً، ولن تعود إلى أماكنها السابقة مطلقاً، وأن الغزالة - الأم، ذات القرون سوف تهدي العم أرازكول، والخالة بيكي سريراً سحرياً.

نزلت الغزلان الثلاثة في الصباح الباكر إلى ضفة النهر، حتى ترتوي من الماء، وأمضت ليلتها في الغابة العليا، وكان ذلك عندما أشرقت الشمس الخريفية وارتفعت، حتى منتصفها فوق سلسلة الجبال. وكلما كانت ترتفع الشمس، كانت تصب نورها بشكل أقوى، حيث أخذت تنشر النور الساطع، وتعطي من الدفء كميات هائلة. وبعد الاستراحة في الليل، انبعثت للحياة من جديد، ولونت وجه الأرض بالنور والألوان.

تنقلت الغزلان بين الأشجار، ومشت بهدوء ورزانة ترعى الأعشاب، وتنعم بالدفء الشمسي الحميم مع بعض النسيم الواعد، الذي يحرك الأوراق فوق الأغصان. وكانت هي تسير حسب الترتيب التالي - في المقدمة كان الغزال القائد، ذو القرون الكبيرة، وفي الوسط الغزال الصغير وفي المؤخرة الغزالة - الأم، ذات القرون، والشعر الأبيض الجميل. سارت الغزلان في الطريق نفسه، الذي سار فيه أرازكول والجد مأمون، وهما يسحبان الجذع السيئ الذكر إلى الأسفل نحو النهر. وهناك كان آثار سحب الجذع على التربة الجبلية لا يزال حديثاً، فهي تبدو وكأن ذئباً عملاقاً حفر بمخالبه أثلاماً، للبحث عن بعض القوارض، التي يلاحقها. وكان هذا الطريق يقود إلى المخاضة، حيث علق جذع الصنوبرة بين صخور النهر.

اتجهت الغزلان نحو هذا المكان، لأنها منطقة مريحة للارتواء بالماء الزلال وبلا صعوبة. اصطحب أرازكول وسيداخمات، الشخصان القادمان لأخذ الأخشاب إلى هذا الموقع، حتى يدرسوا على أرض الواقع، المكان الأفضل لوضع السيارة كي تقوم بسحب الجذع من النهر بعد أن يقوموا بربطه بالحبال المتينة. وسار الجد مأمون في مؤخرة جميع السائرين برفقة أرازكول. وكان الجد يشك بنجاح هذه العملية. كان يسير مجبراً مطأطئ الرأس، فهو، كان في حيرة، كيف له أن يتصرف بعد ما حصل البارحة من خصام. وما عليه أن يعمل الآن، هل سيسمح له أن يساهم بالعمل؟ أم أنه سيطرده، كما فعل البارحة، عندما أراد أن يجر الجذع بواسطة الحصان؟ وأخذ يفكر، بماذا سيجيب، لو قال له أرازكول: "ما الذي جاء بك إلى هنا؟ فلقد سبق وقال للجد أنت مطرود من العمل! وماذا سيفعل لو قام أرازكول بشتمه ثانية بوجود غرباء، وأمره بالعودة إلى المنزل؟ لقد وقع الجد في حيرة قاتلة. لقد سار مكرهاً، كمن يسير إلى التعذيب. فمن الخلف كانت تراقبه العجوز. وهي تسير، وكأنها بعملها الخاص، أو من باب الفضول. ولكنها في واقع الأمر كانت تجبر الكهل على تنفيذ رغباتها، فهي كانت تحث الجد المسكين على أن يرضخ لأرازكول، ويطلب السماح منه.

أما أرازكول فكان يختال بمشيته كصاحب الغابة. ويطلق الزفير بصوت مسموع، وهو ينظر إلى كل ما حوله بتكبر وعنجهية. وعلى الرغم من أن رأسه كان يؤلمه من شرب الكحول، فقد كان يشعر بأريحية اللؤم في الثأر. وعندما نظر إلى الخلف شاهد كيف كان مأمون يسير كئيباً، كما يسير الكلب الجائع خلف صاحبه، الذي أشبعه ضرباً. "لا بأس يا مأمون، سأجعلك تذكر وتحفظ

دروسك حسب الأصول. فالآن لن أنظر إليك، فأنت بالنسبة لي، مكان فارغ. أنت ستركع عند أقدامي وتطلب رضائي" - هكذا كان يتنعم أرازكول في لؤمه، وهو يتذكر كيف بكت زوجته، وطلبت السماح منه ليلة أمس، وكيف ركعت تقبّل قدميه، أما هو فلم يشفق عليها وضربها ضرباً مبرحاً، وطردها من عند عتبة بيته. - "والآن، سأدعه يمشي وضيعاً خلفي! ولكن عندما نقوم بتحميل الأعمدة لهؤلاء، سوف أجمعه مع ابنته، وعندها سأتمتع بمشاهدتهما وهما ينهشان بعضهما البعض. وساعتئذٍ ستقوم بقلع عيني أبيها حتى ترضيني، وستتوحش كالذئبة" - أخذ أرازكول يفكر في فترات السكون، التي تخللت حديثه مع الإنسان الغريب.

يدعى هذا الرجل كوكيتاي. كان ذا بشرة سمراء للغاية، ويعمل محاسباً قديماً في الكولخوز. وهو صديق قديم لأرازكول منذ اثنتي عشرة سنة، وتعارفا عندما أراد كوكيتاي بناء منزل، فقام أرازكول بتأمين الخشب اللازم له بثمن زهيد، وخاصة الأعمدة اللازمة والقوية، التي يتم وضعها تحت ألواح الخشب. وبعد ذلك عندما زوج كوكيتاي ابنه الأكبر، وأراد بناء منزل له ولزوجته الشابة، فهنا قام أرازكول بتأمين الخشب اللازم لبناء المنزل أيضاً. والآن أراد كوكيتاي أن يعيش ابنه الأصغر مع زوجته في بيت مستقل، وهنا لزمه الخشب أيضاً، ومساعدة أرازكول كصديق قديم كانت ضرورية. وبالطبع فإن أرازكول لم يخيب الظن، ولبى طلب صديقه. والمصيبة، كم هي الحياة صعبة! يقوم الإنسان بتنفيذ مهمة - ويعتقد، أنه الآن، سيعيش بهدوء، ولكن مسيرة الحياة تظهر له قضية ومعضلة أخرى يجب القيام بها. وبدون أناس من أمثال أرازكول، يصعب في الوقت الحاضر أن ينفذ أصحاب المشاريع مشاريعهم...

- عسى أن يتم كل شيء، وسوف ندعوك للاحتفال بالبيت الجديد. تفضل، وسوف نرتاح ونحتفل كما يجب.- هكذا وجه كوكيتاي دعوة إلى أرازكول.

تمتم أرازكول مسروراً بالاحتفاء به، وأخذ ينفث الدخان من فمه قائلاً:

- شكراً، إذا دعينا - فلن نرفض الدعوة. وإذا لم ندع - فلن نذهب متطفلين. عندما تدعوني، فإنني سآتي. وليست هذه هي المرة الأولى، التي أحل بها ضيفاً في بيتك. وأنا أفكر الآن: أليس من الأفضل أن تنتظر المساء، وحلول الظلمة، وساعتئذٍ تغادر؟ والمهم أن لا يلاحظك أحد في السوفخوز. وإذا اكتشفوا أمرك فإن الأمر سيكون...

- حقاً - هذا صحيح. - تردد كوكيتاي. - ولكن ما زال الوقت مبكراً حتى المساء والانتظار صعب. سوف نمشي بهدوء. ولا يوجد نقاط تفتيش في الطريق، أليس كذلك؟... وإذا من باب المصادفة التقينا بالشرطة أو غيرهم سوف نرى...

- هذا هو الأمر! - قال أرازكول، وهو يعرب من خلال تعابير وجهه أنه ليس بحاجة لوجع الرأس والمشاكل مع الجهات الحكومية - فالإنسان يعيش مئة عام، ويسافر من مكان لمكان، ولا يلتقي كلباً في الطريق. ويحدث أن تنقل قليلاً من الأخشاب مرة واحدة في حياتك، وتقع في شباك الرقابة - هذا الواقع، وهكذا يحدث...

صمت الاثنان، وكل واحد أخذ يفكر بما في رأسه. فلقد انزعج أرازكول من وقوع الجذع بين صخور النهر، وكان عليه أن يترك الجذع في النهر، ولو كان الخشب موجوداً، لقام بتحميله في الليل، وفي الصباح الباكر غادرت الشاحنة خفية، وبعيداً عن الأنظار... - إيه، ولسوء الحظ حصل ما حصل البارحة! والسبب في

هـذا، ذلـك المجنـون الكهـل مـأمون، الـذي قـرر أن يعلـن الإضـراب، ويخـرج عـن طـاعتي، ويكـون لنفسـه شخصـية خاصـة، فـلا بـأس مـن هذا! حصل، ما حصل، ولكن هذا لن يمر بلا عقاب...

شربت الغزلان الماء، عندما جاء النـاس إلى الضـفة المقابلة للنهـر. يـا لهـذه البشـرية الغريبـة. لا يجلسـون بـلا حـراك، ويضـجون في كـل مكـان. مشـغولون بأعمـالهم وأحـاديثهم، حتـى لم يلحظـوا الحيوانـات، التي تقف في الجهة المقابلة للنهر.

وقفـت الغـزلان بـين الشـجيرات والحشـائش، الـتي يميـل لونهـا للاحمـرار إلى جانـب المضـيق النهـري، وأخـذت تقـترب بهـدوء لتأخـذ حاجتها من الماء. وكانت تجترع المياه على شكل جرعات صغيرة، غير مسـرعة، وترفـع رؤوسـها بالتنـاوب، حتـى يكـون واحـداً منهـا مرفـوع الرأس للرقابة. كانـت ميـاه النهـر بـاردة جـداً، وكانـت الشـمس ترسـل شـعاعها الـدافئ والمنعش. فكانـت الغـزلان تتنعم بأنهـا ارتـوت مـن المـاء النقي الشفاف، وفي الوقت نفسـه كانـت تتنعم بأشـعة الشـمس بهـدوء. وبـدأت قطـرات النـدى، الـتي تقـاطرت مـن الأوراق الكثيفـة فـوق الأغصان على ظهورهـا تجـف، وتصـاعد بخـار شـفاف منهـا. لقـد كـان صباح ذلك اليوم جميلاً وهادئاً، ودافئاً نسبياً.

أمـا النـاس فلـم يلحظـوا الغـزلان نهائيـاً. ولقـد عـاد واحـد مـن الموجودين إلى السيارة، بينمـا بقـي الآخـرون علـى الضـفة. هـزت الغـزلان رأسها وبانت آذانها ترتفع قليلاً وتنخفض، وتنبهـت إلى الأصـوات، الـتي تصدر عن أولئك البشر القريبين منهـا. وجمـدت في مكانهـا، وهـي بـين الحـين والآخـر تهـز جلـدها علـى طريقتهـا الخاصـة بهـا. وقلقـت عنـدما ظهـرت شـاحنة مـع مقطـورة. وأخـذت السـيارة تهـدر بقـوة وتزمـزم. فتحركت الغزلان، وقررت مغادرة المكان، ولكن السيـارة توقفت

عن الهدير، وتوقفت عن الحركة. تمهلت الغزلان قليلاً، وسارت بهدوء. ثم توقفت وأصغت بانتباه. وعادت لتسير من جديد بحذر - ارتفع صوت البشر على الضفة الأخرى، إذ كانوا يتحدثون بسرعة وحدة، ويتحركون بحيرة وقلق.

سارت الغزلان عبر طريق ضيق بين الشجيرات والحشائش الطويلة، إذ لم يكن ظاهراً منها إلا رؤوسها وقرونها وظهورها الناعمة، وهكذا لم يلحظها الناس حتى الآن. وفقط عندما أخذت الغزلان بعبور المخاضة، وخرجت إلى الرمال الليلكية اللامعة تحت أشعة الشمس القوية، بدت للعيان، وهي تقف فاتحة أفواهها حسب وقوفها وتحركها في المكان.

- انظروا، انظروا، ما هذه! - كان سيداخمات أول من صرخ مندهشاً - غزلان! فمن أين جاءت إلى هنا؟

- ماذا بك تصرخ، ولماذا تضج؟ وعن أية غزلان تتكلم. نحن البارحة قد رأيناها، - قال أرازكول بلا اهتمام - فمن أين جاءت؟ جاءت، وما العجب في هذا!

- باي، باي، باي! - قال كوكيتاي فرحاً، ومن شدة التأثر، وهو يرفع يديه عالياً، انفكت أزرار قميصه عن رقبته، وتابع بكلمات تعبر عن اندهاشه، وفرحته، - يا لها من كائنات ناعمة، إنها شبعة من المراعي الجيدة!...

- أما الأم، يا لها من حسناء! انظر كيف تمشي، - قال السائق، وهو يفتح عينيه بإعجاب. - إيه، يا إلهي، إنها غزالة رائعة، عمرها سنتان. لأول مرة أرى غزالة بجمالها.

- أما الغزال الذكر! انظر إلى قرنيه! فكيف يحملهما! وهم لا يخافون من أي شيء. فمن أين جاؤوا، قل لي يا أرازكول؟ - سأل كوكيتاي، وعيناه مفتوحتان وهما تلمعان كعيني الخنزير.

- إنها من قطيع الغزلان الموجود في محمية قريبة، - أجاب أرازكول بهدوء وبلهجة المالك لقطعان من الغزلان، - خلف المنحدر، من تلك الجهة. ولماذا لا تخاف؟ لأنها معتادة على البشر، ولم يخفها أحد في السابق.

- إيه، لو كان معي سلاح الآن! - قال سيداخمات فجأة.

- إن فيهم أكثر من مئتي كيلوغرام من اللحم الطري، أليس كذلك؟

أما مأمون، الذي لم يتدخل في الحوار، وحصر نفسه عن قصد، واقفاً بعيداً عنهم، لم يقدر على الصبر، فقال:

- ماذا حل بك، يا سيداخمات! إن صيد هذه الغزلان ممنوع.

- قال الجد مأمون بصوت منخفض.

نظر أرازكول شزراً إلى الكهل، وقطب حاجبيه: "إنك تجرؤ على رفع صوتك عندي هنا!" - فكر بكره مقيت. أراد أن يشتمه بآخر ما عنده، حتى يوجه له الضربة الأخيرة القاتلة، ولكنه أحجم عن فعل ذلك. لقد تجنب الانفعال بوجود أناس غرباء.

- لا داعي لنشر السخافات هنا، - قال أرازكول بانفعال، دون أن ينظر إلى مأمون، - الصيد ممنوع هناك، حيث توجد محميات لتربيتها، أما عندنا، فلا تربى الغزلان. نحن غير مسؤولين عن حمايتها، مفهوم؟ - نظر بتجهم إلى الكهل الحائر المرتبك.

- مفهوم. - أجاب مأمون بخشوع، وأحنى رأسه، وابتعد جانباً.

مدت العجوز يدها خفية، وشدته من كم قميصه:

- التزم الصمت. - قالت هامسة مع شيء من التهديد.

تفرق الجميع، حتى لا يتطور الحديث، وأخذوا ينظرون في أثر الغزلان، التي سلكت طريقاً دائرياً من حولهم. وصعدت إلى المنحدر العالي حسب عادتها. وسار في المقدمة الغزال الكبير الأرقش بتفاخر

وزهو، حاملاً قرنيه الكبيرين، وخلفه الغزال الصغير بلا قرنين، وفي المؤخرة كانت الغزالة - الأم، ذات القرون، قد اختتمت المسيرة أمام الجمهور. وعلى خلفية الانكسار الطيني النظيف، كان وقوف الغزلان استعراضياً منظماً. وكانت كل حركة، وكل خطوة نظامية ولها وقع خاص حسب أعراف الغزلان.

- إيه يا له من جمال رائع! - لم يتمكن السائق من التزام الصمت، وأخذ ينظر بعينيه الجاحظتين، وهو شاب متزن من حيث المنظر الخارجي. - آسف أنني لم أحمل معي آلة تصوير، لكان الأمر جيداً للغاية...

- لا بأس، غزلان جميلة وانتهينا، - قال أرازكول بغضب مقاطعاً السائق.- يكفينا ضياعاً للوقت. كما أن الجمال وحده، لا يشبع الإنسان. أشغل السيارة، وقربها من خلفها إلى الضفة، حتى ضفة الماء. وأنت يا سيداخمات، اخلع حذائك. - أخذ أرازكول يعطي الأوامر، وهو يتلذذ بسلطته. - وأنت أيضاً.- أشار هو للسائق. - هيا، اذهبا واربطا السلك إلى الجذع جيداً، وبسرعة، فلدينا أعمال كثيرة.

أخذ سيداخمات يخلع الجزمتين عن رجليه، وكان يعاني من صغر قياسهما.

- ماذا تنتظر، ساعده. وأنت أيضاً اخلع جزمتك، وانزل إلى الماء.- قالت العجوز ذلك بصوت كريه، وغاضب، دون أن يسمعها أحد غير زوجها.

أسرع الكهل مأمون ينزع الجزمتين عن رجلي سيداخمات، وخلع هو جزمتيه بسرعة. وفي هذا الوقت كان أرازكول وكوكيتاي يوجهان السائق للوقوف في المكان المناسب:

- ارجع، إلى هنا، إلى هنا، اقترب قليلاً.

- إلى اليسار قليلاً، إلى اليسار. هكذا جيد.

- زد الرجوع قليلاً.

قلقت الغزلان لسماع هذه الأصوات الحادة، وهدير الشاحنة، فأسرعت خطاها، وأخذت تبتعد عن هذا المكان، وودعت الانكسار الحاد، الذي تقف عليه، واختفت بين أشجار الحور.

- آه، اختفت! - قال كوكيتاي متحسراً، ومتأسفاً، على هذا الصيد الثمين، الذي ضاع من يده.

- لا بأس فهي لن تذهب بعيداً من هنا! - قال أرازكول، وكأنه يتكلم حسب رغبة صديقه، مع نبرة صوت فيها التكبر الداخلي، وحب الظهور، فهو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة. - لن تسافر اليوم حتى المساء، ستكون ضيفاً عندي. هكذا أراد الله. وسوف استقبلك كما يجب. - وقهقه أرازكول، وهو يربت على كتف صديقه. وبان أنه بإمكان أرازكول أن يكون مرحاً.

- طالما الأمر كذلك، فأنت صاحب البيت، وأنا ضيف لا يحق لي الاعتراض.- وافق كوكيتاي، وهو يكشر عن أسنان قوية صفراء.

في هذا الوقت كانت الشاحنة تنتظر على ضفة النهر، بينما دخلت العجلات الخلفية إلى نصفها في مياه النهر. ولم يخاطر السائق أن يدخل في الماء أكثر من ذلك. وحان الوقت لربط الجذع بالسلك وشده إلى خلف الشاحنة. وإذا كان طول السلك كافياً، فإن إخراج الجذع من بين الصخور النهرية لن يحتاج إلى الكثير من الجهد والعمل الشاق.

أما السلك فلقد كان مصنوعاً من الفولاذ، وهو طويل وثقيل، وكان من الضروري أن يتم سحبه في الماء حتى الجذع. خلع السائق حذاءه، رغماً عنه، وكان يخاف النظر إلى الماء، ولم يقرر نهائياً: هل

يحتاج الأمر أن ينزل إلى النهر في جزمتيه أو من الأفضل لو خلعهما. "من الأفضل أن أنزل في الماء حافياً، - فكر السائق. - وعلى أي حال، سوف يدخل الماء إلى الجزمتين، وعمق المياه يقترب من الحوض. وعليَّ ساعتئذٍ، أن أمشي طيلة اليوم في جزمتين مبللتين". ولقد تصور أيضاً كم ستكون المياه باردة في هذا الوقت. وهذا ما استغله الجد مأمون.

- لا تخلع جزمتيك يا بني، - تقدم الجد مأمون من السائق ناصحاً له. - فأنا سأنزل مع سيداخمات.

- لا يجوز هذا أيها الجد. - اعترض السائق الخجول.

- أنت ضيف، ونحن هنا من أهل الدار، أنت اجلس خلف المقود.

- أقنعه الجد مأمون.

وعندما نزل الجد مأمون وسيداخمات إلى الماء، ووضعا إسفيناً في ملف السلك الفولاذي، وأخذا يجرانه في الماء، صرخ سيداخمات متأوهاً من برودة الماء وأخذ يشتم بآخر ما عنده من السباب:

- آه، أي، أي، هذا جليد، وليس ماء!...

أما أرازكول وكوكيتاي أخذا بالضحك المشجع، والكلام اللطيف حتى يكملا المهمة:

- اصبر، اصبر! سنجد ما يدفئك اليوم.

- أما الجد مأمون لم يتأوه مطلقاً، ولم يشعر بالماء الجليدي البارد، وسار في المقدمة، وهو يرفع رأسه فوق كتفيه، وتابع المسير حافي القدمين فوق الصخور اللزجة تحت الماء، وكان يصلي أن ينظر الله إليه بعين العطف، حتى لا يأمره أرازكول بالعودة إلى خارج النهر، وحتى لا يطرده، ويشتمه أمام الناس، وعسى أن يسامحه، لتصرفه الغبي البارحة، وهو الكهل المسكين...

أما أرازكول، فلم يقل شيئاً، وكأنه لم يلحظ حسن نوايا مأمون، والأكثر من ذلك أنه لا يرى فيه إنساناً. أما في داخله فهو يحتفل سعيداً، بأنه كسر روح التمرد والاعتراض عند الكهل مأمون. "هكذا، - أخذ يسخر في داخله من الجد مأمون، - ها هو جاء يزحف، ويركع عند قدمي. آه، لا توجد لديّ سلطة كبيرة، ولو كنت قائداً كبيراً لكنت قد حولت كل من يشبه هذا الكهل وغيره إلى نعاج رغماً عنهم، ولكنت قد أجبرت الكثيرين أن يزحفوا في الوحل. ولو كان تحت إرادتي وسيطرتي سوفخوز أو كولخوز، لطبقت النظام الجديد كما يجب. ولكن، وللأسف أهملوا الإدارة حتى عمت الفوضى، وها هم يشتكون الآن من هذه السلبيات: أخذ الرعاع لا يحترمون مدير السوفخوز وحتى الرئيس، وثمة راع يتبجح ويتحدث مع مسؤول، وكأنه يتحدث مع أصدقائه الرعاة. يا لهم من مجانين، فهم لا يستحقون هذه المناصب! وهل يجوز أن يتحدث الإنسان معهم هكذا؟ لقد مرّ وقت، حيث سقطت الرؤوس - ولم يجرؤ أحد أن يقول كلمة. نعم، لقد كان ذلك - نعم! وماذا الآن؟ واحد من أسقط السقطاء فكر أن يحتج ويعارض. وها هو الآن يزحف أمامي، فازحف لأرى"، - هكذا أخذ أرازكول يتلذذ بحماقة ولؤم، وهو يلتفت نادراً نحو مأمون.

أما مأمون، أخذ يخوض في مياه النهر الباردة، وهو يجتهد قدر إمكاناته، في سحب السلك الفولاذي مع سيداخمات، وأخذ ينعم بشعور أحسه من عدم تهجم أرازكول عليه، وهذا يعني عين الرضا، وهذا ما يريده، وما تحثه عليه العجوز. وكأنه يقول في داخله: "لا بأس، سامحني، على ما حصل البارحة، أنا رجل كهل، - هكذا جال في فكره أن يخاطب أرازكول. - خفت على حفيدي،

ولم أنتظر المساء. وأسرعت إليه في المدرسة. إنه وحيد، ولا يوجد له معيل غيري يهتم به. وها هو لم يذهب اليوم إلى المدرسة. لقد مرض المسكين، سامحني، وانس ما كان. فأنت لست غريباً عنا. وهل تعتقد أنني لا أتمنى السعادة لك ولابنتي؟ ولو أن الله، يسمع دعائي. ولو أنني أسمع صراخ مولود زوجتك، ابنتي، - لكنت ساعتئذٍ أملت أن يأخذ الله روحي، أقسم بذلك، ولبكيت من سعادتي. أرجوك أن لا تهين ابنتي. سامحني. أما ما يخص العمل، فإنني سأعمله ما زلت واقفاً على رجلي. أنا على استعداد أن أقوم بكل ما تأمرني به...".

أما العجوز، وهي تقف على الضفة، أخذت بحركات من يديها وإيماءاتها تقول للكهل: "اجتهد، يا كهل! هذا هو قد سامحك. اعمل كما أقول لك، وكل شيء سيكون على خير ما يرام".

نام الولد. واستيقظ مرة واحدة، عندما سمع صوت إطلاق نار في مكان ما. وعاد للنوم من جديد. لقد تعب البارحة وعانى من الأرق والمرض الشديد، وها هو اليوم ينام بعمق، ويحلم أحلاماً هادئة، وفي نومه أخذ يتنعم، كيف يسعد بالتمدد في السرير بكل حرية، ولا يشعر بالحرارة القوية تحرق جسمه، ولا بالقشعريرة الجليدية. وكان بإمكانه أن ينام، وربما سينام طويلاً، لولا أحاديث ونقاشات العجوز والخالة بيكي. لقد كانتا تجتهدان أن تتكلما بصوت منخفض، ولكنهما كانتا تقرقعان بالأواني بأعلى الأصوات، وهكذا استيقظ الولد.

- أمسكي هذا الفنجان الكبير، وخذي هذه القصعة، - أخذت تتكلم العجوز بنبرة عالية في الغرفة الأمامية. - وأنا سوف أحمل

السطل والمصفاة. آه، كم يؤلمني ظهري! لقد تعبت جداً. كم من الأعمال نفذنا اليوم، والحمد لله، أنا سعيدة، أننا أنهينا كل شيء.

- آه، لا تقولي، حقاً كذلك، وأنا سعيدة للغاية، أننا قمنا بالعمل. البارحة كنت مستعدة للموت. ولولا غولجمال قد وضعت يديها عليّ، لكان انتهى كل شيء.

- وتقولين أيضاً، - أكدت العجوز على كلامها. - وهل جئت بالفلفل؟ لنذهب، إن الله قد أرسل خيره بمناسبة مصالحتكما، لنذهب، لنذهب.

وعندما استعدتا للخروج من البيت، سألت الخالة بيكي العجوز، عند العتبة، عن الولد:

- هل ما زال نائماً حتى الآن؟

- دعيه ينام الآن، - أجابت العجوز. - فعندما يجهز الطعام، سوف نحمل له حساءً ساخناً.

لم يعد الولد قادراً على النوم. ومن جهة الساحة، جاءت أصوات وقع خطا وكلام. ضحكت الخالة بيكي، وضحكت غولجمال والعجوز أيضاً متعاطفتين معها. وصدرت أيضاً أصوات رجال غير معروفين. "هذه أصوات، الذين جاؤوا في الليل، - اعتقد الولد، - هذا يعني أنهم لم يسافروا بعد". ولم يكن صوت الجد مأمون من بين هذه الأصوات، ولم يظهر هو شخصياً. فأين هو، وبماذا هو مشغول؟

أخذ الولد يصغي بانتباه إلى الأصوات في الخارج، وهو ينتظر جده. لقد أراد، وبرغبة جامحة أن يتحدث معه عن الغزلان، التي رآها البارحة. فقريباً سيحل الشتاء. ومن الضروري ترك كمية من الحشائش لها في الغابة، حتى تأكل بأريحية. ومن الضروري تعويدها

أن لا تخاف من الناس، وكان من اللازم تعويدها أن تأتي من خلف النهر إلى هنا، إلى الساحة. ويجب إعطاؤهم الحشائش، التي يحبونها، أكثر من أي شيء آخر. ومن الممتع أن نعرف ماذا تحب هذه الغزلان؟ كما يجب تعليم الغزال الصغير أن يتعود على السير على أثر صديقه. ومن الممتع أن يتم تعليمه، كيف من الممكن أن يسير خلفه إلى المدرسة؟...

انتظر الولد جده، ولكن لسوء الحظ لم يحضر. وجاء بدلاً عنه، سيداخمات، ويبدو عليه السرور لشيء ما. وكان سيداخمات يتأرجح في مسيره، بلا اتزان ويضحك بلا سبب مع ذاته. وعندما اقترب أكثر، فاحت منه رائحة المشروبات الكحولية. والولد يكره هذه الرائحة الحادة المجنونة، التي تذكره دائماً بتصرفات أرازكول بعد أن يشرب الكحول. وكيف كان يجن جنونه، وكيف كان الجد يتعذب لعذاب ابنته الخالة بيكي. ولكن سيداخمات، على عكس أرازكول فكلما كان يشرب الكحول، كان يصبح مرحاً وطيباً، وبكلمة لا يسيء لأحد كان، ويضحك بلا توقف. ويبدو عليه منظر الغباء اللامحدود. زد على ذلك، أنه في الحالة الطبيعية، كان يبدو أنه كتلة من الغباء المتحركة. فكان يتحدث مع الجد مأمون في مثل هذه الحالات أحاديث غريبة كهذه:

- ما بك تضحك كالمجنون، يا سيداخمات؟ وأنت أيضاً فقدت عقلك وشربت؟

- آه، يا عمي مأمون، إنني أحبك حباً جماً وكبيراً! كلمة شرف، يا عم، كما أحب أبي.

- إ - إيه، في عمرك الرجال يقومون بأعمال جدية! انظر كيف يقود الشباب السيارات، وأنت لا تستطيع أن تقود لسانك كما يجب.

ولو كنت في عمرك لكنت على أقل تعديل سائقاً لجرار، أو غيره من الآلات الزراعية.

- يا عم، لقد قال لي الضابط المسؤول أثناء خدمتي في الجيش، أنه ليس لديَّ أية موهبة في هذا المجال. ولكنني خدمت في كتيبة المشاة يا عم، وبدون المشاة، فالجيش لا يعني شيئاً...

- المشاة! يا لك من كسول. أما زوجتك... ليس عند الله عين يرى بها. فمئة من أمثالك لا يساوون واحدة من أمثال غولجمال.

- ولذلك نحن هنا، يا عم. - أنا وحيد، وهي وحيدة.

- ماذا حلّ بك، وماذا تثرثر؟ لك جسم كالثور، أما بالنسبة للعقل... - لاح الجد مأمون بيده فاقداً الأمل في سيداخمات.

- مو - وو - مو - أخذ يخور سيداخمات كالثور في أثره.

توقف فيما بعد في وسط الساحة، وأخذ يغني أغنيته، التي كان يرددها بعد أن سمعها في مكان ما من هذه المنطقة:

من الجبال الشهباء، الشهباء
قدمت راكباً على حصان أشهب.
إيه أيها التاجر الأشهب، افتح الأبواب،
سوف نشرب نبيذاً أشهب!

ومن الجبال، الجبال الداكنة
جئت راكباً على ثور داكن.
إيه، أيها التاجر الداكن، افتح الأبواب،
سوف نشرب نبيذاً داكناً!..

وهكذا، يستمر في الغناء بلسان متلعثم، ولا يهمه ماذا يمتطي قادماً من الجبال، إن كان على جمل، أو ديك، أو فأر، أو سلحفاة،

أو على أي شيء يتحرك ويزحف. وكان سيداخمات وهو ثمل يعجب الولد، أكثر مما هو في وضعه الطبيعي.

لهذا كان الولد يستقبل سيداخمات، وهو ثمل، بابتسامة ودية.

- ها! هاها! - أخذ يصرخ سيداخمات مستغرباً. - لقد أخبروني، أنك مريض، وها أنت سليم كلياً. لماذا لا أراك تركض في الساحة؟ هكذا لا يصح... - جلس على السرير، وفاحت منه رائحة الكحول، وكذلك رائحة اللحم النيئ، والمسلوق، وكانت يداه وثيابه تفوح برائحة اللحوم الدسمة. وهكذا أخذ سيداخمات يداعب الولد ويقبّله، فخدشه بشعر ذقنه، وهنا أخذ الولد يتأفف، إذ أن وجنتاه قد تحسستا من ذلك، فقال حتى يوقف حركات سيداخمات:

- يكفي، يا عم سيداخمات. - طلب الولد. - أين جدي، ألم تره؟

- جدك هناك، هذا بالذات، - حرك سيداخمات يديه في الفضاء بشكل غير محدد. - لقد قمنا، هذا... بسحب الجذع من الماء، وبعد ذلك شربنا حتى نشعر بالدفء. أما هو، هذا بالذات، يطبخ اللحم. فانهض، وأسرع بارتداء ملابسك - ولنذهب. فكيف يكون هذا! فهذا غير صحيح. جميعنا هناك، وأنت وحدك هنا.

- جدي، لم يسمح لي أن أغادر سريري.- قال الولد.

- دعك من هذا، لم يسمح. قم وتفرج، فهذا لا يحصل في كل يوم. فاليوم توجد حفلة. فالمغراف يغوص بالدسم، والملاعق بالدسم، والأفواه تفوح بالدسم! انهض.

ضغط على الولد حتى نهض من السرير، وأخذ يلبس ثيابه.

- أنا سأرتدي ملابسي بنفسي. - حاول الولد أن يرفض خدمات سيداخمات، وخاصة أنه كان ثملاً وغير متزن.

ولكن سيداخمات الثمل لم يستمع إليه. وحسب أنه يفعل خيراً مع الولد، لأنهم تركوه وحيداً في البيت. فاليوم فريد من نوعه، ولا يحصل كثيراً.. عندما يكون المغراف يغوص بالدسم، والملاعق في الدسم، والأفواه في الدسم...

تأرجح الولد قليلاً، بعد نهوضه من السرير، وخرج سائراً خلف سيداخمات. كان الجو في الجبل مشبعاً بالرياح الرطبة ونصف غائم. وكانت الغيوم تسير في السماء مسرعة أمام ضغط الرياح. وخلال الثواني، التي اجتاز فيها الولد الشرفة، تغير الطقس مرتين وبحدة. فمن يوم مشمس دافئ إلى طقس غائم متقلب عاصف بالرياح، وانتشار رطوبة موسمية. لاحظ الولد على الفور أن الهواء سبب له صداع حاد. زد على ذلك، أن دخان الموقد عصف في وجهه، فدمعت عيناه من حدة الدخان الصنوبري: "إنهم يغسلون الثياب، وكل ما هو أبيض اليوم".

- أخذ يفكر الولد. فعادة ما كان يتم إشعال الموقد الكبير في الساحة، التي تتوسط المنازل الثلاثة، وذلك لتسخين المياه للغسيل، حيث كانوا يضعون على الموقد قدراً كبيراً لا يتمكن إنسان واحد من حمله، وذلك لتسخين المياه لثلاثة بيوت. وبالكاد كانت الخالة بيكي وغولجمال ترفعان هذا القدر سوية.

كان الولد يحب يوم الغسيل الكبير. أولاً، لأن الموقد يشتعل في الهواء الطلق، في الساحة،- ومن الممكن التسلية بإشعال الحطب في الموقد، ليس هذا كدخان الموقد في المنزل. وثانياً، من الممتع كيف تنشر النسوة الشراشف البيضاء فوق حبال الغسيل، والثياب تزهو بألوانها البيضاء والزرقاء، والحمراء، وتصبح الساحة مزدانة، وكأنها بمناسبة أعياد. وكان يحب الولد أن يمر تحت الثياب، ويتحسسها ملامساً إياها بوجنتيه، متنعماً برطوبتها ورائحتها النقية.

وفي هذه المرة لم تكن في الساحة أية ثياب. أما القدر الكبير فوق الموقد، والذي كان يغلي ويصعد البخار القوي منه لشدة وهج النار المشتعلة، فكان مملوءاً حتى حافته العليا بقطع اللحم الكبيرة. وفي هذه اللحظة، كان اللحم قد نضج: فاحت رائحة اللحم الدسم، وكذلك رائحة النار المشتعلة بقوة ومع هذه الروائح الشهية، تزايدت الشهية، وسال لعاب كل من يقترب من هذا القدر. وكانت الخالة بيكي في فستان أحمر جديد، وترتدي جزمات قطنية جديدة، وشال ملون بألوان زاهية، يغطي كتفيها. وكانت تشرف على أعمال الطبخ، وإشعال النار، وكانت تجمع الرغوة عن وجه اللحم، وتقذف بها جانباً، أما الجد مأمون، كان إلى جانبها يقوم بتحريك الحطب في الموقد حسب الأصول...

- هذا هو جدك، - قال سيداخمات للولد. - فلنذهب إليه.

أما هو فقد أخذ يغني بأعلى صوته كلمات أغنيته المحببة:

من الجبال الشهباء، الشهباء.
قدمت راكباً على حصان أشهب...

وفجأة ظهر أرازكول من الملحق، وقد حلق شعر رأسه، وكان يحمل بيده بلطة كبيرة، وقد شمر عن ساعديه.

- أين أنت تختفي عن الأنظار؟ - قال أرازكول بصوت أجش مخاطباً سيداخمات. - لدينا ضيف هنا، ويقطع الأخشاب، - وأشار إلى السائق، وهو يقطع أخشاب البتولا، - بينما أنت تتجول، وتغني أغنيتك.

- إذن، نحن نعمل بحسابين، - طمئن سيداخمات قائده أرازكول، وتوجه نحو السائق. - هات أيها الأخ فأنا سأقطع الخشب بدلاً عنك.

أما الولد فقد اقترب من جده، الجاثي على ركبتيه بالقرب من الموقد. اقترب منه من الخلف وقال:

- يا جدي!

لم يسمع الجد حفيده، فكرر الولد، ولمس بيده كتف جده:

- يا جدي!

التفت الكهل، فلم يعرفه الولد، فهو لم ير فيه تلك الملامح، التي تعود عليها. فالجد كان ثملاً أيضاً، ولم يتذكر الولد أنه شاهد جده ثملاً ولو مرة واحدة في حياته. لم يحدث ذلك، اللهم إلا إذا كان في أحد مآتم شيوخ إسك - كول، حيث تقدم الفودكا للجميع حتى النساء. أما أن يشرب هكذا بلا مناسبة، فلم يحصل هذا مع جده مطلقاً.

نظر الجد إلى حفيده نظرة غريبة وبعيدة، بل نظرة برية، بينما كان وجهه أحمر وساخناً، وعندما عرف حفيده، ازداد وجهه احمراراً، إذ احتقن بلون أحمر، ثم شحب وجهه، فوقف الجد على رجليه وقال:

- هذا أنت، آ؟ - سأل هو بصوت أبح، وضم حفيده إلى صدره.

- هذا أنت، آ؟ - وعدا هذه الكلمات لم يقدر على لفظ أية كلمة أخرى، وكأنه فقد القدرة على الكلام.

وانتقل انفعاله هذا إلى الولد:

- هل مرضت يا جدي؟ - سأل الولد بقلق.

- لا- لا. هكذا، أنا ببساطة، - تمتم الجد مأمون. - أنت اذهب الآن، تمشى قليلاً. وأنا هنا سأقطع الخشب. هكذا، يلزم...

تصرف الجد، وكأنه طرد حفيده بعيداً عنه. وكان أهون على الجد لو أنه اختفى من كل الدنيا على أن يفعل ذلك. واستدار بوجهه

إلى الموقد وكأنما أدار ظهره للعالم كله. جثا على ركبتيه، ولم يعد ينظر إلى أية جهة، مشغولاً بحاله فقط، ومهتماً بوضع الحطب في الموقد كما يجب. ولم ير الجد كيف تعكر مزاج حفيده، وغادره حانقاً عبر الساحة، واتجه إلى سيداخمات، الذي كان يقطع الأخشاب أيضاً.

لم يفهم الولد ما الذي حدث مع الجد، وماذا جرى في المنزل، ومع الجيران. ولكن، وعندما اقترب من الملحق، لفتت انتباهه كومة لحم أحمر، قطع لتوه ووضع على شكل كومة على جلد مفروش على الأرض. وكانت على حواف الجلد تسيل بعض تسريبات الدم، وكان شعر الذبيحة ملاصقاً للأرض، وعلى مسافة قريبة كانت أوساخ الذبيحة، وإلى جانبها كان الكلب، ينبح ويلوح بذيله. وإلى جانب كومة اللحم كان يجلس رجل، بحجم الصخرة القرفصاء، وهو غريب، غير معروف محلياً، أسمر الوجه، إنه كان كوكيتاي، وكان هو وأرازكول يحملان السكاكين ويقومان بتقطيع لحم الذبيحة، وعملا على مهل على فرز اللحم كما يرغبان، وفي أماكن مختلفة على الجلد الممدود.

- كانت مجزرة بلا حدود! إن رائحة اللحم قد ملأت الساحة!

- قال الرجل ذو الوجه الأسمر الداكن بصوت جهوري، وهو يرفع قطعة من اللحم ويشمها متمتعاً.

- خذ، خذ، ضع هذه القطع فوق كومة حصتك، - قال أرازكول لصديقه بلهجة الكرم والسخاء، - فالإله قد وهبنا اليوم واحداً من قطيعه في يوم قدومك. وهذا لا يحصل في كل يوم.

أخذ أرازكول يلهث، ولذلك كان ينهض بين الحين والآخر، ويقوم بالمسح على بطنه المنتفخ، لكثرة ما أكل من اللحم، حتى

أصابه عسر الهضم. ولقد كان ملاحظاً أنه أكثر من المشروبات الكحولية. أخذ يتنفس بصعوبة ويشخر، ويلوح برأسه يمنة ويسرة حتى يسهل عملية الشهيق والزفير. أما وجهه السمين، ويشبه ضرع البقرة الملتهب، فكان يلمع من شدة سروره، وافتخاره بذاته وكبر بطنه الشبع.

فقد الولد صوابه، وغمرته قشعريرة باردة عندما شاهد تحت جدار الملحق رأس الغزالة - الأم، الذي قطع كلياً عن جسدها. كان هذا الرأس ممرغاً في التراب، وقد تلطخ ببقع دموية قاتمة، عند الذبح. ويذكر مشهد رأس الغزالة بمشهد الدجاجة النافقة المرمية على حافة الطريق. وإلى جانب رأس الغزالة كانت أربعة قوائم ذات حوافر، وقد تم قطعها من عند مفاصل الركب.

نظر الولد بشيء كبير من إحساس الرعب إلى هذه اللوحة المأساوية، حتى أنه لم يصدق عينيه، فأمامه مرمي رأس الغزالة - الأم، ذات القرون. لقد أراد أن يركض بعيداً من هنا، بعيداً عن هذا المشهد، ولكن رجلاه لم تساعدانه على الركض. وقف، وأخذ ينظر إلى الرأس المشوه للغزالة البيضاء. تلك الغزالة، التي كانت البارحة أماً، ذات قرون، لغزال صغير، وهي نفسها، التي كانت تنظر إليه من جانب النهر الآخر بعينين خيرتين ملؤهما الود والمحبة. تلك الغزالة، التي تحدث معها عن بعد، وكان يرجوها أن تحمل على قرنيها سريراً سحرياً، مع جرس صغير لطفل يلد عند أرازكول. كل هذا تحول فجأة إلى كومة من قطع لحم وعظم، بأشكال وأحجام مختلفة، وجلد مسلوخ وأرجل مقطعة، ورأس مقطوع، مرمي على الأرض.

كان عليه أن يغادر، ولكنه وقف متحجراً في مكانه،

ولا يعلم، لماذا وكيف حصل هذا. أما الرجل صاحب البشرة السمراء الداكنة، الذي كان يقطع اللحم، فقد استخرج بسن سكينه كلية من كوم اللحم وقدمها للولد، وقال:

- خذ أيها الولد، وقم بشوائها على الفحم، ستكون لذيذة.

أما الولد فلم يتحرك.

- خذ! - أمره أرازكول.

مد الولد يده، دون أن يحس بها. وها هو يقف الآن، منكمشاً على نفسه، ويقبض في يده الباردة كلية الغزالة - الأم، ذات القرون، وهي ما زالت طرية ودافئة. أما أرازكول فقد حمل في هذه اللحظة رأس الغزالة البيضاء ماسكاً بأحد قرنيها.

- آه، كم هو ثقيل! - رفع أرازكول الرأس في الهواء مقدراً وزنه. - فكم تزن القرون لوحدها.

وضع أرازكول الرأس بجانبه فوق كتلة الخشب، وأخذ البلطة، ثم باشر بقطع القرون وفصلها عن جمجمة الرأس.

- أوي، يا لها من قرون! - قال هو، وركز على أن تصيب البلطة جذر القرنين. - إننا سوف نعطي هذه القرون لجدك، - وغمز هو الولد بعينيه. - عندما سيموت، سوف نضع هذه القرون فوق قبره، فالآن، ليقل ما يقول، وكيف نحن لا نحترمه. فأين يوجد احترام أكثر من هذا! فمن أجل هذه القرون ليس من الإثم أن يموت الإنسان، الذي يحبها! - ضحك أرازكول وأخذ يوجه البلطة بكل تركيز.

ولكن القرون لم ترضخ وتنصاع لإرادة أرازكول. وتبين أن فصلها عن الجمجمة ليس سهلاً. فاغتاظ أرازكول الثمل وأخذ يضرب بالبلطة وبلا نتيجة، فخرج عن طوره، فوقع رأس الغزالة على الأرض، أما هو فكان يلحقه وهو يهشمه حسب وقوع البلطة.

ارتعد الولد، وارتجف مع كل ضربة، ورغماً عن إرادته كان ينفعل ويتأثر، ولكنه لم يتمكن من إجبار نفسه على مغادرة المكان. وأصاب الولد كمن يعاني من كابوس في الحلم، وكان مصلوباً إلى مكان المقصلة، وكأنه يقف في مكان ضيق لا حول ولا قوة له فيه. وكان يستغرب أن عين الغزالة - الأم، قد تقززت وجمدت، حتى بدا أنها لا تهاب ضربات البلطة، فلم يرمش لها جفن، رغم تلك الضربات القاسية. فالرأس منذ زمن على الأرض وحوله الأوساخ والتراب، ولكن كل من العينين بقي على صفائه، وما زال ينظر إلى العالم، بصمت وجمود مدهش، وبقي كما هو في لحظة خروج النفس الأخير مع الموت. خاف الولد من أن يصيب أرازكول الثمل العين بضربة من بلطته.

أما بالنسبة للقرون فلم تستسلم. وخرج أرازكول عن طوره، وظهر بمظهر المتوحش وازداد شراسة، فلم يعد يدقق كيف تهوي بلطته، وأين تضرب على الرأس، ولا يهمه أين ستقع - فالأمر سيان سواء ضرب بشفرتها أو بكعبها.

- هكذا قد تكسر القرون! أعطني البلطة، - اقترب سيداخمات بحماسة.

- اغرب! أنا بنفسي! لن أكسرها... عليها اللعنة! - قال أرازكول بصوت أجش، وهوى بالبلطة ثانية.

- كما تريد، - بصق سيداخمات، وسار إلى بيته غاضباً.

سار خلفه ذلك الرجل الأسمر الداكن، إذ حمل كيساً فيه حصته من اللحم.

أما أرازكول الثمل فتابع، وبعناد العربيد يشتم ويسب ويضرب خلف ملحق المنزل رأس الغزالة - الأم، ذات القرون. ويعتقد الناظر إليه، والشرر يتطاير من عينيه، أن بينه وبين هذه الغزالة ثأر قديم، وحان وقت تنفيذه الآن.

- آه، يا لك من رأس لئيم! - كان الزبد والبصاق يخرج من فمه، وهو يضرب الرأس ويدوسه ويركله بجزمتيه، وكأنه في معركة حية مع هذا الرأس الخامد، ويزيد من الشتائم كأن أذني الغزالة تسمعان ما يقول. - كيف، لا تكذب! - وها هو يعود من جديد مع البلطة ويعاود الضرب على الرأس. - إنني لن أكون أنا، إذا لم أتمكن من الإجهاز عليك. خذ من يدي! خذ كما ترغب! سأعلمك كيف لا تسمع! - تابع الصراخ، وهو يضرب بالبلطة بشدة.

تشققت الجمجمة، وتطايرت قطع العظام في كل الاتجاهات.

صرخ الولد بنبرة واحدة وقصيرة جداً، عندما هوت البلطة على العين مباشرة، ومن جرن العين الواسع والحافظ للعين خرجت سوائل العين اللزجة الداكنة. وهكذا ماتت العين، واختفت، وتلاشت...

- باستطاعتي أن أكسر رؤوساً أكبر بكثير من حجمك! وأحطم قروناً أكبر بكثير من قرونك! - تابع أرازكول يهدر، ويضج في لحظات الشر الهمجي المتخلف، والكره لهذا الرأس البريء.

وأخيراً، تمكن من تحطيم الجمجمة عند الجبهة. وساعتئذٍ، قذف البلطة جانباً، وأمسك بالقرنين بيديه، وداس على بوز الغزالة، وأخذ يخلع القرنين من جذورهما بقوة ووحشية. وهكذا انكسرت قطع العظام والغضاريف من حول جذوريهما. وحركت قطع العظام ببعضها، كما تقلع جذور الصنوبر من الأرض. وهذه القرون، كانت هي نفسها، التي تضرع إليها الولد أن تحمل الغزالة - الأم، ذات القرون عليهما السرير السحري لابن أرازكول والخالة بيكي...

شعر الولد، وكأن حالته قد ساءت، فاستدار، ورمى الكلية من يده إلى الأرض، وسار بعيداً عن هذا المكان المشؤوم، ولقد خاف جداً، أن يقع أو يبدأ بالتقيؤ، أمام الناس هنا. شحب وجه الولد،

والعرق البارد اللزج يغطي جبينه. مر من جانب الموقد، الذي اشتعلت فيه النار بقوة جهنمية، ومن فوقه كان يرتفع البخار الحار المنطلق من القدر الكبير، بينما تابع الجد مأمون البائس عمله في إشعال النار أمام هذا الموقد، وهو يجلس وجهاً لوجه مع النار، وظهره للبشر. لم يحاول الولد تنبيه جده بوجوده، فتركه في همه. وسار من جانبه، مسرعاً، حتى يصل إلى سريره في أقصر وقت، وأن يضطجع في فراشه، ويلتحف حتى فوق رأسه، فلا يرى، ولا يسمع شيئاً، وأن ينسى كل ما يجري فوق هذه الأرض...

التقت الخالة بيكي بالولد في الطريق، وكانت مفرغة من شكلها بصورة غير معقولة، وآثار البقع الزرقاء الداكنة على وجهها في أعقاب لكمات وضربات أرازكول المبرحة، وباتت نحيفة لا شكل لها، وحاولت أن تبدي ابتسامة لا معنى لها، وبغير مكانها، وهي تركض اليوم لتقوم بمهام هذا الغداء، الذي أسماه أرازكول بيوم "اللحم الكبير". فتوجهت إلى الولد، وسألته: - ماذا حل بك؟

- أعاني من صداع في رأسي. - أجاب الولد بهدوء.

- نعم، يا عزيزي، إن شكلك يدل على أنك مريض. - قالت الخالة بصيغة الملاطفة والمودة وأخذت تهيل القبلات له بلا عد وحساب.

إنها كانت ثملة أيضاً، وفاحت رائحة الفودكا منها بشدة، مع بعض الحموضة.

- إن رأسه يؤلمه، - تمتمت هي بشفقة. - يا قريبي الصغير والعزيز! ربما تريد أن تأكل؟

- لا، لا أريد. أريد أن أتمدد في فراشي.

- كما تريد، فلنذهب، سوف أساعدك أن تنام في فراشك، ولكنك ستبقى وحيداً في البيت. فالجميع سيكونون عندنا. والضيوف كذلك، وكل الجيران. واللحم قد نضج.- هكذا أقنعته بالذهاب معها.

عندما سارا معاً - الخالة بيكي والولد برفقتها، كان طريقهما من جانب الموقد، ومن خلف الملحق ظهر أرازكول منتفخاً ووجهه أحمر يشبه الدرة الملتهبة، ويمشي مشية المنتصر، ورمى إلى جانب الجد مأمون قرون الغزالة، التي خلعها عن الجمجمة بنفسه. ونهض الكهل من مكانه.

ودون أن ينظر للجد، رفع أرازكول سطلاً من الماء بيديه وأخذ يشرب منه، والماء يتساقط على صدره.

- بإمكانك أن تموت الآن، - قال في استراحة قصيرة عن الشرب، وعاد من جديد يشرب بنهم من السطل.

سمع الولد كيف أجاب الجد بصوت هامس:

- شكراً، يا بني. شكراً. فالآن، حتى الموت لم يعد يخيفني. فالعمر قد طال. وكيف أخشى الموت بعد هذا التقدير والاحترام...

- سأذهب إلى البيت، - قال الولد، وهو يشعر بالضعف في جسمه.

لم تلبي الخالة بيكي طلبه.

- ماذا ستعمل هناك وحدك.- وهكذا أخذته إلى بيتها رغماً عنه، ووضعته على سرير في ركن الغرفة.

كل شيء في بيت أرازكول أصبح جاهزاً للجلوس خلف الطاولة. كل شيء تم تجهيزه. فاللحم، الذي يجب أن يسلق تم سلقه، والذي يجب أن يقلى تم تجهيزه أيضاً. ولقد عملت كل من العجوز وغولجمال بتجهيز كل هذا. أما بيكي، فقد عملت بين البيت والموقد في الساحة. وفي انتظار حفل "اللحم الكثير" كان الحضور يشربون الشاي. أما أرازكول والرجل الأسمر الداكن كانا يستلقيان نصف استلقاء على بطانيات ملونة، مع وسادات تحت المرفق، وأخذا

يتكبران، وشعرا أنهما أمراء. أما سيداخمات فقد عمل بتحضير الشاي وتقديمه حسب الأصول.

خلد الولد للنوم في ركن الغرفة، وكان قلقاً وكأنه مصفد بالسلاسل. وعاودته القشعريرة ثانية. أراد أن ينهض ويخرج، ولكنه كان يعرف أنه وبمجرد أن ينهض من الفراش، سيعيدونه إليه. ولذلك بقي رغماً عنه كاتماً مشاعره في صدره، وكأن حجراً قد علق في حنجرته، وخاف أن يتحرك حركة زائدة.

حان الوقت، فنادت النسوة سيداخمات للخروج إليهن في الساحة، وعاد بعد برهة، ليظهر عند باب الصالة، وهو يحمل قصعة كبيرة تحتوي اللحم المشوي. وبالكاد أوصله لثقله. ثم وضعه أمام أرازكول وكوكيتاي، بينما حملت النسوة مأكولات مختلفة.

أخذ الجميع أمكنتهم، وتم تقديم السكاكين والصحون، بينما قام سيداخمات بصب الفودكا في الكؤوس حسب الأصول.

- سأكون أنا قائداً للفودكا، - قال سيداخمات، وأومأ برأسه نحو زجاجات الفودكا في الزاوية.

جاء الجد مأمون، كآخر شخص في الحضور، وكان شكله ينم عن القهر والخضوع والمذلة على عكس ما كان عليه في السابق. أراد أن يجلس في أبسط مكان متواضع على حافة الطاولة، ولكن الرجل الأسمر القوي كوكيتاي طلب بمودة من الجد مأمون أن يجلس إلى جانبه:

- تفضل إلى هنا أيها العم المحترم.

- شكراً. نحن هنا في بيتنا، نحن هنا أصحاب البيت. - حاول الجد أن يعتذر ويرفض الطلب.

- على أي حال، أنت هنا الأكبر بالعمر.- أصر كوكيتاي، وأجلس الجد بينه وبين سيداخمات.

- فلنشرب، أيها العم بهذه المناسبة نخب صحتكم ونجاحكم. ولكم الكلمة الأولى للنخب الأول.

سعل الجد مرتبكاً قليلاً وقال بغصة واضحة:

- من أجل السلم والمودة في هذا البيت، - فهناك حيث السلم، تكون السعادة، يا أبنائي.

- حقاً، حقاً! - عقب الجميع على ما قاله الجد، وقذفوا ما في كؤوسهم إلى أعماق الحناجر.

- ولماذا أنتم لم تشربوا؟ لا يجوز هكذا! - تتمنون السعادة لصهركم وابنتكم، ولا تشربون. - قال كوكيتاي، موجهاً ملاحظة للجد مأمون.

- طالما من أجل السلم والسعادة، لا يسعني إلا أن أشرب، - قال الكهل مسرعاً.

لقد استغرب الجميع كيف شرب الجد الكأس حتى النهاية، وكان مملوءاً للغاية بالفودكا، وكيف هز رأسه كما يفعل شاربو الفودكا المجربون.

- هذا، شيء رائع!

- إن كهلنا ذو شخصية فريدة! - قال أحدهم.

- رائع كهلنا. - قال آخر.

ضحك الجميع، والكل كان راضياً، والجميع أثنوا على الجد.

كان الجو في البيت حاراً، ومحبوس التنفس. أما الولد فقد تابع استلقائه في السرير، وهو يتعذب من أمور كثيرة تقلقه. وكان يصاب ويعاني من الدوران في رأسه جد معاناة. كان ينام وعيناه مغلقتان. وكان يسمع كيف كان هؤلاء الناس المجتمعون حول الطاولة يتناولون الطعام، ويثنون على طريقة تحضيره، ولذة مذاقه، ويصدرون

أصواتاً، معبرين عن الإعجاب بلذة الطعام، كما كانت تسمع أصوات مضغ الطعام القوية، وقرع الكؤوس. وكيف كانت تسمع أصوات وقع العظام، التي كان الحاضرون يقومون بتعريتها من اللحم، ثم يقومون بقذفها إلى قصعة فارغة مخصصة للفضلات.

- هذا ليس لحماً عادياً، بل يشبه لحم مهر* صغير. - امتدح كوكيتاي طعم اللحم، وهو يلعق شفتيه.

- وهل نحن مجانين، يا ترى، نعيش في الجبال، ولا نأكل مثل هذا اللحم. - قال أرازكول.

- حقاً، ولماذا نحن نعيش هنا. - أكد سيداخمات على ما قيل.

الجميع يأكلون بنهم لحم الغزالة - الأم، ذات القرون: العجوز، والخالة بيكي، وغولجمال، وحتى الجد مأمون. ولقد أعطوا الولد بعضاً من اللحم في صحن وبعض المأكولات الأخرى، ولكنه رفض أكل هذا. وعندما شاهد الثمالى أن وضعه الصحي سيئ، تركوه بلا إزعاج.

اضطجع الولد، وهو يصرك بأسنانه، مطبقاً فمه حتى النهاية، وبدا له الأمر أنه وبهذا الوضع لن يستفرغ ما تبقى في معدته. وأكثر ما كان يعذبه هو إدراك ضعفه الذاتي أمام الجميع. ولم يكن بإمكانه أن يفعل شيئاً مع هؤلاء الناس، الذين قتلوا الغزالة - الأم، ذات القرون. وفي قهره الطفولي البريء، وفي وضعه اليائس المأساوي فكر الولد بمختلف المحاولات للثأر، ولكن كيف كان بإمكانه أن يعاقب هؤلاء، ويجبرهم على تفهم مسألة ارتكابهم جريمة فظيعة وشريرة. ولم يكن بإمكانه أن يفكر بأية طريقة أقوى وأنجع من أن يستنجد

* في آسيا الوسطى عامة، وفي قرغيزستان بشكل خاص يأكلون لحم الخيل ويفضلونها على الكثير من أنواع اللحوم الأخرى. - (المترجم).

بتفكيره بصديقه كولوبيك، وأن يناديه في خياله حتى يساعده. ذلك الشاب في سترة عسكرية، الذي جاء مع الشباب السائقين حتى يحملوا الحشائش اليابسة في تلك الليلة العاصفة. وكان هذا الشاب، الإنسان الوحيد من بين الجميع، الذي تعرف إليه الولد، وكان بإمكانه أن يعزل أرازكول ويقول له الحقيقة في عينيه.

... وحسب نداء الولد، جاء كولوبيك بشاحنته مسرعاً، وخرج من قمرة السائق والرشاش معلقاً على كتفه:

- أين هم؟

- إنهم هناك!

ركض الاثنان إلى بيت أرازكول، فتحا الأبواب بشدة.

- كل منكم في مكانه! ارفعوا أيديكم! - قال كولوبيك بصوت جهوري مهدداً، وهو يوجه الرشاش إليهم.

اندهش الجميع، وتجمدوا في أمكنتهم من الخوف. وكل منهم حاول الالتزام بمكانه. توقفت قطع اللحم في حناجرهم. وكانت أيديهم ملوثة حتى المرافق بالدسم والشحم، وتلطخت وجناتهم وأفواههم بالدسم والشحوم، وامتلأت بطونهم باللحم والمشروبات الكحولية، فلم يتمكنوا من النهوض أو التحرك.

- قف في مكانك، أيها الوغد الحقير! - صوب كولوبيك الرشاش إلى رأس أرازكول. وهنا، أخذ أرازكول يرتعد ويرتجف، وفقد القدرة على الكلام، ثم وقع عند أقدام كولوبيك.

- أرجوك، لا، لا تقتلني!

ولكن كولوبيك لم يكن سهلاً حتى يقبل رجاء اللئيم، فصرخ به:

- اخرج أيها السافل، جاءت نهايتك أيها الوغد! ووجه له ركلة

قوية وشديدة تحت مؤخرته السمينة الثقيلة، وهكذا أخرج أرازكول مرتجفاً من البيت أمامه.

كما خرج كل من كان في البيت مروعين مذهولين صامتين إلى ساحة البيوت.

- قف، وجهك للحائط! - أمر كولوبيك أرازكول، - فلقد حكم عليك بالإعدام، لأنك قمت بقتل الغزالة - الأم، ذات القرون، ولأنك خلعت قرنيها عن رأسها، وكانت قد حملت السرير السحري عليهما لطفلك، الذي كان سيولد!

وقع أرازكول في الوحل، زحف راجياً، أخذ يصرخ، يئن ويتضرع:

- لا تقتلوني، فأنا لا يوجد عندي أولاد. فأنا وحيد في هذه الدنيا، لا يوجد عندي ابن ولا ابنة...

أين اختفت كل تلك العنجهية والعجرفة، والعصبية! يا له من نذل جبان وساقط! فحتى قتل مثل هذا الخنزير شيء مخزي، ولا يستحق أن يتلوث الإنسان بدمه.

- لا بأس، لن نقتله، - قال الولد لصديقه كولوبيك. - ولكن دع هذا الإنسان يغادر من هنا، وحتى لا يعود إلى هذه المنطقة نهائياً. فهو لا يلزمنا هنا، وهو عالة حتى على الطبيعة، التي يقطع أشجارها، ويقتل كائناتها الرائعة، فليخرج من هنا.

وقف أرازكول، رفع بنطاله، وهو يرتعد، وخاف أن ينظر إلى الخلف، واختفى اختفاء الجبناء. كان سميناً، وله كرش كبير، يضفي فوق البنطال المعلق بشيالات. ولكن كولوبيك استوقفه:

- قف! إننا سنقول لك كلمة أخيرة. لن يكون عندك أولاد نهائياً، فأنت إنسان شرير ولئيم، وهنا لا يحبك أحد. وحتى الغابة

تكرهك كرهاً كبيراً، ولا ترغب أية شجرة فيها أن تراك بالقرب منها، وحتى كل عشبة تكره رائحتك. فأنت فاشي مجرم. اغرب عن أعيننا - وإلى الأبد. اغرب بسرعة من هذه البلاد!

أخذ أرازكول يركض دون أن يلتفت إلى الخلف ولو لمرة واحدة.

- احذر! احترس!- أخذ يصرخ كولوبيك في أثره، وأطلق رصاصة من رشاشه في الهواء ليزيد الرعب في قلبه، وحتى يسرع في ركضه.

فرح الولد وسر للغاية. وعندما اختفى أرازكول عن الأنظار، قال كولوبيك للآخرين الموجودين، والمضطهدين الواقفين عند الباب:

- كيف كان لكم أن تعيشوا مع هذا الإنسان؟ أليس من العار عليكم أن ترضوا بالعيش مع ذلك الوغد؟

شعر الولد بالراحة، فقد تمت المحاكمة العادلة. وأخذ يصدق أحلامه، وكأنها واقع فعلي. وحتى نسي أين هو موجود، وما هي المناسبة لهذه الحفلة في بيت أرازكول.

... انفجار الضحك العالي أيقظ الولد من أحلامه السعيدة، وفتح عينيه، وأصغى السمع. فلم يكن صوت الجد مأمون مسموعاً في الغرفة. لقد خرج، كما يبدو، إلى مكان ما. أما النسوة فقد بدأن بغسيل الأواني، وجهزن الفناجين لتقديم الشاي. أما سيداخمات فقد كان يحدث بصوت عال، وكان الجالسون منسجمون معه ويضحكون من كلامه.

- وماذا حصل بعد ذلك؟ - سأل أحدهم.

- أكمل، حدث! - قال آخر.

- كلا، اسمع، أنت حدث، أعد مرة أخرى، - طلب أرازكول، وكاد يموت من الضحك، - وكيف كان الأمر بالنسبة له في هذا الخصوص؟ وكيف أنت أخفته. أوي، لم أعد أستطيع!

- إذن، هكذا كان الأمر، - أخذ سيداخمات بتكرار ما حدثه قبل قليل. - وعندما أخذنا نقترب من الغزلان، وهي كانت تقف فوق المنحدر في الغابة، وعددها ثلاثة. وبمجرد أن ربطنا الخيول إلى الأشجار، أمسكني الكهل فجأة من يدي. "لا نستطيع فعل هذا، - قال لي، - لا نستطيع أن نطلق النار على الغزلان. نحن البوغيون، أولاد الغزالة - الأم، ذات القرون!" وأخذ ينظر نحوي باهتمام، وكما ينظر الولد الصغير، ويرجوني بعينيه، أما أنا - تحب أن تقف، تحب أن تقع افعل ما تشاء، - إنني أموت من الضحك. ولكن لم أضحك. بل على العكس، حقاً إن هذا قد كان فعلاً. "ماذا حل بك، - أقول له - هل تريد أن تدخل إلى السجن؟" - "كلا"، - يقول هو. "أما أنت تعلم، بأن الحكايات البايية قد تم نسجها في أزمنة البايات الغابرة، وهدفها الأساسي أن تخيف وترعب الشعوب الفقيرة!". أما هو آنذاك فقد فتح فاهه: "هل هذا حقاً؟" - يقول. "هذا ذلك - ذلك، - أقول، - عليك أن تترك الترهات القديمة، وإلا لتعاملت معك بشكل آخر، أيها الكهل، سوف أكتب عنك إلى الجهة اللازمة".

- ها - ها - ها! - ضحك الجميع دفعة واحدة.

وأكثرهم ضحكاً كان أرازكول. إنه ضحك، وضحك حتى أفرغ كل ما علق بروحه من شوائب الدهر.

- ولكن، وفيما بعد أخذنا نتسلل. ولو كان حيواناً آخر، لكان قد مرَّ دون أن يترك أثراً. أما هذه الحيوانات نصف الذكية، التي تدعى بالغزلان لا تهرب، وكأنها لا تخاف منا. وهذا أفضل، وأفكر، - قال سيداخمات متكبراً، ملمعاً نفسه، وهو ثمل بما فيه الكفاية - أن أسير في المقدمة مع السلاح والكهل خلفي، وهنا حل بي الشك المقيت، ففي حياتي كلها لم أصطد عصفوراً. أما هنا فالأمر

يختلف، وإذا لم أصب الغزالة، - ستهرب إلى الغابة، وحاول أن تبحث عنها، أو أن تلحق بها. ولو غادرت إلى ما بعد الوادي والمنحدر، سينتهي الأمر بالفشل. فهل من المعقول أن نترك هذا الحيوان طليقاً؟ أما بالنسبة للكهل فقد كان صياداً ماهراً، إذ قتل دباً عاتياً في أيام شبابه. وهنا قلت له: "خذ هذا السلاح، أيها الكهل، وقم باصطياد الغزالة عني". أما هو فقد رفض رفضاً باتاً أن يفعل هذا! "أنت أطلق النار، - قال لي". أما أنا فأجبته: "ألا ترى أنني ثمل بلا حدود"، وأترنح في مكاني، ويصعب عليَّ الوقوف على رجليّ. أما هو فقد شاهد عندما قمنا بجر الجذع من النهر، كيف شربت زجاجة الفودكا، ولهذا قلت له إنني سكران.

- ها، ها، ها!... - ضحك أرازكول. بينما تابع سيداخمات:

- "إنني لن أصيبه، وتهرب الغزلان، ولن تعود ثانية، أما نحن فسنعود بأيادي خالية، وهذا أمر سيئ للغاية. وأنت تعرف، ماذا يعني هذا. فتمعن في الأمر. لماذا أرسلونا إلى هنا؟". التزم الكهل الصمت، ولم يأخذ بندقية الصيد مني. "كما تريد، - قلت له، - افعل ما يطيب لك". قذفت البندقية جانباً، وتظاهرت كأنني سأعود. أما هو فقد سار خلفي "بالنسبة لي، - قلت له، - الأمر سيان، ولو طردني أرازكول من العمل، لذهبت من هنا، وسأعمل في السوفخوز، أما أنت فإلى أين ستذهب وأنت بهذا السن؟". التزم الصمت. وأخذت أدندن أغنيتي المحبوبة، حتى أكمل المشهد للتأثير عليه:

من الجبال، الجبال الشهباء
قدمت على حصان أشهب
إيه أيها التاجر الأشهب، افتح الأبواب!...

- ها، ها، هاها!...

آمن هو، واعتقد كلياً، أنني ثمل للغاية. ذهب وجاء بالبندقية من المكان، الذي رميتها فيه، وأنا أيضاً سرت بعض الخطوات إلى الخلف. وخلال الوقت، الذي تناقشنا فيه، كانت الغزلان قد ابتعدت قليلاً. "انظر، - قلت له، انظر، إنها تغادر، فلا تلحق بها، أطلق النار ما دامت هادئة". أمسك الكهل البندقية. أما الغزلان فقد أخذت تتموه قليلاً، أما هو فما زال يقول شيئاً غير مفهوم، كنصف عاقل: "سامحيني أيتها الغزالة - الأم، ذات القرون، سامحيني...". أما أنا فأعيد قائلاً: "انظر، - إذا أخطأت الهدف من الأفضل أن تهرب مع الغزلان إلى الجهة، التي تقودك لها عيناك، ومن الأفضل أن لا تعود إلى المنزل...".

- ها، ها، هاها!...

في الدخان الخانق، الذي عبق في الغرفة، والضحك الهستيري، ازدادت حمى الولد، وضاق تنفسه، وكاد رأسه ينفجر من الصداع الشديد، ومن قهقهة السكارى، الذين لا هم لهم إلا شرب الفودكا. وبدا له وكأن أحد هؤلاء قد ركله بشدة على رأسه، عدة مرات، وأن آخر قد قطع رأسه بالبلطة. وخيّل له أن شخصاً ما يصوب البلطة إلى عينه، ولذلك قذف رأسه جانباً، وحاول أن يبتعد، وراح يتقلب من جهة إلى أخرى. إنه كان يتخبط في حمى، وقشعريرة، فأحس بنفسه أنه يغوص في مياه نهر جليدية، قادمة من أعالي الجبال المغطاة بالثلوج. فتحول إلى سمكة. فالذيل والجسم، والزعانف - كلها كما في الأسماك، أما الرأس فقد كان كما هو في شكله الإنساني، ولذلك كان يؤلمه. فأخذ يسبح في أعماق المياه الصامتة المظلمة في برودتها اللامتناهية، وكان يفكر أنه الآن سيبقى سمكة إلى الأبد، ولن

يعود إلى الجبال. "لا لن أعود"، - كان يقول، ويؤكد لنفسه - "ومن الأفضل أن أكون سمكة، من الأفضل أن أكون سمكة...".

لم يلحظ أحد من الموجودين، كيف نزل الولد من سريره، وخرج من باب الغرفة، وبمجرد أن تمكن من الوصول إلى خلف ركن المنزل، حتى أخذ يستفرغ كل ما في معدته الخاوية وأمعائه. تمسك بالجدار، وهو يئن، ويبكي، والدموع تتساقط على وجنتيه، وأصيب بالاختناق، وقال متمتماً:

- كلا، من الأفضل أن أكون سمكة، وأغادر سابحاً من هنا، من الأفضل أن أكون سمكة.

وخلف نوافذ أرازكول، كانت تسمع قرقعة الكؤوس وكلام السكارى العالي غير المفهوم. أما الضحك البربري المتوحش، والقهقهة الخالية من الحس كانت تصم آذان الولد، وتزيد آلامه آلاماً ومعاناة كبيرة. وبدا له أن وضعه السيئ هذا، كله، بسبب القهقهة المتوحشة. حاول المسير في ساحة المنزل، ولكنها كانت خالية من البشر، وإلى جانب الموقد المنطفئ وجد الولد جده مأمون ثملاً حتى الموت. كان الكهل مستلقياً هناك، على الأرض إلى جانب القرنين المخلوعين من رأس الغزالة - الأم. وبالقرب من المكان كان الكلب يأكل ما تبقى من رأس الغزالة المهشمة بالبلطة. ولم يكن في الساحة عدا هذا.

انحنى الولد فوق جده المكوم على الأرض. حاول تحريكه من كتفه، قائلاً له:

- يا جدي، لنذهب إلى البيت، لنذهب.

لم يجب الكهل، ولا بكلمة، فهو لم يسمع شيئاً، فهو لم يتمكن من أن يرفع رأسه. نعم، وما كان عليه أن يقول، وبماذا سيجيب؟

- أرجوك قم أيها الجد، لنذهب إلى البيت، - أخذ الولد يرجو بمرارة.

فمن يعرف حقيقة أمره، فهل كان يدرك بعقله الطفولي، أو كان أضعف من أن يدرك حقيقة أمر الجد مأمون، وأنه يضطجع الآن هنا مضحياً بنفسه لقاء حكايته عن الغزالة - الأم، ذات القرون، وأنه رغماً عنه تطاول على ما كان يوصيه به طوال حياته، - من أجل ذكرى الآباء والأجداد الأقدمين، من أجل ضميره ومثله الإنسانية، وأنه قام بهذا العمل من أجل ابنته سيئة الحظ، ومن أجل حفيده بالطبع...

وها هو الكهل الآن مصروعاً بالمصيبة، التي حلت به والعار، الذي لحق به كقتيل، وجهه إلى الأسفل، لا يرد على نداءات الولد.

جلس الحفيد إلى جانب جده، محاولاً أن يحركه.

- أيها الأب، ارفع رأسك، - طلب هو. كان الولد شاحباً، وقدرته على الحركة كانت ضعيفة، ويداه وشفتاه ترتجفان. - أيها الجد، هذا أنا، هل تسمعني؟ - قال هو، - لقد ساء وضعي، - أخذ يبكي بمرارة. - إن رأسي يؤلمني، يؤلمني جداً.

إن الكهل، تحرك حركة بسيطة، ولكنه لم يتمكن من العودة إلى وعيه.

- أيها الأب، هل سيأتي كولوبيك؟ - سأل الولد فجأة، والدموع تنهمر على خديه. - قل لي، هل سيأتي كولوبيك؟

- كان الولد يهزّ جده دون فائدة.

لقد أجبر الولد الجد أن يقلب على جنبه، وارتعد خوفاً، عندما التوى وجه جده نحوه، وكانت علائم السكر بادية عليه، فوجهه ملطخ بالتراب والأوساخ، وثمة لحية بسيطة غير منتظمة تلطخت

بالوحل. ولقد وجد الولد لحظتها شبه بين وجه جده ووجه الغزالة المقتولة، وخاصة بعد قطع رأسها ببلطة أرازكول. أصيب الولد بالهلع، وابتعد عن جده، قائلاً:

- إنني سأتحول إلى سمكة، أتسمعني يا جدي، سوف أسبح بعيداً، وعندما سيأتي كولوبيك، قل له، أنني تحولت إلى سمكة.

لم يجب الكهل بأية كلمة.

سار الولد مبتعداً، أكثر وأكثر، وانحدر نحو النهر، ودخل مباشرة إلى الماء...

لم يعلم أحد، أن الولد قد دخل مياه النهر، وتحول إلى سمكة... وفي ساحة المنزل كانت ترتفع أغاني السكارى:

من الجبال الحدباء، الحدباء
قدمت على جمل أحدب.
إيه أيها التاجر الأحدب، افتح الباب،
سوف نشرب نبيذاً مراً!..

أنت غادرت سابحاً في النهر. لم تنتظر كولوبيك. كم أنا آسف، أنك لم تنتظر كولوبيك. لماذا لم تخرج راكضاً إلى الطريق. ولو أنك ركضت طويلاً على الطريق، لكنت قد وجدته بشكل أكيد. ولعرفت سيارته من بعيد. وكان عليك أن ترفع يدك فقط، حتى يراك، ويتوقف على حافة الطريق على الفور

ولسألك:

- إلى أين؟

ولأجبته:

- أنا قادم إليك!

سيأخذك ساعتئذٍ معه في القمرة. وأنت ستسافر معه. أنت وكولوبيك. وفي الطريق، وبعد أن تقطعوا مسافة، كان من الممكن أن تقول له، أن الغزالة - الأم، ذات القرون، لم تعد تظهر إلى البشر، حبذا لو كنت قد رأيتها.

ولكنك سبحت مغادراً. وهل علمت أنك لن تتحول إلى سمكة أبداً، وأنك لن تسبح حتى بحيرة إسك - كول، ولن ترى السفينة البيضاء، ولن تقول لها: "مرحباً أيتها السفينة البيضاء، هذا أنا!".

ولكني، أقدر على القول الآن - أنت رفضت ذلك، الذي لم يتناسب مع روحك البريئة في سنوات طفولتك. وفي هذا عزائي الوحيد. أنت عشت كشهب البرق، أضأت الفضاء يوماً، ثم انطفأت. والبروق تنقش من قبل السماء، والسماء أبدية. وفي هذا عزائي أيضاً.

وفي ذلك أيضاً، حيث أن الضمير الطفولي في الإنسان - مثله مثل البرعم في الحبة، فبدون البرعم لا تنبت الحبة. ومهما تكن من أمور صعاب في هذا الكون، فإن الحقيقة ستبقى جلية إلى الأبد، ما دام يخلق ويموت البشر...

وفي وداعك، أعود لأكرر كلماتك، أيها الولد: "مرحباً، أيتها السفينة البيضاء، هذا أنا!".

صدر للمؤلف والمترجم
الدكتور ماجد علاء الدين

أ. ترجمة إلى اللغة الروسية عن العربية:

1. "عائد إلى حيفا" رواية من تأليف غسان كنفاني، موسكو 1974. وأعيدت طباعتها مرتين، وصدرت على حلقات في مجلة "آسيا وأفريقيا اليوم" بمئات ألاف النسخ.
2. مجموعة دراسات ومقالات عن الأدب العربي منشورة في المجلات والصحف الروسية بين أعوام 1973- 1980.

ب. ترجمة إلى العربية عن الروسية في مجالات السياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع:

1. "أكتوبر وحركة التحرر الوطني"، مجموعة باحثين، دار ناؤوكا، موسكو 1975.
2. "كمب ديفيد سياسة مصيرها الفشل"، تأليف أ. زاخاروف - أ. فومين، دمشق ط1 1984- ط2 1985.
3. "البلدان النامية والعلاقات الاقتصادية الخارجية"، تأليف بورتيانيكوف، دمشق 1985.
4. "الأخوة كينيدي"، تأليف أ. غروميكو، دمشق 1986.
5. "مذكرات عن الانقلاب العسكري الأسباب والنتائج"، ميخائيل غورباتشوف، دمشق 1992.

6. "القتلة على الرمال البيضاء"، أناتولي آغارشيف، دمشق 2000.
7. "ستالينغراد ملحمة العصر"، ف. تشويكوف، دمشق 1995.

ج. روايات وقصص قصيرة:

1. "النطع" رواية من تأليف جنكيز أيتماتوف، دمشق 1984.
2. "الأقصوصة السوفييتية المعاصرة"، دراسة وقصص مختارة، دمشق ط1 1983، ط2 1984، ط3 1985.
3. "محاكمة سقراط"، تأليف يوري فانكين، دمشق 2002.
4. "أحلام إيفان المأساوية"، رواية من تأليف الدكتور ماجد علاء الدين، دمشق .2002
5. "بؤس الشيطان"، بريم ستوكر، ترجمة مشتركة مع نايف أبو كرم، دمشق 2002.
6. "الواقعية في الأدبين الروسي والعربي"، دراسة أدبية من تأليف الدكتور ماجد علاء الدين، دمشق ط1 1984، ط2 .2015
7. "الأرض الأم"، تأليف جنكيز أيتماتوف، دمشق .2016
8. "حورتي في منديل أحمر"، تأليف جنكيز أيتماتوف، دمشق .2016
9. "السفينة البيضاء"، تأليف جنكيز أيتماتوف، دمشق 2016.

د. شعر مترجم وقصص مختارة عن الروسية إلى العربية:

1. الضفدعة السائحة، غارشين، دار التقدم، موسكو 1975.
2. "مختارات من الشعر الروسي" (دراسات وقصائد مختارة)، دمشق 1984.
3. مغامرات بوراتينو، تأليف ألكسي تولستوي، دمشق .1984
4. "المرآة والقرد"، تأليف أ. كريلوف، دمشق 1985.
5. "الوقواق والديك"، تأليف أ. كريلوف، دمشق 1985.

6. "الذئب والثعلب"، تأليف أ. كريلوف، دمشق 1985.
7. "تيمور وفريقة"، قصة للناشئة، أ. غايدار، دمشق 1986.
8. "ملحمة الزمن" ديوان شعري، أناتولي سافرونوف، دمشق 1986.
9. "رموز مقدسة"، مجموعة شعرية، تأليف ن. ريريخ، دمشق .1993
10. "الروح الشريرة"، تأليف ميخائيل ليرمنتوف، دمشق 2002.

هـ. ثقافة عامة:

1. "صفحات مجهولة من حياة تولستوي"، ترجمة إلى العربية، دمشق 1986.
2. "قصص من حياة دوستويفسكي"، ترجمة إلى العربية، دمشق 1985.
3. "ذكراه في القلب والدة رائد الفضاء الأول تروي قصته"، آنا غاغارين، ترجمة إلى العربية، دمشق 1987.
4. "دليل السائح الروسي"، تأليف الدكتور ماجد علاء الدين، دمشق 1992.
5. "الأجسام الطائرة المجهولة"، أ. كوزوفكين، ترجمة إلى العربية، دمشق 1994.
6. "سويداء سورية (موسوعة شاملة عن جبل العرب)"، مشاركة مع مجموعة من المؤلفين، دمشق 1995.

و. قيد الطباعة:

1. "بناة الأهرامات ما زالوا شباباً" - رواية.
2. "مئة مفكر عظيم" في ثلاثة أجزاء، ترجمة عن الروسية.
3. دراسات في النقد الأدبي وعلم اللغة الروسية وآدابها.
4. سيرة حياة عامة...